في تاريخ الأيوبيين والمماليك

دكتور أحمد مختار العبادي
أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة الإسكندرية

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت - ص.ب ١١٠٧٤٩

في

تاريخ الأيوبيين والمماليك

١٩٩٥م

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت - ص ت ٧٤٩-١١

* الإدارة: بيروت، شارع مدحت باشا، بناية كريدية، تلفون: 866271 818704 / 818705
برقياً: دا نهضة، ص. ب 749 ـ 11
تلفاكس: 232 ـ 4781 ـ 212 ـ 001

* المكتبة: شارع البستاني، بناية اسكندراني رقم 3، غربي الجامعة العربية، تلفون: 818703 / 316202

* المستودع: بئر حسن، تلفون: 833180

إهـداء

«إلى ذكرى أستاذي المرحـوم

الدكتور محمد مصطفى زيادة

أهدي هذا الجهد المتواضع

اعتـرافـاً بفضلـــه»

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا كتاب في تاريخ الأيوبيين والمماليك في مصر والشام، حاولت من خلاله أن أبرز أهمية الدور السياسي والحربي والحضاري للفارس المملوك في المجتمع الإسلامي، ومدى تأثيره في مجريات الأحداث الدولية والإقليمية في العصر الوسيط.

وقد اقتضى ذلك الرجوع إلى معرفة أصل استخدام المماليك في المجتمع الإسلامي والأنظمة التربوية العسكرية الإسلامية التي اتبعت في إعداده وتكوينه على مرّ العصور الإسلامية منذ عهد السامانيين والغزنويين والخوارزميين والسلاجقة ثم الأيوبيين الذين يرجع إليهم الفضل في انتقال تلك النظم إلى مصر حيث بقيت عدة قرون زمن دولة المماليك التي تبلورت فيها خلاصة هذه الأنظمة، وحصيلة هذه التجارب المملوكية السابقة التي سادت بلاد ما وراء النهر وافغانستان والهند وخراسان والعراق شرقاً وبلاد المغرب والأندلس غرباً. وقد عبر القلقشندي عن هذه الظاهرة بقوله:

«ودأبت سلطنة المماليك في مصر على أن تنقل من كل مملكة سبقتها أحسن ما فيها، فسلكت سبيله، ونسجت على منواله، حتى تهذبت وترتبت أحسن ترتيب، وفاقت سائر الممالك» (صبح الأعشى جـ ٤ ص ٦).

وكل هذا يوضح أسباب الانتصارات التي حققها هؤلاء المماليك في الحروب الجهادية التي خاضوها في جبهات متعددة في وقت واحد ضد

الصليبيين غرباً، والمغول شرقاً، والأرمن شمالاً، والنوبيين جنوباً، هذا إلى جانب الإصلاحات الإدارية والإنجازات الاقتصادية والمنشآت المعمارية التي جعلتها من أبرز دول العالم قوة وازدهاراً.

ولقد سبق لي أن نشرت في هذا الصدد كتاباً بعنوان «قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام» انتهيت فيه عند عصر السلطان الظاهر بيبرس، ولكنني آثرت في هذا الكتاب أن أواصل تاريخ هذه الدولة المملوكية الأولى، وهي المعروفة بدولة المماليك البحرية، حتى نهايتها أي إلى نهاية عصر بني قلاوون وقيام دولة المماليك الثانية وهي المعروفة بالبرجية أو الجراكسة على يد السلطان الظاهر برقوق.

والله ولي التوفيق.

الإسكندرية ١٧/ ١١/ ١٩٩٤ — المؤلف

الفصل الأول

المماليك الأتراك والصقالبة في المجتمع الإسلامي

هذا الموضوع يتناول دراسة دور المماليك في تاريخ كل من الدولة الأيوبية، ودولة المماليك الأولى في مصر والشام والدراسة التاريخية لمثل هذا الموضوع تحتاج إلى النظرة الشاملة التي تستوعب التيارات والحركات منذ نشأتها إلى وقت نضجها وتأثيرها في مجريات الحوادث. وهذا يقتضي منا معالجة أصل استخدام المماليك في المجتمع الإسلامي عامة تم تتبع نمو نفوذهم ومراحل تطورهم ومدى مشاركتهم في أعمال الحرب والجهاد لا سيما في عصر الأيوبيين والمماليك الذي هو موضوع دراستنا والمملوك عبد يباع ويشترى غير أن التسمية اقتصرت في معظم الدول الإسلامية على فئة من الرقيق الأبيض يشتريهم الحكام من أسواق النخاسة البيضاء لتكوين فرق عسكرية خاصة في أيام السلم وإضافتها إلى الجيش العام أيام الحرب ثم صار المملوك الأداة الحربية الوحيدة في بعض الدول مثل دولة المماليك في مصر والشام.

والمماليك الأتراك والصقالبة أشهر أنواع الرقيق الأبيض في المجتمع الإسلامي وقد انتشر استخدام الأتراك في دول المشرق الإسلامي بحكم دأبها واتصالها بموطنهم الأصلي في أواسط آسيا. أما الرقيق من الصقالبة فقد انتشر في الغرب الإسلامي، وكان طريقه الرئيسي هو الطريق الذي يبتدىء من شرق ألمانيا إلى إيطاليا وفرنسا ومنها إلى الأندلس وجزيرة صقلية والمغرب.

والمقصود بالصقالبة في الكتب العربية سكان البلاد المختلفة من بلغاريا العظمى التي امتدت أرضها من بحر قزوين إلى البحر الأدرياتي.

ولتسهيل دراسة هذا الموضع رأينا أن نخصص الكلام فيما يلي عن كل فريق على حده.

المماليك الأتراك في المشرق الإسلامي:

لا شك أن الأرقاء من الأتراك أقدم عهداً بالدولة الإسلامية من الرقيق الصقلبي إذ وصل المسلمون شرقاً إلى بلاد تركستان وما وراء نهري سيحون وجيحون وفتحوها على يد القائد العربي قتيبة بن مسلم أواخر القرن الأول الهجري أي القرن السابع الميلادي. وعندئذ صار للرقيق التركي مكانة ممتازة في المجتمع الإسلامي «لوفائهم وشجاعتهم وتمام قاماتهم وحسن صورهم وظرافة شمائلهم» وجاء أغلب أولئك الأرقاء عن طريق الأسر في الحروب أو عن طريق الشراء في أيام السلم وكثر استخدامهم غلماناً وحرساً قبل أن يعرف المسلمون شيئاً عن الصقالبة وبلادهم.

ولم تلبث أقاليم ما وراء النهر (أي نهر جيحون) مثل خوارزم، والشاش (طشقند) وأشروسنة وفرغانة، وسمرقند، وبخارى أن صارت مراكز هامة لتجارة الرقيق التركي بعد إعداده وتربيته تربية عسكرية إسلامية ثم تصديره إلى أنحاء العالم الإسلامي.

ولقد جرت العادة أن ولاة هذه الأقاليم، كانوا يرسلون بعض هذا الرقيق على شكل هدايا إلى الخليفة أو الوزير حتى صار انقطاع ذلك النوع من الهدايا علامة من علامات الثورة أو العصيان في الأقاليم.

وتشير المراجع إلى أن هؤلاء الأتراك الذين جاءوا إلى المجتمع الإسلامي الأول عن طريق الحرب أو الشراء لم يعاملوا معاملة سائر الرقيق بالخدمة في الأعمال الحقيرة مثل كنس الدار وسياسة الدواب وما أشبه ذلك، بل كانوا يتولون مناصب الحكم والقيادة في الدولة، وقد يؤيد ذلك قول

المؤرخ ابن حسول (ت ٤٥٠هـ) في كتابه «تفضيل الأتراك على سائر الأجناد» ولا يرضى التركي إذا خرج من وثاقة إلا بزعامة جيش أو التوسم بحجابة أو الرياسة على فرقة كما أنه لا يرضى إلا بأن يساويه سيده في مطعمه ومشربه وملبسه ومركبه، ولا يسف في خدمة إلى ما يسف إليه سواه من الحاصلين في الرق والمجلوبين بالسبي ككنس الدار وسياسة الدواب وما أشبه ذلك[1] .

هذا ويبدو أن استخدام المماليك الأتراك في الوظائف الكبرى في الدولة يرجع إلى بداية العصر العباسي الأول فيروي الكندي في كتابه الولاة والقضاة أن الخليفة أبا جعفر المنصور قد ولى على إمارة مصر مملوكه التركي يحيى بن داود الخرسي (١٦٢ ـ ١٦٤هـ) ووصفه وصفاً يعبر عن ذلك الولاء الذي يربط المملوك باستاذه، إذ قال فيه «هو رجل يخافني ولا يخاف الله» هذا ويذكر الطبري أنه في عهد هارون الرشيد عمرت مدينة طوسوس على يد أبي سليم فرج الخادم التركي كذلك استخدم المأمون عدداً من المماليك الأتراك في حرسه نذكر منهم طولون الذي أرسله إليه حاكم مدينة بخارى ضمن هدايا الرقيق التركي سنة ٢٠٠هـ وتدرج طولون في الرقى حتى صار قائداً للحرس الخلافي العباسي وهو والد أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية في مصر والشام.

ثم جاء الخليفة المعتصم وكانت أمه تركية فتوسع في استخدام المماليك الأتراك كجنود في الجيش حتى بلغ عددهم بضعة عشر ألفاً وبنى لهم عاصمة جديدة في شمال بغداد وهي مدينة سرّ من رأى أو سامراء. وهكذا نجد المعتصم ليس أول من شكل فرقاً عسكرية من الأتراك، وإنما هو أول من توسع في استخدامهم في الدولة الإسلامية.

وكان من الطبيعي أن يزداد نفوذ هؤلاء الأتراك بعد أن صاروا عنصراً هاماً في المجتمع والجيش الإسلامي فلما ضعف نفوذ الخلافة العباسية في

(١)عباس العزاوي: المجلة التركية الجزء الرابع عدد ١٤، أنقرة ١٩٤٠.

الأقاليم وجنح عمال الأطراف إلى الاستقلال بولاياتهم، صار هذا العنصر التركي هو عماد تلك الحركات الاستقلالية، مثال ذلك عمرو بن الليث الصفار مؤسس الدولة الصفارية بخراسان الذي دأب على شراء المماليك الصغار من الترك وجعل منهم فرقة لحرسه، كما عكف على اهداء الكثيرين منهم لقادته دون أن يقطع رواتبهم من خزانته كي يطالعوه سراً بأخبار هؤلاء القواد.

ولما قامت الدولة السامانية على أنقاض الدولة الصفارية سنة ٢٩٠هـ (٩٠٣م) واتخذت مدينة بخارى عاصمة لها، حرص ملوكها، رغم أصلهم الفارسي على جلب المماليك الأتراك، واهتموا بتربيتهم وإعدادهم اهتماماً كبيراً حتى صار معظم جيوشهم منهم. وقد أعطانا الوزير السلجوقي نظام الملك الطوسي (ت ٤٨٥هـ) في كتابه «سياسة نامه»[١] وصفاً دقيقاً لهذا النظام التربوي الذي وضعه السامانيون لمماليكهم، ومن ذلك قوله:

• إن مماليك السامانيين يرقون تدريجياً بناء على خدماتهم وشجاعتهم وليس اعتماداً على المحسوبية أو الجاه فالمملوك عند شرائه يخدم عاماً على قدميه، فيسير مرتدياً قباء من القطن يسمى زنداجي[٢] بجوار سيده الممتطي صهوة جواده ولا يسمح للمملوك في عامه الأول من الخدمة أن يركب الخيل إطلاقاً وإلا عوقب أشد العقاب فإذا ما أتم عامه الأول أخبر عريف الدار حاجب الحجاب بذلك فيقدم الحاجب للمملوك حصاناً تركياً بعنان دون سرج ثم يمنح المملوك في العام الخامس من خدمته سرجاً ولجاماً وسروالاً من القطن المخطوط بالحرير وبعض الأسلحة التي يحلقها في سرج فرسه وفي العام السادس يمنح المملوك ملابس أفخر من ملابسه السابقة وفي العام السابع يمنح خباء ذا طنب واحد وستة عشر وتدا كما يمنح ثلاثة من الرقيق

(١)الكتاب باللغة الفارسية وقد ترجمه شيفر Schefer إلى الفرنسية.

(٢)زندجي نسبة إلى بلدة زندانة Zandanah شمالي بخارى، واشتهرت بالملابس القطنية التي نسبت إليها.

ليقوموا بخدمته وعندئذ يستحق المملوك لقب عريف الدار، ويضع على رأسه طاقية من الجوخ الأسود الموشاة بالفضة كما يرتدي قباء حريرياً يسمى كنجويا[1] ثم يأخذ المملوك في الرقى عاماً بعد عام وتزداد حاشيته تدريجياً إلى أن يصل مرتبة صاحب الخيل ثم حاجب الحجاب ولا يأخذ المملوك لقب أمير ولا يتولى عملاً كبيراً مثل القيام على ولاية من الولايات أو فرقة من الفرق العسكرية إلا بعد أن ينضج، وسن النضوج في العادة هو سن الخامسة والثلاثين[2] . ففي هذا السن عهد إلى المملوك الساماني البتكين حكم ولاية خراسان فذهب إليها في نحو الألفين والسبعمائة من مماليكه الأتراك وفيهم مملوكه سبكتكين والد السلطان محمود الغزنوي ويقال إن سبكتكين اشتري من تركستان وأنه حضر ذات يوم بين يدي البتكين مع حاجبة في عدد من المماليك بسبب وفاة عريف من عرفاء الدار، وضرورة تعيين خلف له في تلك الوظيفة وملحقاتها من ميرات وحاشية. فوقع اختيار البتكين على سبكتكين وتعجب الحاجب من قرار الأمير وأخبره أن المختار غلام حديث الشراء ولم يخدم عاماً واحداً بعد، على حين جرت العادة المتبعة أن تكون الخدمة سبع سنوات قبل الولاية على وظيفة من الوظائف، ويقال كذلك إن البتكين ندم في قرارة نفسه على التسرع في ذلك الاختيار الخارق للنظام المتبع في تربية المماليك، وأنه التمس لنفسه العذر على هذا التجاوز بأن الغلام أصيل عريق النسب[3] .

(١)كنجويا نسبة إلى مدينة كنجة في إقليم شيروان على ساحل بحر قزوين غرباً (في جمهورية أذربيجان) واشتهرت بصناعة الأقمشة الحريرية.

(٢)يشرح الحسن بن عبد الله في كتابه: «آثار الأول في ترتيب الدول» ص ١٦٦ أهمية ذلك الترتيب في تنشئة المماليك في الدولة السامانية في قوله «ويجب على الملك ألا يعجل على المماليك الصغار بإشراكهم في الملك وندبهم للأمور الجسام، بل على التدريج فإن الغالب على هممهم القصور وربما بهرتهم الولايات الجسيمة فدهشوا، وربما غرتهم فبطروا فيجب الاحتياط والتأني في ذلك لصغر سنهم وقلة تجربتهم».

(٣)يقال إن سبكتكين كان من ولد كسرى يزد جرد الثالث آخر ملوك الفرس الساسانيين، وإن أهله لجأوا بعد موت يزدجرد إلى تركستان ثم استقروا في سجستان واتحدوا=

ثم شاءت الأقدار أن تطوح بالبتكين والي خراسان من قبل السامانيين إلى غزنة[1] سنة ٣٥١هـ (٩٦٢م) في قلب جبال سليمان شمالي الهند حيث أقام بفضل مماليكه الأتراك دولة مستقلة لا شأن لها بالسامانيين إلا من ناحية التبعية الاسمية وهي الدولة الغزنوية، وتوفي البتكين سنة ٣٥٢هـ (٩٦٣) وآلت الأمور في تلك الدولة بعد سنوات قليلة إلى زوج ابنته ومملوكه سبكتكين (٣٦٦ ـ ٣٨٧هـ = ٩٧٦ ـ ٩٩٧م) والذي يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة الغزنوية أو السبكتكينية[2] وبلغت تلك الدولة أوجها حين ألغى السلطان محمود الغزنوي بن سبكتكين (٣٨٨ ـ ٤٢١ = ٩٨٨ ـ ١٠٣٠م) اسم السامانيين من الخطبة في مملكته وخطب للخليفة العباسي القادر بالله الذي أنعم عليه بلقب يمين الدولة وأمين الملة كما غزا بلاد الهند اثنتي عشرة مرة وجعل إقليم البنجاب ولاية إسلامية قاعدتها لاهور ثم اضمحلت الدولة الغزنوية بعد وفاة محمود الغزنوي سنة ٤٢١هـ بسبب ظهور السلاجقة بزعامة طغرلبك واستيلائهم على معظم ممتلكات الغزنويين فاقتصرت الدولة الغزنوية على بعض الولايات الهندية الشمالية حول مدينة لاهور على أن موضع الاهتمام هنا من تاريخ الغزنويين هو أنهم اعتدوا على المماليك الأتراك في الجيش والإدارة وشؤون الحكم على غرار ما فعل السامانيون، وأن التنتاش Altuntash مملوك سبكتكين نفسه هو بدوره مؤسس الدولة الخوارزمية سنة ٤٠٨هـ (١٠١٧م)[3] واتبعت الدولة الخوارزمية سنة أسلافها من حيث الاعتماد الكلي على المماليك الأتراك في جميع شؤون الدولة.

= هناك مع الترك.

راجع: (Schefer: Siaset Nameh p. 140-141).

(١)غزة مدينة وولاية في طرف خراسان في أفغانستان وهي الحد بين خراسان والهند ويلفظها الخاصة غرنين وتسمى أيضاً غزنيه Chazni أنظر.

(٢) راجع: (Lane Poole: Medieval India Under Mohammedan Rule P.65).

(٣)حمل التنتاش لقب خوارزمشاة واستمر حكم هذه الدولة في أسرته بعد مماته سنة ٤٣٢هـ (١٠٤٠م) راجع (Ency. Of Islam Art. Altuntash).

وفي سنة ٥٨٢هـ (١١٨٦م) استولى الغوريون بزعامة شهاب الدين الغوري على لاهور فانقضت بذلك الدولة الغزنوية، وتنسب الدولة الغورية (٥٤٣ ـ ٦١٣هـ = ١١٤٨ ـ ١٢١٥م) إلى مكان نشأتها جبال الغور وهي ولاية بين هراة وغزنة في أفغانستان واستطاع الغوريون أن يوسعوا مملكتهم حتى ملكوا ما كان يملكه الغزنويون من بلاد أفغانستان والهند الشمالية فالدولة الغورية هي ثاني دولة إسلامية هندية بعد الدولة الغزنوية غير أن سلاطين هذه الدولة الغورية لم يقيموا في الهند دائماً، وإنما كانوا يقيمون في مدينة غزنة عاصمة ملكهم وصاروا يحكمون الهند عن طريق مماليكهم الأتراك. وقد أكثر السلطان محمد الغوري من شراء المماليك واعتنى بتربيتهم وإعدادهم لمهمة الغزو والجهاد ويؤثر عنه أنه كان كلما ناقشه أحد عن ضرورة الحاجة إلى ابن ذكر يحافظ على ملك أسرته من بعده أجابه بأن لديه ألوفاً من الأبناء ألا وهم مماليكه الأتراك[١] وقد ارتفع بعض هؤلاء المماليك إلى مناصب الحكم والقيادة نذكر منهم: تاج الدين يلدز Yildiz الذي حكم كرمان وناصر الدين كوباشا في السند وقطب الدين أيبك في دلهي وهو أقوى الجميع نفوذاً[٢].

واستطاع محمد الغوري بفضل جهود مماليكه وعلى رأسهم أيبك أن يملك جميع البلاد التي في شمال جبال فندهياس vindhyas بالهند حتى مصب نهر الكنج، فيعمها الإسلام وتتحول معابدها الهندوسية إلى مساجد ويدفع راجاتها الجزية صاغرين.

وكان قطب الدين أيبك رجلاً مسلماً متمسكاً بشروط الإسلام ويظهر ذلك بوضوح في عدائه الشديد لنظام الطبقات الذي كان سائداً في الهند ومعاملته للناس على اختلاف طبقاتهم على أساس المساواة التي ينص عليها الإسلام وينسب لأيبك في دلهي مسجد عظيم اسماه «قوة إسلام» وهو ذو منارة ارتفاعها ٢٥٠ قدماً وهي تعد أطول منارة في العالم ولا تزال قائمة إلى

---

(١) (Wolseley Haig: The Cambridge History Of India Vol III P. 1.37.

(٢) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر جـ ٣ ص ٢٧.

اليوم وتعرف باسم قطب منار وتمتاز بنقوشها وزخارفها ذات الطابع العربي والهندي[١] .

وفي مارس ١٢٠٦م (٦٠٣هـ) أغتيل السلطان محمد الغوري على ضفاف السند بيد أحد غلاة الإسماعيلية، وبموته اختفت غزنة والغور من التاريخ وظهرت مدينة دلهى[٢] كعاصمة إسلامية لدولة سلاطين المماليك في الهند.

ولم يعش أيبك بعد موت سيده سوى بضع سنوات إذ انتهى حكمه كسلطان على هندستان في نوفمبر سنة ١٢١٠م (٦٠٨هـ) وذلك على أثر سقوطه من على ظهر جواده أثناء لعبة الكرة أو البولو ـ جوكان ـ فتوفي على الأثر[٣] وسادت الفوضى بعد موت أيبك مدة من الزمان تولى فيها الملك ابن غير كفؤ يدعى أرام شاه وانتهى الأمر بأن خلعه أحد مماليك أبيه البارزين وزوج ابنته شمس الدين التتمش بمساعدة بقية الأمراء واستأثر بعرش دلهي لنفسه عام ١٢١٦م.

ويعتبر التتمش المؤسس الحقيقي لدولة سلاطين المماليك الذي لم يعش أيبك مدة كافية ليدعم أركانها فينسب إلى هذا السلطان تأسيس مجلس من كبار أمراء المماليك عرف باسم «الأربعين» وكان الغرض منه هو تدعيم سلطان

---

(١)انظرك H. Dodwell: History Of India I P. 25 ويقال إن السلطان التتمش مملوك أيبك وزوج ابنته وخليفته على عرش دلهي هو الذي بنى هذه المنارة عام ١٢٣١ ـ ١٢٣٢م تكريماً لولي الله قطب الدين الكعكي الذي أقام في غزنة والملتان ثم استقر أخيراً في دلهي حتى وفاته سنة ١٢٣٥م. راجع (رحلة ابن بطوطة جـ ٢ ص ١٩ .

(٢)تسمى أيضاً دهلي ودلي (القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٥ ص ٦٨ ـ ٦٩) وتقع في قلب سهول نهر الكينج في مكان أهلته الطبيعة ليكون عاصمة للهند الشمالية ومن يستعرض تاريخ الهند العام يجد أن مدينة دلهي كانت مسرحاً لوقائع حربية حاسمة لأهمية موقعها الاستراتيجي وقد زارها الرحالة الطنجي ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري (١٤م) ووصفها بقوله: وهي المدينة العظيمة الشأن الضخمة الجامعة بين الحسن والحصانة وعليها السور الذي لا يعلم له في بلاد الدنيا نظير، وهي أعظم مدن الهند بل مدن الإسلام كلها بالشرق (رحلة ابن بطوطة جـ ١٢ ص ١٦).

(٣)انظر Ency. Of Isfam art: Aibeg.

المماليك في الهند ومن حسنات التتمش أنه اشتد في رد المظالم وإنصاف المظلومين فيؤثر عنه أنه أمر أن يلبس كل مظلوم ثوباً مصبوغاً وأهل الهند جميعاً يلبسون البياض، فكان إذا قعد للناس أو ركب رأى أحداً عليه ثوب مصبوغ نظر في قضيته وأنصفه ممن ظلمه[1] .

ويمتاز عصر هذا السلطان أيضاً بظهور المغول وزعيمهم جنكيزخان الذي هدد العالم الآسيوي بأجمعه. وأول نذير على اقتراب هذا الخطر من الهند هو فرار يلدز حاكم غزنة بجيوشه إلى داخل الهند أمام ضغط الجيوش الخوارزمية المنهزمة بدورها من الجيوش المغولية.

أخذت هذه القوى الثلاث تنحدر جنوباً بسرعة عنيفة عابرة سلاسل الجبال الشمالية إلى داخل الهند غير أن هذه العاصفة سرعان ما زالت بنفس السرعة العظيمة التي جاءت بها إذ من حسن حظ الهند أن المغول اتجهت أبصارهم نحو الغرب فتراجعوا منسحبين عن الهند أما الجيوش الخوارزمية وقائدهم جلال الدين منكبرتي آخر شاهات خوارزم فإنهم انسحبوا إلى فارس بعد أن فشلوا في تأسيس إمارة لهم في البنجاب.

خرج التتمش من هذه المحنة أقوى مما كان إذ أحدقت القوات المغولية والخوارزمية بقوات منافسيه في الشمال أمثال يلدز وكوباشا وصار من السهل عليه بعد ذلك أن يستعيد جميع ممتلكات أستاذه أيبك في شمال الهند وأن يتخلص من منافسيه[2] .

وبلغ فوز التتمش أقصى مداه حينما اعترف به خليفة بغداد المستنصر بالله العباسي، سلطاناً على الهند، وبعث له بالتقليد والخلع والألوية والبنود في أوائل سنة ١٢٢٩م (٦٢٦هـ)، فأصبح التتمش بذلك أول ملك في الهند

(١)رحلة ابن بطوطة جـ ٢ ص ٢١.

(٢)قتل يلدز حاكم غزنة سنة ١٢١٦م وغرق كوباشا حاكم السند أثناء فراره سنة ١٢٢٨م (أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر جـ ٣ ص ١٢٢ ـ ١٢٣) وكذلك:

F. Pareja: Islamologia I p. 254.

تسلم مثل هذا التقليد. ومنذ ذلك التاريخ ضرب السلطان التتمش نقوداً فضية نقش عليها اسم الخليفة العباسي بجوار اسمه. ويعتبر هذا العمل شيئاً جديداً على نظام العملة الهندية، إذ كان الحكام المسلمون قبل ذلك يضربون نقوداً معدنية صغيرة على غرار النقود الوطنية، تنقش عليها أشكال مألوفة لدى الهنود كثور سيفا[١] مثلاً، كما كانت أسماء الفاتحين تكتب بحروف هندية في غالب الأحيان. فالتتمش يعتبر أول من ضرب نقوداً فضية عربية خالصة في الهند.

وتوفي السلطان التتمش سنة ١٢٣٦م (٦٣٤هـ) ولم تكن هناك شخصية قوية صالحة للملك من بعده سوى شخصية ابنته رضية الدين. كانت هذه السلطانة على حظ كبير من الذكاء، حفظت القرآن الكريم، وألمت بالكثير من التعاليم الإسلامية، ولهذا فضلها أبوها على أخوتها الذكور لانغماسهم في الملذات ونادى بها ولية لعهده. ولما آلت إليها السلطنة، دلت على مقدرة عظيمة وعقل وافر وسماها مؤرخو الهند باسم «ملكة دوران بلقيس جهان»، أي فتنة العالم[٢].

جلست رضية الدين على عرش دلهي أربع سنوات تقريباً (٦٣٤ ـ ٦٣٨هـ = ١٢٣٦ ـ ١٢٤٠م) وقد بذلت جهدها لتظهر بمظهر الرجال، فارتدت أزياءهم، وخرجت أمام الناس سافرة تقود جيشها على ظهر فيلها. وعلى الرغم من الجهود العظيمة التي بذلتها هذه الملكة في إدارة شؤون الدولة، فقد اصطدمت في النهاية بمجلس أمراء المماليك أو جماعة الأربعين، الذين كانوا قد استأثروا بالنفوذ والثروة خصوصاً بعد موت التتمش وتقاسموا المملكة ووظائفها فيما بينهم بعد أن قضوا على جميع الأحرار في مختلف الوظائف.

وأنف هؤلاء المماليك من رؤية امرأة على العرش ولا سيما بعد أن

---

(١)سيفا Siva اسم إله الهندوس وينسبون إليه أعمال الخراب والتدمير.

(٢)أنظر Blochet: Histoire des Sultans Malouks Mmlouks vol. I. p. 375

قربت إليها رجلاً فارسياً يدعى جمالد الدين ياقوت ويشغل وظيفة قائد الفرسان، فقاموا بثورة حاولت السلطانة رضية الدين قمعها بشجاعة ولكنها هزمت وانتهى الأمر بقتلها في ١٣ أكتوبر سنة ١٢٤٠م(١).

وفي هذا الوقت ظهر المغول في إقليم السند من جديد، واستولوا على مدينة لاهور في ديسمبر سنة ١٢٣١م وذبحوا سكانها، وفرّ حاكمها قراقوش إلى دلهي، فأصبح الموقف يستدعي ظهور شخصية قوية تقبض على زمام الحكم بيد من حديد، وهذا مما ساعد على ظهور الأمير بلبان أو بلبن أحد مماليك التتمش، فاعتلى عرش السلطنة بعد أن تخلص من السلطان القائم فيها من أبناء سيده وتلقب بغياث الدين.

وتضيف الروايات المعاصرة أن بلبان كان ينحدر من أصل عريق، وأن تحمسه للجهاد ضد المغول هو الذي جعله يرحل من تركستان منذ حداثته تاركاً أهله وأصحابه. ثم حدث أن سرق وبيع في الهند، فاشتراه السلطان التتمش. وتزيد الرواية أن السلطان المذكور رفض شراء بلبان في بادىء الأمر لدمامته وقصر قامته، فصاح بلبان: «ياخوند عالم» (أي يا سيد العالم) «لمن تشتري هؤلاء المماليك الآخرين؟ فأجابه السلطان ضاحكاً «اشتريهم لنفسي» فرد عليه بلبان: «إذاً فاشترني لله عزل وجل» فأجابه السلطان إلى طلبه ثم سرعان ما ظهرت مواهبه فصار يتدرج في الرقى حتى اندمج في جماعة الأربعين مملوكاً(٢).

اشتهر بلبان بشخصية عسكرية صارمة عادلة وأول عمل اهتم به هو الحد من طغيان جماعة المماليك الأربعين، فأعمل فيهم سياسة العنف

---

(١)راجع: Wolseley Haig: Cambridge History of India III p. 60.

ويلاحظ أن موقف هذه السلطانة يشبه تماماً موقف السلطانة شجر الدر التي حكمت مصر بعدها بعشر سنوات سنة ١٢٥٠م والتي أثار حكمها استياء الرأي العام الإسلامي، وانتهى أمرها بالقتل أيضاً، راجع: (المقريزي السلوك جـ ١ ص ٣٦٨).

(٢)ابن بطوطة: رحلته المعروفة بتحفة النظار جـ ٢ ٢٣.

والتفرقة حتى قضى على نفوذهم وسطوتهم. كذلك ضرب على أيدي المجرمين وقطاع الطرق الذين انتهزوا فرصة الاضطرابات الأخيرة وانبثوا في المسالك والطرقات بين دلهي والبنغال (بنجلادش) بعيثون فساداً وتخريباً فأزال بلبان الغابات التي كانت وكراً لتلك العصابات وشيد مكانها القلاع وأبراج المراقبة وبذلك استتب الأمن وعاد الاتصال بين دلهي والبنغال لفترة طويلة من الزمان.

كذلك عني بلبان بإقامة إدارة للمخابرات في جميع المدن المختلفة ويشرف عليها مخبرون من قبله يعرفون بأصحاب الأخبار أو ملوك البريد.

وكان تعيين هؤلاء الأشخاص يتم تحت إشراف السلطان نفسه وبناء على اختياره الشخصي وذلك نظراً لأهمية الأعمال التي يقومون بها في كافة أرجاء الدولة إذ عن طريق تقاريرهم كان السلطان يلم بأحوال كل مدينة وسياسة أولي الأمر فيها ولهذا السبب حرص بلبان على جعل سلطتهم مستقلة عن سلطة الولاة المحليين وخاضعة لسلطانه المباشر ويروي المؤرخون كيف أن بلبان أمر بإعدام أحد هؤلاء المخبرين لأنه تستر على حادث هام وقع في المدينة المكلف بأخبارها دون أن يخطره بذلك[1].

وتجلت مواهب بلبان في انتصاره على قوات المغول التي اقتحمت اقليم السند عام ٦٧٨هـ (١٢٧٩م) فاستحق بذلك لقب «الق خان» أي الأمير

---

(١)راجع: (Walseley Haig Dp. cit. III p.74.

وكذلك (رحلة ابن بطوطة جـ٢ ص ٢ - ٣) حيث يتكلم ابن بطوطة عن مهمة أصحاب الأخبار خصوصاً إذا قدم غريب على الهند «وإذا كتب المخبرون إلى السلطان بخبر من يصل إلى بلاده.. عرفوه أنه ورد رجل صورته كذا ولباسه كذا وكتبوا عدد أصحابه وغلمانه وخدامه ودوابه وترتيب حاله في حركته وسكونه وجميع تصرفاته لا يغادرون من ذلك كله شيئاً» ويضيف ابن بطوطة في نفس المعنى (ص ٩) «وفي مدينة ملتان قدم علينا ملك البريد واسمه دهنان وهو سمرقندي الأصل وهو الذي يكتب للسلطان بأخبار تلك المدينة وما حدث بها ومن يصل إليها».

القوي وترجع انتصارات بلبان على المغول إلى الاستعدادات العظيمة التي قام بها السلطان لدفع ذلك الخطر الداهم إذ أعد مخازن هائلة للطعام بحيث يبقى الزرع بها مدة طويلة دون أن يفسد، ويقول ابن بطوطة في هذا الصدد: وقد شاهدت الأرز يخرج من بعض تلك المخازن ولونه قد اسود ولكن طعمه طيب وكل ذلك من اختزان السلطان بلبن منذ تسعين سنة» هذا وقد اهتم بلبان لتحصين الثغور الهندية وتجنيد قبائلها تحت قيادة ابن عمه شيرخان سنقر كما أعد جيشاً قوياً سريعاً لصد أي هجوم خاطف يقوم به المغول فجأة ـ وذلك على حد قوله ـ حتى لا تتعرض مدينة دلهي لمصير بغداد التعس[١] .

وفقد بلبان ابنه الأكبر الشهيد محمد خان في واقعة ضد المغول في اقليم الملتان، ذلك في ٩ مارس سنة ١٢٨٥م (٦٨٤هـ) فحزن عليه حزناً شديداً ومات بعده بسنتين[٢] .

يعتبر السلطان بلبان من أولئك الأشخاص الذين لا يتركون وراءهم خلفاء أقوياء، إذ أن صرامته وقسوته حالت دون ظهور شخصيات قوية بعده، فقد قضى على جماعة المماليك الأربعين ونفى كثيراً من ذوي النفوذ والجاه من الحكام أو العلماء (نذكر منهم شاعره أمير خسرو). وكانت كل آماله مركزة في شخص ابنه الأكبر الذي مات في عهده. ولهذا اضطربت شؤون المملكة بعد مماته مما أتاح الفرصة لقيام أسرة جديدة هي أسرة الخالجية[٣] التي استولت على عرش دلهي سنة ١٢٩٠م (٦٨٩هـ) تحت زعامة جلال الدين فيروز شاه، وبذلك تنتهي دولة المماليك الأتراك في الهند.

---

(١)راجع : (Walseley Haig Dp. cit. III p.76.

(٢)راجع : (Walseley Haig Dp. cit. III p.82.

(٣)أسرة أفغانية نسبة إلى بلدة خالج بأفغانستان وقيل إنها تركية الأصل ثم نزحت إلى أفغانستان حيث أخذت عن أهلها عاداتهم وطرائقهم.

الصقالبة في الغرب الإسلامي:

لم يقتصر التوسع في استخدام المماليك على الدول التي قامت في الجزء الشرقي من الدولة العباسية، بل تعداه إلى جميع الدول الإسلامية الأخرى بما في ذلك المغرب والأندلس. وإذا كثرت أنواع المماليك الأتراك على عهد الصفاريين والسامانيين والغزنويين والغوريين بالمشرق، فقد أضاف الأمويون بالأندلس نوعاً جديداً من المماليك وهم الصقالبة الذين كان طريقهم الرئيسي يبتدىء من شرق ألمانيا إلى إيطاليا وفرنسا ومنها إلى إسبانيا الإسلامية أو الأندلس عن طريق نهر الرون وقطالونيا حتى ثغر بجانة Pechina على الساحل الشرقي الإسباني بجوار المرية.

وكلمة صقلب Esclave فرنسية قديمة ومعناها عبد أو رقيق وهي التسمية التي أطلقها الجغرافيون العرب في العصور الوسطى على الشعوب السلافية عامة، لأن بعض الجرمان دأبوا على سبي تلك الشعوب السلافية وبيع رجالها ونسائها إلى عرب إسبانيا، ولذا أطلق العرب عليهم اسم الصقالبة. ثم توسع العرب في استعمال هذا الاسم فأطلقوه على أرقائهم الذين جلبوهم من أية أمة مسيحية. يذكر الرحالة ابن حوقل الذي زار إسبانيا في القرن الرابع الهجري أن الصقالبة كانوا يجلبون أيضاً من ساحل البحر الأسود ومن لمارديا وكلابريا في إيطاليا، ومن قطالونيا وجليقية (غاليسيا) في شمال إسبانيا، وذلك فيما يبدو نتيجة لغارات القراصنة من المغاربة والأندلسيين على الشواطىء الأوروبية للبحر المتوسط.

وجاء أغلب الصقالبة أطفالاً إلى الأندلس حيث ربوا تربية إسلامية ودربوا على أعمال القصر والحرس والجيش واستطاع عدد كبير منهم أن يحتل مكانة عالية في المجتمع القرطبي، فصار منهم الأدباء والشعراء وأصحاب المكتبات الكبيرة، كما استطاع بعضهم أن يصل إلى مناصب الرئاسة في الدولة.

هذا ومن المعروف أن الأمويين في الأندلس استخدموا مماليكهم من

الصقالبة في الإدارة والجيش للحد من نفوذ الأرستقراطية العربية في الحكم وإضعاف سيطرة الجند من العرب والبربر، ومثال ذلك تقليد عبد الرحمن الناصر لمملوكه «نجدة» الصقلبي قيادة الحملة الموجهة ضد راميرو الثاني ملك ليون وحلفائه أصحاب مملكة نبرة، وهي الحملة التي انتهت بهزيمة المسلمين في وقعة شمنقة Simancas عام ٣٢٧هـ/ ٩٣٩م. ويقال إن سبب تلك الهزيمة هو تغير نفوس العرب لتقديم الصقالبة عليهم إذ أقسموا أن يتركوا الصقالبة وحدهم عند نشوب المعركة فأدى ذلك إلى الهزيمة وقتل القائد نجدة الصقلبي، وفرار عبد الرحمن الثالث بأقل من خمسين فارساً بعد أن نجا بأعجوبة.

وفي عهد الخليفة الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الثالث، قام الصقالبة بدور مشابه لدورهم على عهد والده من حيث النفوذ والعظمة. وعند وفاته ظن الصقالبة أنهم أصبحوا سادة الموقف. يذكر ابن عذارى أن جيش قرطبة كان معظمه من الصقالبة وأن قيادته كانت في يد اثنين من كبار الصقالبة وهما فائق وجؤذر الحكمي (نسبه إلى الحكم المستنصر). وقد حاول فائق وجؤذر إخفاء خبر موت الحكم الثاني ليحولا دون المناداة بوريثه للملك، هشام، لأنه طفل صغير، وحاولا ترشيح شاب كامل الرجولة اسمه المغيرة من أحفاد عبد الرحمن الثالث ولكنهما وجدا من يقاومهما في أشخاص الوزراء أمثال جعفر المصحفي، والمنصور بن أبي عامر. وقد استطاع هذا الأخير أن يدبر اغتيال المغيرة مرشح الحزب الصقلبي، وبذلك خلا الجو لهشام بن الحكم المستنصر الذي لقب بهشام المؤيد. واستطاع المنصور بن أبي عامر بعد ذلك أن يشتت شمل هؤلاء الصقالبة من القصر الخلافي وأن يولي صقالبة غيرهم من مماليكه عرفوا باسم المماليك أو الفتيان العامرية. وقد وصف ابن بسام في كتابه الذخيرة أحد هؤلاء الفتيان وصفاً طريفاً بقوله: «وكان لابن أبي عامر فتى يسمى فاتناً أوحد لا نظير له في علم كلام العرب وكل ما يتعلق بالأدب، ناظر صاعد اللغوي بين يديه فظهر عليه وبكته حتى أسكته فازداد المنصور به عجباً». ويصف ابن الأبار أن أحد الصقالبة واسمه

حبيب الصقلبي ألف زمن الخليفة هشام المؤيد كتاباً تعصب فيه لقومه وعنوانه: الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل الصقالبة». وهذا الكتاب مفقود للأسف وقد ذكر ابن بسام في ذخيرته أنه اتطلع على هذا الكتاب وأنه يحتوي على جملة من أشعار الصقالبة ونوادر أخبارهم.

وإلى جانب هذا الامتياز الأدبي اختص الصقالبة بألوان من الألحان والرقصات التي نسبت إليهم فقيل اللحن الصقلبي ورقص الصقالبة. وقد أعطانا المؤرخ المعاصر أبو بكر الطرطوشي وصفاً جميلاً لهذه الرقصات يذكرنا بالرقص الاسباني في وقتنا الحاضر إذ يقول: «ثم جعلوا لكل لحن منها اسماً مخترعاً، فقالوا اللحن الصقلبي. فإذا قرأوا قوله تعالى: ﴿وإذا قيل أن وعد الله حق﴾، يرقصون في هذه الآية كرقص الصقالبة بأرجلها وفيها الخلاخيل (أو الجلاجيل) ويصفقون بأيديهم على إيقاع الأرجل، ويرخفون الأصوات بما يشبه تصفيق الأيدي ورقص الأرجل، كل ذلك على نغمات متوازنة»[1].

على أن هذا الامتياز الأدبي والفني لم يمنع من أن الصقالبة أثناء احتضار الخلافة الأموية بالأندلس لعبوا دوراً سيئاً بوجه عام فشاركوا في المؤامرات التي قامت في قرطبة وسائر البلاد، فأحياناً نراهم منتصرين وأحياناً أخرى منهزمين ولكنهم كانوا يظهرون روح الإقدام والطموح والاستبداد وتزعمهم خيران العامري رئيس حزب الصقالبة في العاصمة قرطبة ومن هذا الحزب تكونت الدويلات الصقلبية في شرق الأندلس: في طرطوشة، وألمرية، ومرسية، ودانية، وبلنسية في عصر ملوك الطوائف في القرن الخامس الهجري (١١م).

وكانت هذه الدويلات تجمعها رابطة تحالف وتسمى بالدولة العامرية الصقلبية لأن أصحابها من مماليك العامريين أي المنصور ابن أبي عامر وأبنائه. وقد امتد سلطان هؤلاء الصقالبة على الشاطىء الشرقي الأندلسي

---

(١)أبو بكر الطوطوشي: كتاب الحوادث والبدع ص ٧٨ (تونس ١٩٥٩).

الممتد من نهر ابرو شمالاً حتى ثغر المرية جنوباً والجزائر الشرقية (البليار) شرقاً.

ومن أشهر هؤلاء الصقالبة صاحب مدينة دانية مجاهد العامري الصقلبي الذي استطاع أن يستولي على جزر البليار وعلى جزيرة سردانية التي اتخذها رأس جسر ليهاجم منها الأماكن التي تليها وهي السواحل الإيطالية. وقد استطاع غزو مدينة لونى واتخذها قاعدة حربية لمهاجمة ما حولها من المناطق الساحلية الإيطالية. وتقع هذه المدينة بين بيزا وجنوة وقد امتازت بمركزها التجاري الهام في هذه المنطقة. وهكذا استطاع مجاهد العامري أن يسيطر على القسم الغربي من حوض البحر المتوسط وأن . -د نفوذ الأندلسيين في هذه المناطق.

على أن استخدام الصقالبة لم يقتصر على الأندلس بل انتقل إلى المغرب العربي حيث شاع استخدامهم بين ملوكه وحكامه منذ القرن الثالث حتى القرن الخامس الهجري. وكانت الأندلس بحكم الجوار مركزاً لانتقال هذا الرقيق إلى دول المغرب الأقصى بصفة خاصة، بينما كانت جزيرة صقلية الإسلامية مركزاً لانتشاره في دول المغرب الأدنى.

وحينما يحدثنا البكري عن مملكة نكور أو دولة بني صالح التي قامت بمنطقة الريف في الشمال للمغرب الأقصى[1] ، يشير إلى اعتماد هذه الدولة على المماليك الصقالبة، وأنه قد بلغ من كثرتهم أن صارت لهم قلعة خاصة

---

(١)نكور مدينة مندرسة في شمال شرق المملكة المغربية وكان من أعمالها ثغر المزمة الذي حرفه الإسبان إلى الوثيماس Alhucemas ثم عربه المسلمون إلى الحسيمة الحالية التي تسمى أيضاً سان خورخو San Jurjo وهي خاضعة للنفوذ الإسباني. وكانت مملكة نكور دولة عربية سنية مالكية لعبت دوراً كبيراً في نشر الإسلام واللغة العربية بين بربر الريف من غمارة وصنهاجة، كما أنها قاومت تيار الخوارج والشيعة ولقيت من وراء ذلك عناء كبيراً خفف من حدته تأييد الأمويين في الأندلس لها. وعاشت هذه الدولة عصوراً طويلة إلى أن افتتحها المرابطون وخربوها سنة ٤٧٣هـ فلم تعمر بعد.

بجوار العاصمة نكور تعرف بقلعة الصقالبة أو قرية الصقالبة. وقد اشتد نفوذ هؤلاء الصقالبة في عهد الملك الصالح بن سعيد لدرجة أنهم بعد وفاته (٢٦٢هـ/ ٨٧٥م) حاولوا فرض مطالبهم على ولده سعيد بن صالح، فدخلوا عليه يوماً وسألوه العتق، فقال لهم: «أنتم جندنا وعبيدنا، وأنتم كالأحرار، لا تدخلون في المواريث، ولا تجري عليكم المقاسم، فما طلبكم للعتق؟ «فألحوا عليه في ذلك، فأبى، فناله منهم جفاء وغلظة، وقدموا أخاه عبيد الله، وعمه الرضا المكنى بأبي علي، وزحفوا بهما إلى القصر، فحاربهم سعيد من أعلى القصر بالفتيان والنساء حتى انهزموا، وقامت عليهم العامة فأخرجوهم إلى قرية فوق المدينة تعرف بقرية الصقالبة، فتحصنوا بها سبعة أيام، ثم ظفر بهم سعيد بعد حرب شديدة[١] . وفي المغرب الأدنى اعتمد الأغالبة (١٨٤ ـ ٢٩٦هـ = ٨٠٠ ـ ٩٠٩م) على الصقالبة كذلك، خصوصاً بعد أن غزوا جزيرة صقلية سنة ٢١٣هـ (٨٢٧م) بقيادة قاضي القيروان أسد بن الفرات، وامتدت غارات أساطيلهم إلى سواحل دالماسيا، وإلى كلابريا ولمبارديا في جنوب إيطاليا.

ويبدو أن جزيرة صقلية قد صارت بعد ذلك محطة للسبي القادم من تلك البلاد إذ يشير ابن حوقل إلى حارة للصقالبة هناك، ويصفها كمدينة عامرة بنواحي مدينة بلرم Palermo على الساحل الشمالي لجزيرة صقلية[٢] .

ولعل أبلغ دليل على كثرة استخدام الصقالبة في الدولة الأغلبية، ما رواه ابن الخطيب في وصف رحيل آخر ملوك الأغالبة زيادة الله الثالث إلى مصر عند سقوط دولته على يد الفاطميين، يقول: «وأخذ في رفع الأموال ونفيس الخلع، واصطفاء الجوهر واختيار السلاح... ثم انتخب من عبيده الصقالبة ألف خادم، وجعل على وسط كل واحد منهم ألف دينار»[٣] .

(١)البكري: كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص ٩٣ ـ ٩٤.
(٢)راجع: ميشيل أماري: المكتبة الصقلبية، ص ١٢٠.
(٣)ابن الخطيب: أعمال الإعلام ـ القسم الثالث الخاص ـ بالمغرب ـ ص ٤٣ نشر أحمد مختار وإبراهيم الكتاني (الدار البيضاء ١٩٦٤).

ثم قامت الدولة الفاطمية على أنقاض دولة الأغالبة في المغرب، وورثت عنها أساطيلها وقواعدها البحرية سواء في المغرب أو في جزيرة صقلية، كما سارت على نفس سياستها في اتخاذ المماليك من الصقالبة وغيرهم إلى جانب اعتمادها على قوة أهل البلاد من المغاربة. وعلى هذا الأساس افترض المستشرق التشيكوسلوفاكي هربرك Herberk أن القائد الفاطمي المشهور جوهر الصقلي كان صقلبياً من سبايا سواحل دالماسيا وليس صقليا، واستند في ذلك إلى رواية ليون الإفريقي (الحسن الوزان) وبعض الوثائق اللاتينية[١] . هذا إلى جانب أن صقلية كانت في ذلك الوقت جزيرة إسلامية، وأهلها أهل ذمة لا يخضعون للرق، وإن كان من المرجح ـ إن صح قول هربرك ـ أن يكون جوهر قد استقر في صقلية ـ بعد أسره ـ فترة من الوقت قبل ذهابه إلى المغرب، ولهذا نسب إلى صقلية رغم كونه صقلبياً.

ومهما يكن من شيء، فالأمر الذي لا شك فيه هو أن العنصر الصقلبي كان في عداد العناصر المملوكية البارزة التي اعتمدت عليها الدولة الفاطمية[٢] سواء خلال قيامها في المغرب كما ذكرنا آنفاً، أو بعد انتقالها إلى مصر والشام، كما هو مبين في الباب التالي الخاص بمماليك مصر.

---

(١)من محاضرة ألقاها عن «صقالبة الفاطميين» في سنة ١٩٦١ بكلية الآداب بجامعة الرباط حيث كنت أعمل وقتئذ أستاذاً بها.

(٢)من أمثلة اهتمام الفاطميين بالصقالبة أنه يؤثر عن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله أو كان يجيد لغتهم إلى جانب لغات أخرى.

الفصل الثاني

المماليك في مصر
منذ الدولة الطولونية حتى بداية الدولة الأيوبية
(٢٤٥ ـ ٥٦٤هـ = ٨٦٨ ـ ١١٩٣م)

توسعت مصر في استخدام المماليك، قبل قيام دولتهم بها بوقت طويل. ولعل المسؤول الأول عن ذلك هو الخليفة المعتصم وإمعانه في الميل إلى استخدام الترك، إذ يروي الكندي أن المعتصم كتب إلى واليه التركي على مصر واسمه كيدر أو نصر بن عبد الله يأمره بإسقاط العرب من ديوان الجيش وقطع أعطياتهم منه[1]. فلما قطع كيدر الأعطيات خرج يحيى بن الوزير الجروي في جمع من لخم وجذام وقال: «هذا أمر لا نقوم في أفضل منه لأنه منعنا حقنا وفيئنا»، واجتمع إليه نحو من خمسمائة رجل، فتوجه إليهم مظفر بن كيدر وحاربهم عند بحيرة تنيس، وفرقهم بعد أن أسر يحيى بن الوزير، ومنذئذ صار جند مصر وولاتها من المماليك الأتراك أو ذراريهم[2]، كما صار منهم جند الولايات الأخرى وولاتها، ومن أولئك أحمد بن طولون.

---

(١)الكندي: الولاة والقضاة، ص ١٩٣.

(٢)المقريزي: الخطط، جـ١ ص ١٥٢.

مماليك الدولة الطولونية:

وكان طولون مملوكاً تركياً ممن أرسلهم حاكم بخارى نوح بن أسد الساماني في جملة من الرقيق والهدايا للخليفة المأمون وهو بمرو سنة ٢٠٠هـ (٨١٥م). وتدرج طولون في حياة المماليك بالمجتمع العباسي حتى صار رئيس الحرس الخليفي، وتمكن من تربية ابنه ـ أو متبناه ـ أحمد تربية عسكرية إسلامية أهلته لأن يصبح حاكماً على مصر سنة ٢٥٤هـ (٨٦٨م)[١].

وطبيعي أن يعتمد ابن طولون على المماليك من أبناء جنسه التركي في ولايته، غير أنه طمع إلى شيء من الاستقلال بمصر، ولذا اهتم فيما اهتم بالجيش على وجه خاص[٢]، ولم يقنع هو وابنه خمارويه بعده بالمماليك الأتراك فحسب، بل جعل بجيشه فرقاً من العرب الأحرار، فضلاً عن فرق من الرقيق الأسود والديلم والروم، ويجمع المؤرخون العرب على ضخامة ذلك الجيش إلى درجة اضطرت أحمد بن طولون إلى بناء ثكنات لهم وهي القطائع. والروايات العربية تقدر ذلك الجيش تقديرات لا تبدو بعيدة عن الحقيقة، فالمقريزي يروي في خططه أن ابن طولون استكثر من مشترى المماليك الأتراك حتى بلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف مملوك، وبلغ مشتري العبيد الزنج أربعين ألفاً، كما أنه استكثر من العرب حتى بلغت عدتهم سبعة آلاف حر مرتزق[٣]. أما ابن اياس فإنه يقتبس من ابن واصف شاه ويقول بأن مماليك ابن طولون من الديالمة فقط بلغت عدتهم أربعة وعشرين

---

(١)الواقع أن بعض الولاة في مصر وفي غيرها كانوا من العرب في تلك المرحلة التركية من التاريخ الإسلامي مثل عنبسة بن إسحاق وهو آخر من ولي مصر من العرب سنة ٢٤٢هـ سنة ٨٥٦م في عهد الخليفة المتوكل. ومن بعده صارت مصر اقطاعاً لطائفة واحدة من الولاة الأتراك تعاقبوا عليها دون أن يذهبوا إليها في كثير من الأحيان، ومن هذه الأحيان كان مجيء أحمد بن طولون ليتولى مصر بالنيابة عن بايكباك. راجع (الكندي: ص ٢٠٢، البلوي: سيرة أحمد بن طولون من٣٣ ـ ٤٣).

(٢)أنظر Zaki Hasan: Les Tulunides p. 165.

(٣)المقريزي: الخطط، جـ ١ ص ١٥٢.

ألف مملوك[1] .

غير أنه يجب أن يكون واضحاً أن كثيراً ممن دخل الجيوش الطولونية رقيقاً، قد تحرر فيما بعد، وذلك ينطبق على الجند والقادة سواء، إذ المعروف أن ابن طولون أعتق أعداداً كبيرة من جنده لينشىء منهم جيشاً ممتازاً. ولذا يرجح أنه لم يوجد في الجيش الطولوني مماليك كثيرون في أواخر أيام ابن طولون، وأن عملية التحرر ظلت القاعدة في أيام أسرته[2] .

مماليك الأخشيديين:

وسارت الدولة الأخشيدية على سنة أسلافها الطولونيين في اتخاذ المماليك الأتراك حتى إنه يقال إن مماليك محمد الأخشيد بلغ عددهم ثمانية آلاف مملوك[3] . ويبدو أن الجيش الأخشيدي اشتمل أيضاً على عدد كبير من العبيد السود بدليل حلول أحدهم وهو كافور محل الأخشيد في حكم مصر.

ثم انتهت الدولة الأخشيدية بقيام الدولة الفاطمية في مصر (٣٥٨ ـ ٥٦٧هـ = ٩٦٨ ـ ١١٧١م).

مماليك الدولة الفاطمية:

وإذا كثرت أنواع المماليك على عهد الطولونيين والأخشيديين، فقد أضاف الفاطميون بمصر عنصراً جديداً جاءوا به من المغرب وهو الصقالبة. ويبدو أن الخلافة الفاطمية أكثرت من المماليك الأتراك والصقالبة منذ قيام المعز أول الخلفاء في مصر بدليل اختيار العزيز وهو الخليفة الثاني لكثير من هؤلاء وأولئك لمناصب الثقة والقيادة والولاية لأن وصولهم إلى تلك

---

(١)ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ١، ص ٣٧ والديلم القسم الجبلي من جبلان شمالي بحر قزوين.

(٢)راجع: Zaki Hasan: Les Tulunides p. 165.

(٣)أبو المحاسن بن تغري بردى: النجوم الزاهرة في محاسن مصر والقاهرة، جـ ٣ ص ٢٥٦.

المناصب معناه أن العزيز الفاهم قوة في الدولة بحيث صارت المناصب العليا لديهم أهدافاً مشروعة. فولى مملوكه بنجوتكين التركي قيادة الجيش كما ولاه الشام، وولى دنيا الصقلبي عكا، وبشارة الأخشيدي طبرية، ورباحا السيفي غزة، وبرجوان الصقلبي إمارة القصر. وليس أدل على اكثار الفاطميين من الصقالبة من تسمية أحد الشوارع الفاطمية في القاهرة باسمهم، وهو الشارع الذي امتد بين حارة زويلة وخان أبو طاقية. ولقد أثار تفضيل الفاطميين للترك والصقالبة عوامل الحسد والنضال بينهم وبين المغاربة، ويظهر ذلك جلياً أثناء عهد الخليفة الحاكم بأمر الله (٣٨٦ ـ ٤١١هـ = ٩٩٦ ـ ١٠٣٠م) الذي استكثر من العبيد السود (السودان) للحد من نفوذ الفريقين. ثم قوى نفوذ الترك مرة أخرى في عهد الخليفة الظاهر بن الحاكم لميله إلى الأتراك والمشارقة، فصارت قيادة الجيوش في يد أبي منصور أنوشتكين، وهو مملوك تركي الأصل يعرف بالدزبري[(١)]، وقد ولاه الظاهر فيما بعد دمشق سنة ٤١٩هـ (١٠٢٨م) ثم جاء الخليفة المستنصر الفاطمي فمال إلى عنصر العبيد السود واستكثر من شرائهم لأن أمه كانت أمة سوداء، وظل هذا العنصر منبع القوة في الدولة إلى آخر عهد الدولة الفاطمية.

ومن الأدلة التي تبرهن استنتاجاً على كثرة المماليك من الأتراك والصقالبة والسود في الدولة الفاطمية اهتمام الداعي «ثقة الإمام علم الإسلام» بشأنهم في إحدى محاضراته التي ألقاها في مجالس الحكمة، وإفراده، للكلام عنهم عبارة طويلة في سياق محاضراته، ونص هذه العبارة: «انتهينا فيما شرطنا ذكره من سنن الدين إلى ذكر ما أمر به الرفق بالمماليك الذين كلفهم الله خدمتكم ووقاكم بكفايتهم، لأنهم بشر لم ينحتوا من الحجر، ولم يخلقوا من الشجر. فللمملوك على مالكه سبع خصال وهي أن يقوم بكفايته من المطعم والمشرب وستر جسده من الملبس، وأن لا يحمله فوق طاقته، ولا يكلفه من العمل أكثر من استطاعته، ولا يضربه إلا تأديباً ولا تعدياً، ولا

---

(١)نسبة إلى قائد ديلمي يدعى تزبر بن أرنيم الذي اشتراه بدمشق سنة ٤٠٠هـ. راجع: (أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ ٤، ص ٢٥٢).

يلزمه ما لا يحل، ولا يمنعه من الصلاة في أوقاتها. ويجب على المملوك لمالكه اثنتا عشرة خصلة وهي: أن يعتقد نصيحته، ويظهر له شفقته، ويحفظ ماله، ويصون حريمه، ويؤدي له الأمانة ولا يغشه، ولا يخونه، ولا يدخر عنه نفسه، ولا يكتمه صنعة يحسنها، ويطيعه ولا يخالفه، ولا يتصرف في شيء من أمواله إلا بأمره، قال الله تعالى: «وضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء، ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون»[1] .

واهتم الفاطميون بتربية صغار مماليكهم، وهم في الواقع أول من وضع نظاماً تربوياً للمماليك في مصر. فيروي المقريزي أن الأساطيل الفاطمية حملت إلى مصر كثيراً من أسرى الحروب، وجرت العادة أن يحضر أولئك الأسرى إلى مكان يسمى المناخ[2] (جهة الإسماعيلية بالقاهرة اليوم)، فتضاف الرجال إلى من فيه من الأسرى السابقين، ويمضي بالنساء والأطفال إلى قصر الخليفة بعدما يعطي الوزير منهم طائفة، ويفرق الباقي لخدمة المنازل، ثم يدفع الصغار من الأسرى إلى الأستاذين، فيربونهم ويعلمونهم الكتابة والرماية ويسمونهم «الترابـى» وقد يرتقي أولئك الصبيان إلى رتب الأمراء.

وظلت تلك الطائفة موجودة أيام الدولتين الأيوبية والمملوكية، ويلاحظ أن أصلها أشبه ما يكون بأصل بعض الانكشارية[3] في الدولة

---

(١)المجالس المستنصرية، المجلس الثاني والعشرون، ص ١٠١ ـ ١٠٢، نشر وتحقيق الدكتور كامل حسين ـ سلسلة المخطوطات الفاطمية.

(٢)المناخ المكان الذي تناخ به الجمال، وأطلق الفاطميون هذا الاسم على عدة من المخابز والمطاحن والمخازن المدنية، والعسكرية التابعة للدولة. وأغلب الصناع في هذه الأمكنة من أسرى الحرب من الفرنج وكانوا يقطنون بها. راجع (المقريزي: الخطط، جـ ١ ص ٤٤٤).

(٣)الانكشاري Janissaries لفظ حوره الأوربيون من يني تشري Yeni Cheri أي الفرقة الجديدة في اللغة التركية. وكان جنود هذه الفرقة يؤخذون أطفالاً من العناصر المسيحية الخاضعة للدولة العثمانية (ضريبة الدم) ثم يربون تربية عسكرية إسلامية في =

العثمانية، غير أن الترابى لم تلعب في حوادث دول الفاطميين والأيوبيين والمماليك بمصر دوراً ظاهراً مثل الذي قامت به الانكشارية في الدولة العثمانية، لأنها لم تخصص مثل الانكشارية للحياة الحربية وميادين القتال بل ظلت طائفة حول البلاط يكون منهم الغلمان وخدام القصر.

وهناك؛ نظام تربوي آخر وضعه الفاطميون لتربية غلمانهم المعروفين بالصبيان الحجرية وهم فرقة من الشبان الذين سموا بهذا الاسم لأنهم عاشوا في ثكنات تعرف بالحجر وموقعها بجوار القصر الخليفي بالقاهرة. وجاء ذكر تلك الطائفة في دائرة المعارف الإسلامية على أنها طائفة من المماليك كونها الأفضل شاهنشاه[1] وزير الخليفة المستعلي ٤٨٧هـ كفرقة عسكرية تحت قيادة أمير يحمل لقب «الموفق» لتكون حرساً له، وبلغ عدد تلك الفرقة ٣٠٠٠ مملوك[2] غير أن المرجع الذي استمدت منه دائرة المعارف الإسلامية هذا الوصف، يقول إن الحجرية كانوا «يختارون من أولاد الأجناد»[3] ، وإذا سلمنا جدلاً أن أولئك الأجناد من المماليك الأتراك والصقالبة أو غيرهم مما امتلأت به جيوش الدولة الفاطمية، فإنه لا يمكن تطبيق تلك التسمية على أبنائهم،

= مدارس خاصة فيتحولون إلى الرعية العثمانية المسلمة مع بقائهم رقيقاً للسلطان وتعتبر هذه الفرقة من المشاة، من مستحدثات الحرب في ذلك العصر في الشرق والغرب، ويرجع الفضل في إنشائها إلى السلطان العثماني أورخان الأول سنة ٧٢٦هـ (١٣٢٦م) راجع:

Lybyer: The Govermment of the Ottoman Empire p. 91.

(١)هو الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي وهو من أصل أرمني، إذ كان والدهم مملوكاً أرمنياً لجمال الدولة بن عمار فعرف بالجمالي ثم ظل يترقى إلى أن صار حاكماً على الشام وقد استنجد به الخليفة الفاطمي المستنصر بالله للقضاء على فتن طوائف الجند بمصر، فأضاف بذلك عنصراً جديداً في الجيش والدولة وهو العنصر الأرميني. وقد خلف الأفضل أباه بدر الجمالي في منصب الوزارة (المقريزي: الخطط جـ ١ ص ٣٨١).

(٢)راجع: Ency of Islam art. Huggrah.

(٣)المقريزي: الخط جـ ١ ص ٤٤٣.

فأولئك لم يكونوا مماليك في يوم من الأيام، إذ أن المملوك في المصطلح الرسمي المملوكي لا بد وأن يكون قد مسه الرق أي مسته يد النخاس. ولعل دائرة المعارف الإسلامية تأثرت في وصفها للحجرية الفاطميين بتكوين طائفة الغلمان الحجرية الذين استخدمهم الخليفة العباسي المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩هـ = ٩٨٢ ـ ٩٠١م) في بغداد، فهؤلاء كانوا فعلاً من المماليك الذين اختارهم الخليفة من بين غيرهم من المماليك الذين يحسنون الركوب والرمي، ويقيمون أيضاً في الحجر تحت مراعاة الخدم والأستاذين[١] .

وكيفما كان الأمر فإنه يتضح مما تقدم أن الدولة الفاطمية استخدمت المماليك من مختلف الأصناف والألوان، واستطاع عدد منهم أن يصل إلى مناصب الولاية والقيادة بغض النظر عن أصلهم أو جنسيتهم.

مماليك السلاجقة وقيام الدولة الأيوبية:

ثم انتهت الدولة الفاطمية بقيام الدولة الأيوبية على يد الناصر صلاح الدين سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م). والدولة الأيوبية كما هو معروف كردية الأصل، ولكنها جاءت عن طريق الدولة السلجوقية التركية ومماليكها، ونقلت عنها الكثير من عاداتها وأنظمتها التركية المشرقية، وطبقتها في مصر والشام لأول مرة. ولهذا فإنه لا يمكن فهم تاريخ الدولة الأيوبية فهماً جيداً إلا على ضوء دراسة تاريخ السلاجقة وأنظمتهم العسكرية.

ولقد اعتمدت الدولة السلجوقية منذ نشأتها الأولى على المماليك من الترك، وورث هؤلاء سياستها ومراميها. والقاعدة العامة المعروفة عن السلاجقة في ضوء تاريخهم، هي أنهم اعتقدوا أنه لا يمكن للفرس والعرب أن يخلصوا في خدمة ساداتهم الأتراك، وأنه من الأفضل الاعتماد على وفاء المماليك الأتراك الذين ربوا ونشأوا في البلاط على مقربة من سلاطين السلاجقة وأمرائهم، وصار هؤلاء المماليك يجلبون وهم صغار السن من بلاد

---

(١)متز الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة د. أبو ريده، ص ٢٤٢.

القفجاق[1] ، ثم يربون تربية خاصة على أساس النظام التربوي المملوكي الساماني الذي وصفه الوزير نظام الملك الطوسي وزير آل سلجوق في كتابه سياسة نامة إرشاداً للحكام السلجوقيين[2] . ويضيف نظام الملك في ذلك الصدد أنه «يجب ألا يثقل على المماليك القائمين على الخدمة إلا إذا دعت الحاجة، ولا ينبغي أن يكونوا عرضة للسهام في كل حين، ويجب أن يتعلموا كيف يجتمعون على الفور مثلما ينتشرون على الفور إذا صدر بأحدهما الأمر. وكذلك يجب أن يقال لهم مرة أخرى كيف ينبغي للشيء أن يكون حتى ينتهجوا إليه سبيلاً. ولا حاجة إلى التكلف كل يوم بإصدار الأمر بمباشرة الخدمة لمن يكون من الغلمان: صاحب الماء وصاحب السلاح، والساقي وأشباه ذلك، ولمن يكون من الغلمان في خدمة كبير الحجاب وكبير الأمراء بل يجب أن يؤمروا بأن يبرز للخدمة في كل يوم من كل دار عدد معين ومن الخواص عدد معين كذلك حتى لا يكون في ذلك مشقة[3] . ويكمل عماد الدين الأصفهاني[4] الذي عاش بدمشق زمن الملك العادل نور الدين زنكي، تصوير مماليك السلاجقة في عبارة موجزة حيث يقول: «وكان للسلطان مماليك صغار كأنهم أقمار، وكان عليهم من الخصيان الخواص رقباء وعلى طوائفهم من جنسهم نقباء»[5] .

وكان نظام الملك أشد الناس تمسكاً بما جاء في كتابه، إذا حاطه جيش

---

(١)بلاد القفجاق أو القبجاق أو القبشاق إقليم بحوض نهر الفولجا بالجنوب الشرقي من الروسيا الحالية وشمال البحر الأسود والقوقاز، وأهلها من الترك. وكانوا أهل حل وترحال على عادة أهل البدو وفي ضيق من العيش، وبلادهم فرصة عظيمة للتجار ورقيق الترك. راجع (القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٤ ص ٤٥٨).

(٢)أنظر ما سبق أن قلناه في هذا الصدد بالفصل الأول.

(٣)راجع: Schefer: Siaset Nameh par Nizam el Mulk p. 138.

(٤)ولد بأصبهان سنة ٥١٩هـ وقدم بغداد وولي واسط والبصرة ثم انتقل إلى دمشق أيام سلطانها الملك نور الدين زنكي، وعرفه الأمير نجم الدين أيوب وابنه صلاح الدين وتوفي بدمشق سنة ٥٩٧هـ.

(٥)الأصفهاني: دولة آل سلجوق ص ١١٣ .

كبير من المماليك عرفوا بالمماليك النظامية نسبة لاسمه، فقوى بهم نفوذه إلى حد كبير[1] ، حتى إن السلطان ملكشاه السلجوقي كتب إليه في ذات مرة كتاباً يقول فيه: «إنك استوليت على ملكي وقسمت ممالكي على أولادك وأصهارك ومماليكك، كأنك شريك في الملك، أتريد أن آمر برفع دواة الوزارة من بين يديك؟» فرد عليه الوزير نظام الملك: «كأنك عرفت اليوم أني مساهمك وفي الدولة مقاسمك، فاعلم أن دواتي مقرونة بتاجك متى رفعتها رفع، ومتى سلبتها سلب». فكأنما نطق بما به القدر سبق، فلم يكن بين مقتل الوزير (٤٨٥هـ) ووفاة السلطان غير شهر واحد[2] . وزاد نفوذ المماليك النظامية بعد موت السلطان ملكشاه إلى درجة مكنت لهم من عزل ابنه محمود وتولية ابنه الآخر بركيا روق[3] .

ويقال إن نظام الملك أول من اقطع الاقطاعات للمماليك الأتراك، فبعد أن كان عطاء الجندي يدفع نقداً. صار يعطى اقطاعاً[4] ، لأن تسليم الأرض إلى المقطعين يضمن عمارتها، وعناية مقطعيها بأمرها، وفي ذلك ما يحفظ للدولة السلجوقية قوتها وثروتها. ولذا سار سلاطين السلاجقة على ذلك النظام، فمنحوا القلاع والمدن والولايات اقطاعاً للقادة من مماليكهم وهم الذين سموا الأتابكة، وذلك مقابل الخدمات العسكرية التي يؤدونها لهم وقت الحرب والأتابك لفظ تركي معناه «الأب الأمير»[5] ومعناه المربي لابن السلطان، ثم أصبح لقباً تشريفياً يمنح لكبار القواد بمعنى قائد الجيوش أو أبو

---

(١)أبو شامة: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين جـ ١ ص ٢٦.

(٢)صدر الدين أبو الحسن: أخبار الدولة السلجوقية، نشر محمد إقبال بجامعة البنجاب، ص ٦٩.

(٣)الأصفهاني: دولة آل سلجوق، ص ٧٦.

(٤)صدر الدين أبو الحسن: أخبار الدولة السلجوقية، ص ٦٨، الأصفهاني: دولة آل سلجوق ص ٥٥.

(٥)القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٨، كرد علي خطط الشام، جـ ١ ص ١٧١.

الجيش ونائب السلطنة[١] . والوزير نظام الملك أول من لقب بلقب أتابك، وقد منحه إياه السلطان ملكشاه[٢] .

وعلى هذا الأساس صار معظم أراضي فارس والجزيرة والشام، مقسماً إلى اقطاعات عسكرية يحكمها مماليك السلاجقة بتفويض من السلطان. وهؤلاء جعلوا لأنفسهم جيوشاً من المماليك في مختلف الولايات، حتى إذا دعت الحاجة إلى حضورهم للخدمة في الحرب، جاء الوالي السلجوقي بمماليكه وعدته وسلاحه للمشاركة في القتال، وكانت الطريقة المتبعة في استدعاء تلك الفرق العسكرية هي إطلاق أسهم من معسكر إلى معسكر، أو من قرية إلى قرية، اشارة إلى التجمع والاستعداد للحرب، حتى إذا انتهت الحرب عاد الولاة ومماليكهم إلى اقطاعاتهم، وصار ذلك عادة في فصل الشتاء على أن يعودوا في الربيع إذا تطلب الأمر[٣] .

وعلى الرغم من غلبة الطابع العسكري على الدولة السلجوقية وولاتها من المماليك فإن ذلك لم يمنعهم من تذوق الفن والأدب وتشجيع العلم والعلماء وبناء المدارس، وسادت تلك الروح الأدبية بين الولاة السلاجقة حتى بعد اضمحلال الدولة السلجوقية.

وهكذا نرى مما تقدم أن السلاجقة في أيام قوتهم اتخذوا أشخاصاً من كبار مماليكهم أطلق عليهم الأتابكة ليكونوا مربين لأولادهم القصر، ومنحوهم الاقطاعات الكبيرة مقابل قيامهم على شؤون هؤلاء الأبناء وتأديتهم الخدمة الحربية وقت الحرب. ولكن سرعان ما صار هؤلاء الأتابكة أصحاب النفوذ الفعلي في تلك الاقطاعات، وانتهزوا ضعف الدولة السلجوقية وتفككها واستقلوا بولاياتهم شيئاً فشيئاً حتى اقتسموا المملكة السلجوقية بينهم ما عدا الفرع الرومي في آسيا الصغرى فإنه ظل في حوزة السلاجقة

---

(١)انظر Ency of Islam art Ataleg.

(٢)القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٨ .

(٣)راجع: Lane Poole: Saladin P. 15-21.

أنفسهم حتى أتى العثمانيون إلى تلك البلاد في أواخر القرن السابع الهجري (١٣م).

والدول الأتابكية كثيرة العدد، وبيوتها شتى لا تنتهي إلى نسب واحد، إلا أنها يجمعها صفة المملوكية والاتصال بالبيت السلجوقي والنظام الاقطاعي الإسلامي، ومن المماليك السلاجقة الذين حكموا وصاروا ملوكاً، بنو أرتق نسبة لجدهم أرتق التركماني أحد مماليك ملكشاه الذين حكموا حصن كيفا (٤٩٥ ـ ٦٢٩هـ = ١١٠١ ـ ١٢٣١م)، وماردين (٥٠٢ ـ ٨١١هـ = ١١٠٨ ـ ١٤٠٨م). ثم هناك أتابكة دمشق (٤٩٧ ـ ٥٤٩هـ ـ ١١٠٣ ـ ١١٥٤م) وأول ملوكها طغتكين وأصله مملوك للملك تتش ابن ألب أرسلان أول سلاجقة الشام ثم صار لولده دقاق ثم صار ملك دمشق لطغتكيين واستمر في عقبه ٥٢ سنة. ثم هناك شاهات خوارزم ٤٧٠٠ ـ ٦٢٨هـ = ١٠٧٧ ـ ١٢٣١م) وينتسبون إلى أنوشتكين وهو مملوك تركي لأحد أمراء السلاجقة، عينه السلطان ملكشاه حاكماً على خوارزم (خيوة)، ورسخت أقدام هذا البيت واتسعت أملاكه، وعلى أيدي أتسز، وتكش، وعلاء الدين انقضت دولة السلاجقة بخراسان وما إليها من بلاد الري والجبل وما وراء النهر ويروي أبو شامة أن علاء الدين كان يمتلك عشرة آلاف مملوك مثل الملوك. وقد انتهت هذه الامبراطورية الخوارزمية في عهد جلال الدين خوارزمشاه على أيدي المغول سنة ٦٢٨هـ (١٢٣١م) ومن فلولها كانت بعض البذور التي نبتت منها الدولة المماليكية الأولى في مصر.

ومن مشاهير الأتابكة في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي الأمير عماد الدين زنكي مؤسس أتابكية الموصل والشام وديار ربيعة ومضر، وهو ابن قسيم الدولة آق سنقر الحاجب الذي بدأ حياته مملوكاً للسلطان ملكشاه وعن طريق زنكي وابنه نور الدين كان ظهور صلاح الدين الأيوبي الذي تأثر بالنظم السلجوقية، وإليه يرجع الفضل في انتقال تلك النظم إلى مصر حيث بقيت عدة قرون زمن الأيوبيين والمماليك.

ومن أمثلة هذه المؤثرات نذكر استخدام الجاليش في مقدمة الجيش والجاليش عبارة عن خصلة من الشعر كانت ترفع في أعلى الراية أمام الجيش ثم صارت تطلق على مقدمة الجيش أو طلائعه[١] . فهذه العادة جاء بها السلاجقة من المشرق ثم انتقلت إلى مصر على يد الأيوبيين ومن الطريف أنها انتقلت كذلك إلى بلاد المغرب والأندلس مع فرقة الغز التي قادها المملوك قراقوش التقوى[٢] أيام صلاح الدين فابن الخطيب حينما يصف هجوماً قام به الجيش المغربي في عهد الدولة المرينية يقول فزحفت راياتهم على شأن غز المشارقة من المزمار والطبل وحمل جمة الشعر في أعلا سنان الراية[٣] .

كذلك جلب السلاجقة مع العادات الفارسية والتركية الأخرى نظماً جديدة في البلاط والمواكب الرسمية لم تستعمل من قبل أيام الأمويين والعباسيين والفاطميين. مثال ذلك حمل الغاشية بين يدي السلطان في المناسبات المختلفة كشعار للسلطنة والغاشية سرج من أديم مخروزة بالذهب حتى يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب يحملها ركاب الدار بين يدي السلطان ويلفتها يميناً وشمالاً وقد انتقلت هذه العادة إلى مصر والشام على يد صلاح الدين وخلفائه واستمرت بعد ذلك في أيام سلاطين المماليك. ويروي أبو عمرو النابلسي في كتابه «تاريخ الفيوم»[٤] نادرة تدل على قيمة الغاشية كرمز ملكي، فيقول أن شيخاً مصرياً اسمه شهاب الدين الطوسي أمر ركاب داره بأن يرفع الغاشية على أطراف أصابعه كما يصنع بين يدي الملوك. فلما

---

(١)يقول أبو شامة في هذا المعنى (الروضتين جـ ٢ ص ٧٧) وفي موقعة حطين سنة ٥٨٣هـ تقدمت الجاليشة تحرق بنيران النصال أهل النار.

(٢)نسبة إلى الأمير الأيوبي تقي الدين عمر بن أخي صلاح الدين.

(٣)راجع (ابن الخطيب: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ص ٣٢٩، نشر مختار العبادي).

(٤)عثمان إبراهيم النابلسي (ت ٦٥٦) كتاب لمنع القوانين المعنية في دواوين الديار المصرية نشر في مجلة: (Bulletin des Etudes Orientales XVL 1958) Dammass (1961) وقد ألف هذا الكتاب برسم خزانة السلطان الصالح نجم الدين أيوب.

تحدث إليه البعض في ذلك قال: «أنا ملك العلماء كما أن الملوك ملوك الرعايا»[1] .

كذلك استحدث السلاجقة نظام المدارس، وهي منشآت علمية سنية لمحاربة المذهب الإسماعيلي الشيعي وتهيئة العقول لفكرة الجهاد ضد الصليبيين، وسار على هذه السياسة نور الدين محمود زنكي في الشام ثم صلاح الدين الأيوبي في مصر للقضاء على الدعوة الفاطمية. على أنه يلاحظ في هذا الصدد أن مدينة الاسكندرية عرفت نظام المدارس السنية في أواخر أيام الفاطميين وقبل مجيء صلاح الدين فأول مدرسة أنشئت فيها هي المدرسة الحافظية التي أسسها رضوان بن ولخشي وزير الخليفة الحافظ الفاطمي سنة ٥٣٣هـ وأسند التدريس فيها إلى الفقيه المالكي أبي الطاهر بن عوف الذي سبق أن قرأ المذهب المالكي على زوج خالته أبي بكر الطرطوشي[2] .

وبعد عشر سنوات أي في سنة ٥٤٤ بنى العادل بن السلار وزير الخليفة الظافر الفاطمي مدرسة سنية أخرى بالاسنكدرية وأسند التدريس بها إلى الفقيه الشافعي أبي الطاهر أحمد السلفي[3] . غير أن انتشار المذهب السني في ذلك الوقت كان في حدود ضيقة وقاصراً على مدينة الاسكندرية دوناً عن بقية المدن المصرية وذلك بحكم وضعها الجغرافي واتصالها الشديد بالمغرب السني ولهذا فإنه يمكن القول بأن الأيوبيين هم الذين اهتموا في الواقع ببناء المدارس في أنحاء مصر والشام.

كذلك سار الأيوبيون على سنة السلاجقة وأتابكتهم بالإكثار من المماليك الأتراك واستخدامهم في الجيش، غير أنه يلاحظ أن الأيوبيين كانوا

---

(١)عثمان النابلسي: المرجع السابق، وكذلك Becker: Le Ghashiya Comme Embleme de la Royaute (Centenario della nascita di Michele Amari (palermo 1910).

(٢)راجع (السبكي طبقات الشافعية جـ ٤ ص ٤٣ ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ١ ص ٨٧ (طبعة محيي الدين عبد الحميد) جمال الدين الشيال) أعلام الإسكندرية ص ١٢٩).

(٣)ابن خلكان: نفس المرجع جـ ١ ص ٨٧. السبكي: المرجع السابق، جـ ٤ ص ٤٢.

أكراداً أحراراً لم يمسسهم رق وقد نفى صاحب مرآة الزمان القول بأن شادي جد صلاح الدين بدأ حياته مملوكاً لبهروز الخادم الذي ولاه السلطان مسعود غياث الدين محمد بن ملكشاه السلجوقي شحنة العراق إذ قال: ما كان شادي مملوكاً قط ولا جرى على أحد من بني أيوب رق، وإنما شادي خدم بهروز فاستنابه بقلعة تكريت(١) .

بعض المؤرخين قالوا بأن صلاح الدين من أسرة عربية الأصل نزلت عند الأكراد وأنه من ولد شادي بن مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين الذي كانت أمه كردية وقد فند ابن خلكان هذا الرأي قائلاً بأن أصحاب هذه الرواية أراد التقرب من الأيوبيين بعد أن صار الملك في أيديهم ويضيف بأنه لم يعثر على جد لهذه الأسرة الأيوبية بعد شادي وهناك شبه إجماع على أن الأيوبيين أكراد من أذربيجان من قرية في شمالها تسمى دوين جهة أرمينيا وقد اتصل شادي جد صلاح الدين بحاكم العراق السلجوقي واسمه بهروز الخادم في عهد السلطان مسعود بن ملكشاه فاستنابه بقلعة تكريت وهي بلدة كردية وسكانها من الأكراد.

وخلف شادي في حكم قلعة تكريت ابنة نجم الدين أيوب الذي أتاحت له الظروف أن يؤدي خدمة للأمير عماد الدين زنكي صاحب الموصل وحلب فعينه هذا الأمير حاكماً من قبله على بعلبك بعد الاستيلاء عليها ويقال إنه في نفس الليلة التي غادر فيها نجم الدين أيوب قلعة تكريت، ولد له يوسف صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٣٢هـ (١١٣٨م) ومنذ ذلك الوقت ارتبط الأيوبيون بأسرة عماد الدين زنكي ارتباطاً وثيقاً لدرجة أنه بعد وفاته (١١٤٦م) كان نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدين شيركوه(٢) من أكبر أمراء ولده الملك العادل نور الدين زنكي صاحب حلب ودمشق.

---

(١)راجع: (أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣ ـ ٤) حيث ترد هذه العبارة نقلاً عن مرآة الزمان لسبط بن الجوزي).

(٢)كلمة شيركوه معناها أسد الغابة (المقريزي: السلوك جـ ١ ق ١ ص ٤١ الحاشية).

وحينما عزم نور الدين على إرسال حملة إلى مصر لتطويق مملكة بيت المقدس الصليبية من الجنوب ـ بعد فشل الفاطميين في مقاومتها ـ اختار لقيادة هذه الحملة القائد الأيوبي أسد الدين شيركوه الذي صحب معه ابن أخيه صلاح الدين.

وشعر الصليبيون بخطورة هذه الحركة فبادروا بالتدخل في شؤون مصر وإحباط هذه الخطة وهنا حدث تسابق نحو الديار المصرية بين الصليبيين بقيادة عموري Amalric ملك بيت المقدس، وبين جيوش نور الدين بقيادة شيركوه ثم حدثت معارك بين الفريقين انتهت باتفاقهما على الانسحاب سوياً من مصر غير أن هذه الحملات لم تلبث أن عادت وتكررت من الجانبين ثلاث مرات، وانتهى السباق بانتصار شيركوه وبقائه في مصر كوزير للخليفة العاضد الفاطمي، بينما انسحب عموري منهزماً إلى بيت المقدس.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ذلك الجيش الذي قاده أسد الدين شيركوه إلى مصر كان يتكون من معظمه من المماليك والأمراء النورية[١] . مضافاً إليهم فئة من المماليك الأسدية[٢] ، بلغت عدتهم عند وفاته الخمسمائة مملوك ولا حاجة هنا إلى تكرار قصة تولية صلاح الدين الوزارة الفاطمية بعد عمه شيركوه، وما كان للمماليك الأسدية من فضل في ذلك سنة ٥٦٥هـ (١١٦٩م).

ثم توفي الخليفة العاضد في ١٠ المحرم سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م) أي في يوم عاشوراء وبموته زالت الدولة الفاطمية الشيعية فكأنها انقضت في اليوم الذي استشهد فيه الحسين.

---

(١)أبو شامة: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، جـ ١، ص ١٥٥، ١٧٣.
(٢)أبو شامة: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، جـ ١، ص ١٥٥، ١٧٣.

الفصل الثالث

الدولة الأيوبية ومماليكها

عصر صلاح الدين الأيوبي

(٥٦٤ - ٥٨٩هـ/١١٦٩ - ١١٩٣م)

الاستعدادات التي قام بها لمحاربة الخطر الصليبي:

أخذ صلاح الدين يعمل على محو آثار الدولة الفاطمية بمختلف الوسائل الحربية والمدنية والثقافية، فأزال جنود الفاطميين من العبيد السود والأرمن وغيرهم، وأخذ في تكوين جيش قوامه المماليك الأسدية القدماء، وسائره من الأحرار الأكراد الذين دخلوا في خدمته فضلاً عن المماليك الأتراك الذين اشتراهم لنفسه وسماهم الصلاحية نسبة إلى اسمه أو الناصرية نسبة إلى اللقب (الناصر) الذي أضفاه عليه الخليفة الفاطمي حين ولاه الوزارة.

ومن الواضح والمعقول أن أولئك الصلاحية والأسدية صاروا الحرس الخاص لصلاح الدين كما صار العادلية الذين كونهم أخوه العادل فيما بعد بطانة خاصة لهذا الأمير الكبير.

وكان مِنْ حسن طالع صلاح الدين أن سيده الأعلى نور الدين محمود مات بعد ذلك بقليل (٥٦٩هـ/ ١١٧٤م) تاركاً وراءه في الحكم طفلاً في الحادية عشرة من عمره وهو الملك الصالح إسماعيل. كذلك مات في نفس السنة عموري ملك بيت المقدس تاركاً وراءه ابناً عاجزاً في الحكم وهو بولدوين الأبرص

(الرابع) وقد ترتب على ذلك أن دبت الانقسامات الداخلية في كل من مملكتي نور الدين والصليبيين.

ولقد كان في مقدور صلاح الدين بفضل إمكانياته الكثيرة في مصر أن ينازل الصليبيين مباشرة في فلسطين ولكنه فضل أن يبدأ بتقوية جيوشه وأساطيله وتوحيد مملكة سيده نور الدين التي تفككت بين الأمراء الطامعين ولهذا قام صلاح الدين بسلسلة من الأعمال والاستعدادات الحربية الداخلية التي نلخصها في الخطوات التالية:

أولاً: عمل على إحياء البحرية العربية كسلاح مضاد للعدوان الصليبي الذي امتدت أخطاره وغاراته إلى المدن الساحلية المصرية فأفرد للبحرية ديواناً خاصاً للإنفاق عليها عرف باسم ديوان الاسطول وولى عليه سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م صديقاً من أصدقائه لم تذكر المراجع عنه شيئاً سوى أن صلاح الدين كتب إلى جميع ولاة الأعمال المصرية والشامية يأمرهم بتنفيذ طلباته كلما وصلت إليهم من حيث جمع الرجال للخدمة في الأسطول: «والقول قول صاحب الأسطول، وأن لا يمنع من أخذ رجاله وما يحتاج إليه». وفي سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١ عين صلاح الدين أخاه العادل رئيساً عاماً لديوان الأسطول ثم عين العادل بدوره صفي الدين بن شاكر نائباً له في ذلك الديوان، ولقد تولى ديوان الأسطول الانفاق على دور الصناعات (الترسانات) المختلفة وأمدها بكل ما تحتاج إليه من أخشاب وآلات وقد خصص صلاح الدين لهذا الديوان أموالاً ضخمة وهي متحصلات اقليم الفيوم ووادي النطرون وحراج السنط ومتحصل ديوان الزكاة وحصيلة بعض قرى البهنسا في محافظة المنيا الحالية.

ثانياً: احتكر صلاح الدين حراج (غابات) أشجار السنط Acacia التي كانت تعرف باسم الحراج السلطانية، فمنع الناس من التصرف في أعوادها واعتبرها كأنها من المعادن ليس لأحد فيها ملك ولا اختصاص فهي لبيت المال وقد عملت بها أوراق مخلدة في الدوينا وشددت الحراسة عليها وعلى

الرغم من أننا لا نستطيع تحديد مساحة هذه الحراج المصرية إلا أنه من المعروف أنها كانت توجد في أماكن مبعثرة في جنوب الدلتا وصعيد مصر مثل الجيزة والأشمونين وأسيوط واخميم وقوص.

على أن صلاح الدين لم يكتف بالخشب المحلي في مصر، بل استعان أيضاً في بناء أسطوله بأخشاب الصنوبر التي تنبت في جبال لبنان فضلاً عن معدن الحديد الذي كان يستخرج من جبل بالقرب من بيروت كذلك عقد معاهدات تجارية لهذا الغرض مع الجمهوريات الإيطالية حصل بمقتضاها على حاجته من الحديد والخشب والشمع.

وكان يوجد بالاسكندرية ديوان اسمه المتجر السلطاني لشراء مختلف البضائع المستوردة من الخارج واللازمة للجيش والأسطول كالأخشاب والحديد والأقمشة الصوفية فكان المتجر السلطاني يشتري هذه المواد من التجار الأجانب بأموال الخمس المفروض عليهم.

ثالثاً: منع صلاح الدين الأهالي والتجار من التعامل مع البلاد المسيحية في المواد الحربية وأصدر مرسوماً في هذا الصدد يقول فيه: «واقتضى مرسومنا الشريف أن لا يمكن أحد من نقل سلاح ولا عدة حرب إلى جهة البلاد الرومية. ومرسومنا للمقر الكريم أن يتقدم أمره العالي بأن لا يمكن من نقل سلاح ولا عدة إلى جهة البلاد المذكورة والاحتراز على ذلك كل الاحتراز فيحيط علمه بذلك».

رابعاً: اهتم صلاح الدين بتقوية أجهزة الدفاع والحراسة الساحلية كالرباطات والمحارس والمناور والمناظر الممتدة على طول سواحل مصر والشام فحشد فيها الأجناد البطالين[1] والأيزاك[2]. والأبدال[3]، والمنورين

(١)البطالون من الأمراء والأجناد هم العاطلون من أعمال الدولة ووظائفها واقطاعاتها لأسباب ودوافع مختلفة.

(٢)الأيزاك: الحرس.

(٣)الأبدال: بمعنى البدل الذي يحل محل الحرس.

للمرابطة فيها وحراستها وقد أصدر مرسوماً بهذا المعنى يقول فيه: إن مرسومنا الشريف اقتضى الاجتهاد في حفظ السواحل والمواني والاهتمام بأمرها، وإقامة الإيزاك والأبدال في أوقاتها على العادة وإلزام أربابها بمواظبتها، وكذلك المنورون بالديدبانات[1] والمناظر والمناور في الأماكن المعروفة وتعهد، أحوالها.

وكان على المنورين إذا ما كشفوا عدوا في البحر مقبلاً من بعيد أشعلوا النار على قمم المناور أو المنائر إذا كان الوقت ليلاً، أو أثاروا فيها الدخان إن كان الوقت نهاراً هذا إلى جانب استخدام الطبل والنفير لتحذير أهالي المدن المجاورة من غارة العدو وكثيراً ما استعمل المنورون إشارات نارية أو دخانية بطرق أو حركات معينة للأخبار عن حالة العدو أو عدده أو جنسيته أو غير ذلك وإن كانت المراجع للأسف لم تشرح لنا طريقة إرسال هذه الإشارات. وبهذه الطريقة التي تشبه صفارات الإنذار في وقتنا الحاضر كان من الممكن إبلاغ القاهرة عن وقوع غارة بحرية في أقصى شمال الشام في ليلة واحدة أو نهار واحد.

خامساً: وجه صلاح الدين عنايته نحو حماية البحر الأحمر وتجارته وحجاجه والأماكن المقدسة المطلة عليه من خطر المستعمر الصليبـي الذي كان يحتل سواحل الشام وفلسطين واعتمد صلاح الدين في تنفيذ تلك السياسة على أسطوله البحري فعمل على تقويته مستغلاً في بنائه أخشاب السنط التي كانت تنمو بكثرة في وادي النيل وصحراء سيناء كما سبق أن ذكرنا وفي سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠ استولى صلاح الدين على قلعة ايلة التي تقع على فوهة البحر الأحمر ومداخله وكانت هذه القلعة بأيدي الصليبيين فهاجمها بأسطوله واستولى عليها وحصنها بالمجاهدين لأنها تقع في ممرّ حجاج مصر. وبعد سنوات قليلة من فتح أيله، أرسل صلاح الدين حملة بقيادة أخيه تورانشاه احتلت اليمن سنة ٥٦٦هـ/ ١٩٧٠ ثم بسط نفوذه على الحجاز وصار

(١)الديدبان: كلمة فارسية الأصل ومعناها المراقب أو الحارس.

يدعي له على منابر مكة. ولا شك أن هذا التدخل المصري في البلاد المطلة على البحر الأحمر جنوباً وشمالاً كان الهدف من ورائه هو السيطرة على مداخل هذا البحر وحماية تجارته وحجاجه من الخطر الصليبي المرابط في سيناء وجنوب فلسطين.

سادساً: عمل صلاح الدين على تحصين الثغور المصرية المطلة على البحر الأبيض المتوسط مثل الاسكندرية ودمياط ورشيد فأمر بعمارة أسوارها وأبراجها وحفر الخنادق حولها وحرص صلاح الدين على تفقد سير العمل فيها بنفسه فزار هذه الثغور عدة مرات حتى تم العمل فيها.

سابعاً: حرص صلاح الدين على رفع أجور رجال الأسطول لتحسين حالهم، فقرر بأن يكون دينار الأسطول ٣/٤ الدينار العام بعد إن كان ٥/٨ ذلك الدينار أي بزيادة عشرين في المائة تقريباً كذلك استخدم الملاحين من المغاربة في أساطيله نظراً لاختصاصهم ومهارتهم في هذا الجهاد البحري وقد أشاد المؤرخون المعاصرون بشجاعتهم في هذا الميدان زمن الأيوبيين والمماليك.

ثامناً: عمل صلاح الدين على بث روح الحرب والجهاد في نفوس المسلمين وتهيئة عقولهم لهذا الواجب المقدس عن طريق المدارس العديدة التي أنشأها في مصر والشام وقد حرص صلاح الدين على أن يكون هو نفسه قدوة صالحة لهذا العمل فكان مجلسه لا يخلو من ذوي الفضل وأولي النباهة الذين كانوا يتجاذبون بحضرته أطراف الفوائد ولا سيما فضائل الجهاد وفرائض التأهب والاستعداد له وكان الرجل الذي يريد التقرب إلى صلاح الدين يحثه على الجهاد أو يذكر له شيئاً من أخبار الجهاد ولقد ألفت له كتب عديدة في هذا الموضوع وكان وزراؤه وكتابه في مقدمة الذين لبوا رغبته فيقول كاتبه العماد الأصفهاني: «وكنت قد جمعت له كتاباً في الجهاد بدمشق مدة مقامي فيها بجميع آدابه وأحكامه، فقدمته بين يديه فأعجبه»، وكان يلازم مطالعته» وكذلك قول وزيره القاضي الفاضل: «وأنا ممن جمع له في الجهاد

كتاباً جمعت فيه آدابه وكل آية وردت فيه، وكل حديث روي فيه وشرحت غريبها، وكان رحمه الله كثيراً ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الأفضل» كذلك يذكر المؤرخ بهاء الدين بن شداد أنه ألف أثناء مقامه بدمشق كتاباً في الجهاد وأحكامه وآدابه أعجب به صلاح الدين واحتفظ به عنده وكان هذا الكتاب من أسباب تعيينه كاتباً عنده وملازمته له حتى وفاته.

بعد هذه الاستعدادات الحربية الواسعة التي قام بها صلاح الدين والتي استغرقت سنوات طويلة من حكمه بدأ في شن الهجوم على مراكز العدو لشل حركة امداداته ومواصلاته البحرية ففي البحر الأبيض المتوسط قام الأسطول المصري في الفترة التي بين سنتي (٥٧٥ ـ ٥٧٩هـ/ ١١٧٩ ـ ١١٨٣م) بعمليات ناجحة على مواقع العدو في بيروت وعكا وجزيرة أرواد وكذلك على جزيرتي كريت وقبرص والسواحل الجنوبية لآسيا الصغرى. أما في البحر الأحمر فيروي المؤرخون أنه في سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م حاول الأمير الصليبي أرناط Renaud de Chatillon صاحب حصن الكرك[1] جنوبي فلسطين مهاجمة مكة والمدينة فبنى سفناً حربية حملها على جمال الأعراب المجاورين بكراء اتفق معهم عليه، فلما بلغ ساحل البحر أكمل إنشاءها ودفعها في البحر ثم أوقف منها مركبين عند قلعة أيلة لمحاصرتها بينما سارت بقية السفن جنوباً نحو عيذاب فقتلوا وأسروا وأحرقوا في البحر نحو ستة عشر مركباً. وأخذوا بعيذاب مركباً قادماً بالحجاج من جدة وقتلوا الجميع كما استولوا على مركبتين فيهما بضائع جاءت من اليمن واستولوا كذلك على أطعمة كثيرة من الساحل كانت معدة لإرسالها إلى الحرمين الشريفين وأحدثوا حوادث لم يسمع في الإسلام بمثلها. ثم مضوا إلى الحجاز يريدون دخول مدينة الرسول ﷺ وإخراجه من الضريح المقدس، وأشاعوا ذلك وأجروا ذكره على ألسنتهم فلما وصل الخبر إلى مصر وبها الملك العادل نائباً عن أخيه صلاح

---

(١)لعلها من الكلمة السريانية كرك Crac معناها الحصن، لا تزال مدينة الكرك موجودة إلى اليوم جنوبي البحر الميت في شرق الأردن وتبعد عن عمان بحوالي ٢٥ كيلومتراً وهناك رواية أخرى تفيد بأن الكرك أو القرق تعني شجر الفلين باللاتينية Quercus.

الدين، أمر الحاجب حسام الدين لؤلؤ فعمر المراكب وسار بها براً إلى أيلة حيث أنزلها في البحر هناك وشحنها بالرجال ذوي التجربة من أهل الدين والحمية مع أنجاد من المغاربة البحريين، وسار إلى أيلة فظفر بمركبي العدو عندها فحرقهما وأسر جنودهما ثم واصل سيره إلى عيذاب حيث دله أهلها على مراكب العدو فتبعها فوقع بها بعد أيام فأوقع بها وانتصر عليها وأطلق المأسورين من التجار ورد عليهم ما أخذ لهم ثم صعد إلى البر وتتبع الهاربين من الفرنج وأسرهم بأسرهم وكان ذلك في أشهر الحج فساق منهم أسيرين إلى منى ونحرهما بها كما تنحر البدن وعاد إلى القاهرة بالأسرى في ذي الحجة سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م فكتب السلطان إليه بضرب رقابهم بحيث لا يبقى منهم عين تطرف ولا أحد يخبر طريق ذلك البحر أو يعرف»[١].

وللشاعر أبـي الحسين بن الذوري في الحاجب لؤلؤ بسبب هذه الواقعة أشعار منها:

مـرَّ يـوم مـن الـزمـان عجيـب	كـاد يُبـدي فيـه السرور الجمادُ
إذ أتى الحاجب الأجل بأسرى	قـرنتهـم فـي طيِّهـا الأصفـاد
قلـت بعـد التكبيـر لمـا تبـدى	هكـذا هكـذا يكـون الجهـاد
حبـذا لـؤلـؤ يصيـد الأعـادي	وسـواه مـن الـلآلـي يُصـادُ

وقد اضطر أرناط بعد هذه الهزيمة أن يعقد هدنة مع صلاح الدين وأن يقنع بالرسوم التي يفرضها على قوافل التجارة بإمارته والتي يجني منها أرباحاً طائلة هذا إلى جانب الأموال التي كان صلاح الدين يدفعها له سراً دون أن يعلم بها أحد ليسد بها جشعه ويتقي شره ولا شك أن كل هذه الانتصارات السالفة التي سبقت وقعة حطين قد شلت حركة العدو مما ساعد على نجاح خطط صلاح الدين في الشام.

وكان صلاح الدين خلال هذه المدة يعمل على جمع كلمة المسلمين

(١)راجع (أبو شامة: كتاب الروضتين جـ ٢ ص ٣٥ ـ ٣٧) ويقدر عدد الأسرى بنحو مائة وسبعين أسيراً.

وتوحيد المماليك الإسلامية المتفرقة في الشرق العربي واستطاع أخيراً أن يكون جبهة عربية متحدة تمتد من برقة غرباً إلى الفرات شرقاً، ومن الموصل وحلب شمالاً إلى النوبة واليمن جنوباً.

وقد شرح صلاح الدين سياسته هذه في خطاب أرسله إلى الخليفة العباسي المستضيء، يقول فيه: «ولو أن أمور الحرب تصلحها الشركة لما عز علينا أن يكون هناك كثير من المشاركين ولا أساءنا أن تكون الدنيا كثيرة المالكين، وإنما أمور الحرب لا تحتمل في التدبير إلا الوحدة فإذا صح التدبير لم يحتمل في اللقاء إلا العدة (الروضتين ج ٢ ص ٤٨).

موقعة حطين (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م):

كانت الخطوة المنطقية التالية لهذه الوحدة هي أن يقوم صلاح الدين بهجوم إسلامي عام على مملكة الصليبيين في بيت المقدس متخذاً من أعمال بعض الصليبيين الاستفزازية سبباً مباشراً لهذا الهجوم ذلك أن البرنس ارناط صاحب حصن الكرك الذي يشرف على طريق التجارة والحج بين مصر والشام والحجاز لوقوعه شرقي البحر الميت بالأردن، علم من جواسيسه بمجيء قافلة كبيرة من مصر في طريقها إلى دمشق تحمل كل غال ونفيس فأثار ذلك جشعه واستولى عليها وأسر من فيها سنة ١١٨٦م رغم الهدنة المبرمة بينه وبين صلاح الدين وحاول صلاح الدين أن يسترد الأموال والأسرى عن طريق المفاوضة ولكنه لم ينجح عندئذ أقسم بأن ينتقم منه وأن يقتله بيده ثم أعلن التعبئة العامة للهجوم على الصليبيين وهناك رواية أخرى في هذا الصدد يرويها الأمير عبد العزيز تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي الذي صاحب صلاح الدين في جهاده وهو حفيد الملك المعز بن باديس صاحب إفريقية قال: لما مرض صلاح الدين مرضه الشديد سنة ٥٨٢هـ نذر أنه إذا أبل من مرضه فإنه لن يقاتل أحداً من المسلمين وأنه سيكرس جهاده ضد الصليبيين فإذا انتصر عليهم وظفر بالبرنس ارناط فسوف يتقرب إلى الله بإراقة دمه. وقد

نجاه الله ببركة هذا العذر فكان هذا النذر هو سبب إراقة دم الإبرنس ارناط[1]

هذا ما يرويه المؤرخون عن دوافع هذا الهجوم وإن كان من المعروف أن حادثة ارناط لا تعدو أن تكون سبباً مباشراً فقط وأن صلاح الدين لم يقدم على هذا الهجوم إلا بعد أن كمل استعداده وأصبح في مقدوره أن يحدد زمان ومكان المعركة.

ورأى صلاح الدين أن يتحاشى مهاجمة تجمعات الصليبيين بالساحل في صفورية قرب عكا، وعمل على إجبارهم على المسير إليه في الداخل وفي المكان الذي حدده للمعركة فهاجم مدينة طبرية وكانت بها زوجة أمير طرابلس ريموند الثالث واسمها أشيفا وقد أثار هذا الحادث غضب الصليبيين فعقدوا مجلس حرب في عكا وقرروا الزحف من صفورية إلى طبرية وكان من المنتظر أن يكون ريموند الثالث صاحب طرابلس أول المتحمسين لهذه الخطة لإنقاذ زوجته ولكنه عارض فكرة الزحف لوعورة الطريق وقلة الماء وحرارة الجو، وفضل البقاء وانتظار المسلمين على الساحل غير أن أمراء الصليبيين أمثال ارناط وجاي لوزجنان ملك بيت المقدس وزعماء الداوية اتهموا ريموند بالخوف والضعف وقرروا الزحف إلى طبرية. والواقع أن ما كان يراه ريموند هو الصواب من الناحية الاستراتيجية.

وفرح صلاح الدين لنجاح خطته وعقب على قرار الصليبيين بقوله «جاءنا ما نريد» إذ كان هو ورجاله ينعمون بالظلال والماء عند بحيرة طبرية والأردن بينما كان على الصليبيين أن يسلكوا بدروعهم الحديدية طريقاً وعراً مرتفعاً طوله ١٦ك م لا ماء فيه وفي حرارة شهر يوليو الشديدة وقد حرص صلاح الدين على أن يترك لهم تلاً صخرياً مجاوراً قاحلاً لا ماء فيه وهو تل حطين فوصلوا منهمكين متعبين ثم أشعل لهم المسلمون النار في الأعشاب المجاورة فاجتمع عليهم حر الزمان وحر النار والدخان وحر العطش والقتال وانتهز صلاح الدين فرصة حلول الظلام في الليل وأحاط بالجيش الصليبي ثم

---

(١)أبو شامة: كتاب الروضتين جـ ٢ ص ٨٠.

دار القتال بين الفريقين فلم يجد الصليبيون أمامهم سوى تل حطين فأخذوا يصعدون نحو القمة والمسلمون خلفهم يقتلون فيهم ثم أسروا من تبقى منهم وكان على رأس الأسرى ملك بيت المقدس جاي لوزجنان، وأرناط صاحب الكرك ومقدم الداوية دي مونتفورت أما ريموند الثالث فقد تمكن من الفرار إلى إمارته طرابلس بعد أن فتح له المسلمون ثغرة في صفوفهم واستقبل صلاح الدين الأسرى استقبالاً حسناً وقدم لهم الماء المثلج فشرب جاي لوزجنان وأعطى ما تبقى منه لارناط فشربه وغضب صلاح الدين من ملك بيت المقدس وقال له كان ينبغي أن تأخذ مني إذناً تسقيه ثم أخذ يعدد ذنوب أرناط ثم تناول سيفه وقتله تنفيذاً لقسمه كذلك أمر بقتل أسرى الداوية والاسبتارية لكثرة شرورهم وشدة وطأتهم على المسلمين وسيق بقية الأسرى إلى دمشق حيث بيعوا بيع الرقيق.

كانت واقعة حطين كارثة حربية كبرى على الصليبيين فنيت فيها زهرة شبابهم وفرسانهم وقد علق المؤرخ المعاصر ابن الأثير على هذه الواقعة بقوله: «وكان من يرى القتلى يحسب أن ليس هناك أسرى، ومن يرى الأسرى يحسب أن ليس هناك قتلى»[١] .

ولا يفوتنا أن نضيف في هذا الصدد رواية طريفة رواها ابن الأثير على لسان الأمير الأفضل بن صلاح الدين في وصف حطين كما شاهدها بنفسه فيقول: كنت إلى جانب أبـي في ذلك المصاف وهو أول مصاف شاهدته في حياتي فلما انسحب ملك الفرنج إلى قمة التل (قرون حطين) ونصب خيمته الحمراء بأعلى القمة، حمل فرسانه حملة منكرة على المسلمين حتى ألحقوهم بوالدي. قال فنظرت إليه وقد علته كآبة، وأربد لونه وأمسك بلحيته وتقدم وهو يصيح: كذب الشيطان!!

قال: فعاد المسلمون وانقضوا على العدو الذي ارتد إلى التل. وحينما رأيت الفرنج يفرون، صرخت فرحاً مسروراً لقد هزمناهم! غير أنهم حملوا

(١)ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ ١١ ص ٢٢٤.

مرة أخرى وردوا رجالنا إلى حيث يقف والدي فعاد والدي يصيح مثل المرة الأولى: «فلتشدوا على الشيطان الكاذب» فهجم المسلمون على الفرنج ودفعوهم إلى أعلا التل فصحت مرة أخرى: لقد هزمناهم فالتفت والدي إليّ وقال: «اسكت ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة». وبينما يقول لي ذلك وإذا بخيمة الملك قد هويت وسقطت. عندئذ ترجل والدي وسجد شكراً لله تعالى وبكى من فرحه(١).

ولم يجد صلاح الدين صعوبة بعد هذا النصر الحاسم في فتح المدن الصليبية وساعده على ذلك حسن معاملته لأهالي تلك المدن ومثال ذلك أنه بعد فتح طبرية عامل الأميرة اشيفا زوجة ريموند الثالث معاملة كريمة وسمح لها بالسفر بأموالها وحاشيتها إلى طرابلس.

وتوقع الصليبيون أن يذهب صلاح الدين إلى القدس أولاً إلا أنه وجد بثقاب نظره أن يبدأ بالمدن الساحلية التي تربط الصليبيين بموطنهم الأصلي في غرب أوروبا فيحصرهم في داخل الشام فضلاً عن أن احتلاله للمدن الساحلية سيسهل عليه الاتصال البحري بين مصر والشام. وعلى هذا الأساس استولى صلاح الدين على عكا ويافا وصيدا وبيروت وجبيل وحيفا وعسقلان وغزة ولم تستعص عليه سوى مدينة صور وذلك يرجع إلى موقعها الجغرافي المحاط بالمياه من معظم نواحيها(٢) وفشل الأسطول المصري في محاولة غزوها من ناحية البحر.

ورأى صلاح الدين بعد ذلك أن يتجه إلى الداخل نحو مدينة بيت المقدس فحاصرها حصاراً شديداً حتى اضطر أهلها إلى طلب التسليم فدخلها في ليلة الإسراء ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م وكانت الشروط التي فرضها صلاح الدين على المدينة في غاية التسامح والكرم لدرجة أن بعض المؤرخين

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ ١ ص ٥٣٦.

(٢) يصف أبو شامة مدينة صور بقوله: «وصور مدينة حصينة معظمها في البحر كأنها سفينة. (الروضتين جـ ٢ ص ١١٩).

المعاصرين الصليبيين قال في هذا الصدد «ولم تتجل عظمة صلاح الدين مثلما تجلت عند تسليم المدينة الخالدة».

هذه العبارة في الواقع تتضمن حقائق ومعاني كثيرة لأن صلاح الدين لم يستغل انتصاره للتمثيل بأعدائه كما مثلوا بالمسلمين حينما فتحوا القدس سنة ١٠٩٩م بل تركهم يغادرون المدينة بأمتعتم وأموالهم بعد دفع فدية معتدلة، كما راعى حالة الفقراء منهم فترك الكثيرين يرحلون دون دفع الفدية المطلوبة. أما النصارى الشرقيون من أهل المدينة فقد سمح لهم بالبقاء مع المسلمين على أن يدفعوا الجزية كأهل الذمة.

هذا ولم يحاول صلاح الدين هدم الكنائس بل تركها وعلى رأسها كنيسة القيامة، واكتفى بإعادة المساجد التي حولت إلى كنائس ولا سيما المسجد الأقصى الذي كان الفرنجة قد حولوه إلى كنيسة وأنزلوا الفرسان الداوية في قسم منه وأطلقوا عليه معبد سليمان، وكان هذا يدل على أن صلاح الدين لم يكن يحارب الدين المسيحي بل كان يحارب السياسة الأوروبية الاستعمارية.

ولقد واصل صلاح الدين بعد فتح القدس عملية استرداد المدن الشامية من أيدي الصليبيين بحيث لم يبق في أيديهم إلا انطاكية وطرابلس وصور وبعض الحصون والمدن الصغرى وقد عبر صلاح الدين عن هذا النصر بقوله في رسالة إلى أخيه تورانشاه باليمن: إن بلاد الشام ﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً. إلا قيلاً سلاماً سلاماً﴾ [سورة الواقعة: الآيتان: ٢٥، ٢٦].

على أن سقوط بيت المقدس وضياع معظم الممتلكات الصليبية كان له رد فعل عظيم في غرب أوروبا إذ أخذت البابوية تبشر بحملة صليبية جديدة وتحض الملوك والحكام على فض منازعاتهم الداخلية والاشتراك في هذه الحملة، وتزعم هذه الحملة البابا جريجوري الثامن.

وقد لبى الدعوى ثلاثة من كبار ملوك غرب أوروبا وهم: فردريك

بربروسا امبراطور ألمانيا[1] وريتشارد قلب الأسد Lion Heart ملك إنجلترا وفيليب الثاني أوجست Auguste ملك فرنسا. وتعتبر هذه الحملة التي تعرف بالحملة الصليبية الثالثة والتي امتد تاريخها ثلاث سنوات (١١٨٩ ـ ١١٩٢م)، من أكبر الحملات الصليبية في عدد جيوشها وأساطيلها.

ولا شك أن أخبار الاستعداد لهذه الحملة قد بلغت صلاح الدين ففي خطابه إلى أخيه تورانشاه باليمن نجد إشارة صريحة إلى أن القسطنطينية وأصحاب الثغور المغربية والمستخدمين بالإسكندرية، كتبوا له ينذرونه بأن العدو قد أجمع أمراً وأوقد نار الحرب كذلك يروي المؤرخون أن بعض رجال صلاح الدين نصحوا بتخريب عكا وتدمير أسوارها وإقامة عدد من المرابطين مكانها لخطورة موقعها على المسلمين إذا ما تملكها الصليبيون غير أن صلاح الدين كان لا يميل إلى تخريب المدن العامرة[2] ولهذا لم يستجب لهذا الرأي وفضل أن يزيد في استحكامات عكا ووسائل الدفاع عنها واختار لهذا العمل الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي[3] الذي سبق أن أدار السور حول مصر والقاهرة وبنى قلعة جبل المقطم فاستدعاه من مصر هو وأساتيذ العمل وأنفاره وآلاته ودوابه وأبقاره، وفوض إليه عمارة عكا وعينه عليها

(١)غرق هذا الامبراطور في نهر بالقرب من انطاكية أثناء السباحة فيه واضطر أتباعه بعد هذه الكارثة إلى العودة إلى بلادهم.

(٢)يؤيد ذلك أن صلاح الدين حينما اضطر بعد ذلك إلى تخريب مدينة عسقلان ـ مفتاح المسالك الشرقية المؤدية إلى مصر ـ خوفاً من سقوطها في يد الصليبيين، جمع أولاده ورجال دولته وناقشهم في هذا الأمر قبل صدوره ويؤثر عنه أنه قال في هذا الصدد: «والله لأن أفقد أولادي بأسرهم أحب إلي من أن أهدم حجراً واحداً ولكن إذا قضى الله بذلك لحفظ مصلحة المسلمين فكيف أصنع؟ راجع (أبو شامة: كتاب الروضتين جـ ٢ ص ١٩٢).

(٣)قرقراش اسم تركي معناه العقاب الطائر كان مملوكاً لأسد الدين شيركوه ثم انتقل إلى خدمة صلاح الدين وصار نائباً عنه في القاهرة أثناء غيابه عنها وتنسب إليه أحكام عجيبة أثناء ولايته والظاهر أنها موضوعة إذ تثبت النصوص عدله وكفايته وتوفي سنة ٥٩٧هـ.

كذلك استدعى حامية من جنود مصر للمشاركة في الدفاع عن هذا الثغر الهام.

ثم أخذت حشود الصليبيين وأساطيلهم تنزل تباعاً على عكا في سنة (٥٨٥هـ/ ١١٨٩م) ويقدر عدد سفنهم بما لا يقل عن ٥٥٢ سفينة من مختلف البلاد الأوروبية وهذا العدد الكبير كان يزيد بكثير على ما كان عند صلاح الدين من سفن حربية وقد اعترف صلاح الدين بهذا التفوق البحري للعدو في بعض رسائله مثل قوله: «ومن خبر الكفار أنهم الآن على عكا يمدهم البحر بمراكب أكثر عدة من أمواجه ويخرج للمسلمين منهم أمر من أجاجه... فإذا قتل المسلمون واحداً في البر بعث البحر عوضه ألفا»[١].

على أن صلاح الدين لم يقف ساكناً حتى تكتمل تجمعات العدو حول عكا بل سارع في مهاجمته واستطاع فتح الطريق إلى المدينة لإمدادها بالمؤن والأسلحة والرجال كما رتب اليزك الدائم (الحرس) لمنع العدو من الخروج من خيامه فانحصر فيها بحيث صار لا يخرج منها أحد إلا يقتل أو يجرح. وأظهرت حامية المدينة تحت قيادة قراقوش بطولة وشجاعة تسترعي الانتباه.

واستمر الوضع على هذا النحو والقتال دائر على عكا إلى أن كثرت جثث القتلى وجيف الدواب من الجانبين واضطر صلاح الدين إلى الابتعاد من رائحتها إلى مكان داخلي بعيد عن عكا يسمى الخروبة وقد أفاد الصليبيون من هذا الانسحاب إذ تمكنوا من إطباق الحصار حول المدينة وقطع الطرق إليها.

وهنا نجد البحرية العربية تتحمل عبء الاتصال بحامية المدينة من جهة البحر وإمدادها بالمؤن والذخائر والرسائل وغير ذلك. يروي أبو شامة أن السلطان صلاح الدين استدعى الأسطول المصري في أواخر سنة ٥٨٥هـ (١١٨٩م) فقدمت خمسون قطعة بقيادة أمير البحر حسام الدين لؤلؤ الذي فاجأ مراكب العدو في مياه عكا وانتصر عليها وبدد شملها وظفر منها بمركبي

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٧ ص ١٢٧.

شحن مملوءتين بالغلال والأموال والرجال كما أمد حامية المدينة بما تحتاج إليه من طعام وسلاح.

على أن هذه الميرة أو المؤن لم تلبث أن نفدت بعد قليل مما اضطر الأمير بهاء الدين قرقوش والي المدينة إلى الاستنجاد بصلاح الدين من جديد واستمر الأسطول المصري يشق طريقه بنجاح إلى عكا حاملاً إليها مختلف الامدادات وقد اتخذ من ميناء حيفا في جنوبها مأوى يختبىء فيه إذا ما اشتد خطر الفرنج في البحر وكثيراً ما ارتطمت بعض سفنه بصخور الشاطىء بسبب هيجان البحر في فصل الشتاء وقد اضطر الملك العادل أن يرابط بجيوشه عند مياه حيفا للإشراف على السفن القادمة من مصر في طريقها إلى عكا.

أما في شمال عكا فكانت مدينة بيروت هي قاعدة الأسطول الشامي وكان يوجد على سواحلها في مكان يسمى الزيب أو الزئب طائفة من المسلمين يجهزون السفن الداخلة على عكا ويقطعون الطريق على الفرنج(١) وكان لأمير بيروت في ذلك الوقت واسمه عز الدين سامة غزوات كثيرة في البحر ضد مراكب العدو المارة ببيروت في طريقها إلى عكا فغنم هو ورجاله مغانم كثيرة خلدت له ادخار الغنى ويؤثر عن هذا الأمير سامة أو أسامة، أنه استولى على خمس سفن من أسطول ملك انجلترا ريتشارد قلب الأسد، كانت مملوءة خيلاً ورجالاً ونساء وأموالاً.

كذلك يروي العماد الأصفهاني أن السلطان صلاح الدين «وكان قد أمر نواب الاسكندرية بتجهيز سفن كبار وتعميرها بالغلال والأقوات وتسييرها إلى عكا، ولكنها ابطأت عن الموعد المطلوب مما أضر بالمقيمين بمدينة عكا، وفكر صلاح الدين فيما يتعجل به الغرض فكتب إلى متولي بيروت عز الدين سامه، فجهز بطسة كبيرة ملأها ميرة وغلة كثيرة وأركبها جماعة على زي الفرنج ممسوحي اللحى ممسوخي الحلى وأصحبهم صلباناً وخيل بهم

---

(١)أبو شامة: نفس المرجع جـ ٢ ص ١٨٤ ولعل المقصود بالزيب في المتن هو المكان المعروف حالياً بجول الدين على ساحل بيروت الشمالي.

رهباناً. وكانت هذه البطسة من الفرنج مأخوذة، وهي بساحل بيروت منبوذة فأمر السلطان بترميمها وتتميمها، فملئت بالشحوم واللحوم، وأربعمائة غرارة غلة وأحمال من النشاب والنفط ورتب فيها رجال مسلمون ونصارى من أهل بيروت وأرادوا أن تتشبه ببطس العدو في البحر فشدوا زنانير واصطحبوا خنازير وساروا بها في البحر بمراكب الفرنج مختلطين وإلى محادثتهم ومجاذبتهم منبسطين، ولما حاذوا بها عكا صوبوا بها نحوها والريح تسوقها والفرنج من مراكبهم تقول: «ما هذه طريقها وهي كالسهم النافذ قد سدد فوهها فدخلت الثغر واجتزا البلد نصف شهر»[١] ويضيف العماد الأصفهاني «انه بعد ذلك بقليل وصلت في البحر ثلاثة مراكب مصرية كأنها ثلاث هواضب، فجاءت أعلامها كالأعلام، طائرة كالسهام، ولم تبال بمراكب العدو فخرقتها وقربت من سفينة العدو فغرقتها، وعين الكفر عبرى، وامتلأ الثغر بها وأثرى[٢].

هذا ويروي ابن شداد رواية أخرى تتفق مع رواية العماد الأصفهاني حول أهمية الدور الذي قامت به بيروت في إمداد عكا بالغلال والطعام فيقول:

وكان السلطان صلاح الدين قد أعد ببيروت بطسة وعمرها ووضع فيها من الجبن والبصل والغنم وغير ذلك من الميرة وكان الفرنج قد أداروا مراكبهم حول عكا حراسة لها عن أن يدخلها مركب للمسلمين، وكان قد اشتدت حاجة من فيها إلى الطعام والميرة فركب في بطسة بيروت جماعة من المسلمين وتزيوا بزي الفرنج حتى حلقوا لحاهم ووضعوا الخنازير على سطح البطسة بحيث ترى من بعد وعلقوا الصلبان، وجاءوا قاصدين البلد من البعد حتى خالطوا مراكب العدو فخرجوا إليها واعترضوهم في الجرافات والشواني وقالوا نراكم قاصدين البلد «واعتقدوا أنهم منهم، فقالوا: أولم تكونوا أخذتم

---

(١)أبو شامة: نفس المرجع جـ ٢ ص ١٦١.

(٢)أبو شامة: نفس المرجع جـ ٢ ص ١٦١.

البلد؟ فقالوا: لم تؤخذ البلد بعد فقالوا: نحن نرد القلوع إلى المعسكر ووراءنا بطسة فرنجية قد اتفقت معهم في البحر قاصدين العسكر فنظروا فرأوها فقصدوها لينذروها فاشتدت البطسة الإسلامية في السير واستقامت لها الريح حتى دخلت ميناء البلد وسلمت ولله الحمد وكان فرحاً عظيماً فإن الحاجة كانت قد أخذت من أهل البلد[١] .

هذا وقد ظهرت خلال تلك المعارك بطولات عديدة نذكر منها بطولة الضفدع البشري عيسى العوام الذي كان يشد على وسطه الرسائل والذهب ثم يغوص قليلاً في البحر على غرّة من العدو ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو ويدخل عكا حيث يسلم الرسائل إلى رجال الحامية بينما كان الذهب يصرف نفقة للمجاهدين.

وفي ذات يوم حمل عيسى العوام أكياس الذهب والكتب وعام في البحر، فجرى عليه أمر أهلكه ولم يسمع له خبر فأيقن البعض بهلاكه بينما ظن البعض الآخر بفراره بالأموال وبعد أيام بينما كان الناس على طرف البحر في المدينة وإذا البحر قد قذف إليهم ميتاً غريقاً، فافتقدوه فوجدوه عيسى العوام ووجدوا على وسطه الذهب والكتب فبرأه الله مما قالوا وقدر له أداء الأمانة بعد وفاته كما كان يؤديها في حياته[٢] .

بطولة أخرى كان صاحبها الأمير مجاهد جمال الدين محمد بن أرككز الذي تخلفت سفينته عن بقية الأسطول المصري فأحاطت بها مراكب العدو واضطر ملاحوها إلى القفز في الماء طالبين النجاة بأنفسهم بينما ظل أميرهم يقاتل ويقاوم فعرض عليه الصليبيون الأمان إذا استسلم لهم فقال ما أضع يدي إلا في يد مقدمكم الكبير فلا يخاطر الخطير إلا مع الخطير فجاء إليه المقدم الكبير وظن أنه قد حصل له الأمير فعاقره وعانقه وقوي عليه وما فارقه فوقعا في البحر وغرقا وترافقا وعلى طريق الجنة والنار

(١)أبو شامة: نفس المرجع جـ ٢ ص ١٦٠.
(٢)أبو شامة: نفس المرجع جـ ٢ ص ١٦٢.

وهناك أيضاً بطولة يعقوب الحلبي الذي خرج من بيروت على رأس سفينة كبيرة (بطسة) مشحونة بالآلات والميرة الرجال لإمداد حامية عكا فاعترضه ملك انجلترا ريتشارد وحاصره بسفنه التي كانت تبلغ الأربعين قطعة فقاتلهم المسلمون قتالاً عنيفاً وأحرقوا لهم سفينة كبيرة غرقت بمن فيها ولما تكاثر العدو على سفينة المسلمين وكاد أن يستولي عليها قال المقدم يعقوب: «والله لا نقتل إلا عن عز ولا نسلم إليهم من هذه البطسة شيئاً» ثم حطموا جوانب البطسة بالمعاول حتى فتحوها فامتلأت ماء وغرق جميع من فيها وما فيها ولم يظفر العدو منها بشيء[٢].

هذه النصوص وأمثالها تعطينا صورة واضحة لما بذلته البحرية العربية من شجاعة وتضحية ضد عدو يفوقها قوة كثيرة في هذا الميدان ولهذا اعتمدت في مقاومته على عنصري المفاجأة والحيلة مع صدق العزيمة وفي هذا يقول صلاح الدين نفسه في إحدى رسائله: «وكان عدد مراكبهم كبيراً، ولكن لقيناهم بأصدق منها عزيمة والقليل مع العزم الصادق كثير[٣].

هذا ولم يتردد صلاح الدين في استغلال كل فرصة تعينه على قهر خصمه في هذا الميدان البحري فيروي على سبيل المثال أنه اتفق مع جماعة من قراصنة الفرنج على الإغارة على مراكب العدو التجارية وأمدهم ببعض السفن الصغيرة المعروفة باسم البراكس[٤] فركبوها وظفروا بمراكب لتجار، بضائعهم بعضها فضة مصوغـة وغير مصوغـة فأسروهم وأحضروهم بين يدي السلطان فأعطاهم جميع ما غنموا وأبت عليه نفسه أن يأخذ منها شيئاً.

كذلك تروي المصادر أن صلاح الدين أرسل في سنة (٥٨٦هـ/ ١٩٩٠)

---

(١)أبو شامة: نفس المرجع جـ ٢ ص ١٨٢.
(٢)ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٥١.
(٣)أبو شامة: المرجع السابق جـ ٢ ص ١٨١ ـ ١٨٢.
(٤)براكس جمع بركوس وهي السفينة الصغيرة، راجع: أبو شامة: نفس المرجع جـ ٣.

سفيراً من قبله هو الأمير عبد الرحمن بن منقذ إلى خليفة المغرب يعقوب المنصور الموحدي يطلب إعانته بالأساطيل لتحول بين أساطيل الأعداء وبين امداد النصرانية بالشام وعلى الرغم مما قيل أن المنصور رفض هذا الطلب لأن صلاح الدين لم يلقبه في رسالته بلقب أمير المؤمنين[١] . أي لم يعترف بخلافة الموحدين فقد ذهب بعض المؤرخين المغاربة إلى أن المنصور قد أرسل لصلاح الدين مائة وثمانين سفينة حربية لمنع الصليبيين من سواحل الشام[٢] وكيفما كان الأمر فإنه يلاحظ أن أساطيل الموحدين في ذلك الوقت كانت هي الأخرى تجابه أخطاراً جسيمة في مياه المحيط الأطلسي غربي الأندلس حيث كانت أساطيل الألمان والإنجليز والفلمنك (سكان الأراضي الهولندية) المتجهة إلى الشام كثيراً ما ترسو في المواني البرتغالية وتعاون ملك البرتغال سانشو الأول في مهاجمة جيرانه المسلمين في غرب الأندلس لهذا كان على أسطول الموحدين أن يعمل على حماية هذه الأطراف المغربية الإسلامية من هذا الخطر الصليبي[٣] .

وفي أوائل سنة ١١٩١م اشتد ضغط الصليبيين على عكا وعظمت شكاية حامية المدينة من طول المقام بها ومعاناة التعب والسهر وملازمة القتال ليلاً ونهاراً وقرر صلاح الدين تجديد حامية المدينة بواسطة اسطوله إلا أن هذه العملية لم تتم بنجاح بسبب صعوبة الظروف التي تمت فيها وتكالب العدو على المدينة من كل ناحية ويعلق كل من ابن الأثير وأبي شامة على ذلك بقوله: «ودخل إلى عكا من لم يجرب حصارها ولم يخبر منافعها ومضارها.. ودخل إليها عشرون أميراً عوض ستين فكان الذين دخلوا قليلاً بالنسبة إلى الذين خرجوا فلا جرم ان وقع الوهن وقضي الأمر[٤] .

(١)أبو شامة: المرجع السابق جـ ٢ ص ١٧٥ وما بعدها.
(٢)السلاوي الناصري الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، جـ ٢ ص ١٦٢ ـ ١٦٣.
(٣)ابن عذارى البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب جـ ٤ ص ١٧٥.
(٤)أبو شامة: نفس المرجع جـ ٢ ص ١٨٠ ـ ١٨٢ سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٨٦٢.

هذا وقد زاد الموقف حرجاً، احتلال ملك انجلترا ريتشارد لجزيرة قبرص من أيدي البزنطيين في نفس تلك السنة ١١٩١م ومن ثم صارت قبرص قاعدة بحرية جديدة للصليبيين ومركزاً دائماً لتموين اماراتهم في الشرق العربي وقد أثار هذا الحادث موجة من الفرح والحماس في نفوس الصليبيين فشدوا هجماتهم على عكا واضطرت حامية المدينة أن توجه آخر نداء بالحمام الزاجل إلى صلاح الدين يقولون فيه: «أنا قد بلغ منا العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم ونحن في الغد ثامن الشهر (جمادى الأولى سنة ٥٨٧هـ/ ١٩٩١م) إن لم تعملوا معنا شيئاً، نطلب الأمان ونسلم البلد».

ولم تنجح جميع المحاولات العسكرية التي بذلها صلاح الدين لإنقاذ عكا فاضطر قائدها قراقوش إلى الاستسلام في يوليه سنة ١٩٩١م بعد مقاومة دامت سنتين تقريباً وبعد سقوط عكا دب خلاف بين فيليب الثاني ملك فرنسا وبين ريتشارد ملك انجلترا فاضطر فيليب إلى مغادرة الأراضي المقدسة غاضباً والعودة إلى بلاده.

أما الملك ريتشارد قد واصل زحفه جنوباً بحذاء الشاطىء وأساطيله تسير بجواره في البحر واستطاع أن يستولي على شاطىء فلسطين من عكا إلى يافا ثم انحدر جنوباً نحو عسقلان وخشي صلاح الدين على مصر من اطماع الصليبيين خصوصاً وأن ملك انجلترا ريتشارد قد صرح بذلك مراراً وحصل على كثير من الجمال والظهر لهذا الغرض واضطر صلاح الدين إلى تخريب مدينة عسقلان فحرم الصليبيين من هذه القاعدة البحرية التي كان من الممكن استغلالها في مهاجمة مصر مثلما فعلوا بعد سقوطها في أيديهم من قبل سنة ١١٥٣م على عهد الفاطميين وهكذا استطاع صلاح الدين بهذا أن يحتفظ بمفتاح المسالك الشرقية المؤيدة إلى مصر.

وحاول ريتشارد قلب الأسد أن يسترجع بيت المقدس ولكنه فشل تماماً واضطر أن يعقد صلح الرملة مع صلاح الدين في نوفمبر سنة ١١٩٢ (٥٨٨هـ) وأهم شروطه أن يحتفظ الصليبيون بالمدن الساحلية من صور إلى

يافا وتبقى بيت المقدس تحت الحكم الإسلامي على أن يسمح للحجاج المسيحيين بالحج إليها دون مطالبتهم بأية ضريبة مقابل ذلك.

وقام صلاح الدين عقب هذه الهدنة بالعمل على خلاص أصحابة من الأسر ونذكر منهم بهاء الدين قراقوش والي عكا السابق الذي تلقاه السلطان بالبشر والبر[١] كذلك اهتم صلاح الدين بتفقد بعض الثغور الشامية فزار صيدا ثم بيروت حيث استقبله واليها عز الدين سامه في شوال سنة ٥٨٨هـ[٢] .

واضطر صلاح الدين بعد ذلك إلى العودة إلى دمشق حيث وافته المنية في العام التالي سنة ٥٨٩هـ (١١٩٣م) ودفن هناك ومعه سيفه الذي كان معه في الجهاد ليتوكأ عليه إلى الجنة[٣] .

كان صلاح الدين من الحكام القلائل الذين أمنوا بقية السلاح البحري في جهاد الصليبيين وتأمين سلامة بلاده ولعل الحوار التالي الذي دار بينه وبين وزيره القاضي الفاضل يعطينا صورة صادقة لما كان يجيش في نفسه من مشاعر نبيلة نحو هذا الجهاد البحري قال القاضي الفاضل:

«وقع للسلطان في ذي القعدة سنة ٥٨٤هـ أن يتفقد البلاد الساحلية ويرتب أحوالها فسرنا على الساحل من عسقلان إلى عكا وكان الزمان شتاء عظيماً والبحر هائجاً هيجاناً عظيماً وموجه كالجبال، كما قال الله تعالى وكنت حديث العهد برؤية البحر فعظم أمر البحر عندي حتى خيل لي أنني لو قال لي قادر لوجزت في البحر ميلاً واحداً ملكتك الدنيا لما كنت أفعل واستخففت رأي من يركب البحر رجاء كسب دينار أو درهم واستحسنت رأي من لا يقبل شهادة راكب البحر هذا كله خطر لي لعظم الهول الذي شاهدته من حركة البحر وتموجه فبينما أنا في ذلك إذ التفت إليَّ وقال عن نفسه: «أنه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت وركبت هذا

---

(١)أبو شامة: نفس المرجع جـ ٢ ص ٢٠٧.
(٢)أبو شامة: نفس المرجع جـ ٢ ص ٢٠٧.
(٣)أبو شامة: المرجع السابق جـ ٢ ص ٢١٥.

البحر إلى جزائرهم أتبعهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت» فعظم وقع هذا الكلام عندي حيث ناقض ما كان يخطر لي وقلت له: «ليس في الأرض أشجع نفساً من المولى ولا أقوى نية منه في نصرة دين الله» وحكيت له ما خطر لي ثم قلت: «ما هذه إلا نية جميلة ولكن المولى يسير في البحر العساكر وهو سور الإسلام ولا ينبغي أن يخاطر بنفسه: «فقال أنا استفتيك ما أشرف الميتات؟ فقلت: الموت في سبيل الله فقال: غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتات. وهكذا كان شعور صلاح الدين نحو الجهاد البحري وهو شعور قلما نجد مثله بين حكام العصر الوسيط.

نرى مما تقدم أن الحملة الصليبية الثالثة قد فشلت في تحقيق هدفها الأساسي وهو استرداد الأماكن المقدسة في فلسطين من المسلمين إلا أنها في الوقت نفسه استطاعت أن تسيطر على معظم شواطىء الشام بما فيها من مواني مثل صور وحيفا وقيسارية وأرسوف ويافا فضلاً عن عكا التي كانت المنفذ الرئيس لمملكة بيت المقدس الصليبية على البحر المتوسط ثم صارت مقراً اسمياً لهذه المملكة بعد سقوطها.

وفي ختام عصر صلاح الدين ينبغي أن نشير إلى نقطة هامة وهي أن طوائف المماليك الأسدية والصلاحية والعادلية قد شاركت مع الأكراد والعرب في كل هذه العمليات الحربية التي خاضها صلاح الدين ضد ملوك الشام وضد الصليبيين فيصف ابن واصل في كتابه مفرج الكروب، بلاء هؤلاء المماليك أثناء حصار الموصل سنة ٥٨٢هـ/ (١١٨٦م) وفي محاربة الصليبيين عند مدينة صور سنة ٥٨٥هـ (١١٨٩م) وفي الوقائع المتعددة التي حاول فيها صلاح الدين فك الحصار الصليبي عن عكا سنة ٥٨٦هـ (١١٩٠م) ثم في المنازعات التي حدثت مع الصليبيين بالقرب من القدس سنة ٥٨٨هـ (١١٩٢) كما يذكر ابن واصل أسماء من استشهد من المماليك في تلك الوقائع[1] ولم تمنع قوة صلاح الدين وشدة هيبته من معارضة مماليكه

(١)ابن واصل: مفرج الكروب جـ ١ ص ٨٩ ـ ٩١، ١٠١، ١٠٢ ص ١٢٦.

ومخالفته في الرأي في بعض الأحيان ومثال ذلك إنكارهم عزمه على التحصين ببيت المقدس انتظاراً لمجيء ريتشارد قلب الأسد لحصارها سنة ٥٨٨هـ (١١٩٢م) إذ بعث المماليك الأتراك رسالة إلى صلاح الدين يقولون فيها: لا مصلحة في ذلك فإنا نحصر ويجري علينا ما جرى على أهل عكا، وعندئذ تؤخذ بلاد الإسلام أجمع والرأي أننا نضرب مع العدو مصافاً فإن قدر الله تعالى لنا أن نهزمهم ملكنا بلادهم وإن تكن الأخرى، سلم العسكر ومضى القدس وقد انحفظت بلاد الإسلام وعساكرها بمضي القدس... إنك إن أردتنا أن نقيم في القدس فتكون معنا أو بعض أهلك حتى نجتمع عنده وإلا فالأكراد لا يدينون الأتراك والأتراك لا يدينون الأكراد» ونزل صلاح الدين على إرادة المماليك لأهمية القدس عنده واضطر أن يقيم من أهله معهم الأمير الأمجد صاحب بعلبك فتمكن بذلك من الاحتفاظ بالقدس في يد المسلمين[1] .

على أن موضع الأهمية في هذا الاقتباس السالف الذكر هو أن المماليك بلغوا من القوة والكثرة فيما يبدو مما جعل صلاح الدين يستنيم لشورتهم فضلاً عن نزوله على إرادتهم وفي ذلك دليل على مدى اعتماد الدولة الأيوبية منذ أيامها الأولى على فئات المماليك الأتراك.

وللمماليك الأسدية والصلاحية خانات ودروب وحمامات وأسواق ومدارس ظل بعضها يحمل أسماءهم مدة من الزمان مثل درب الجاولى الكبير بجوار الجامع الأزهر نسبة إلى الأمير عز الدين الجاولي الأسدي ودرب الوشاقى بحارة زويله نسبة إلى حسام الدين سنقر الوشاقي الصلاحي[2] وحمام كتبغا الأسدي بخط ما بين القصرين[3] وحمام تتر بناحية دار الوزارة الكبرى وكان تتر هذا أحد مماليك أسد الدين شيركوه وظل اسمه على تلك الجهة

---

(١)ابن واصل: المرجع السابق جـ ١ ص ١٣٠ ـ ٨١٣١

(٢)المقريزي: الخطط.

(٣)المقصود بالقصرين: القصر الشرقي الكبير والقصر الغربي على عهد خلفاء الفاطميين ويقابلهما الآن خان الخليلي ومسجد الحسين وسوق النحاسين بالقاهرة.

حتى خربت وسميت خرائب ترتوان كانت العامة حرفت اللفظ فقالوا خرائب التتر وهناك حمام كرجي نسبة إلى علم الدين كرجي الأسدي وهو بنواحي خرائب تتر كذلك نذكر قيسارية جهاركس (عمارة كبيرة بها حوانيت) التي بناها الأمير فخر الدين[1] جهاركس الناصري بالقاهرة سنة ٥٩٢هـ (١١٩٦م) وبنى في أعلاها مسجداً كبيراً وقد بلغت من العظمة مبلغاً جعل جماعة من التجار الذين شهدوها يقولون بأنهم لم يروا في البلاد مثلها في حسنها وعظمتها وإحكام بنائها ولجهاركس أيضاً مدرسته المعروفة باسمه المدرسة «الجهاركسية» وكانت ملاصقة لتربته بدمشق ودرس بها عدد من كبار العلماء نذكر منهم القاضي تقي الدين محمد بن عبد اللطيف السبكي[2] الشافعي المتوفى سنة ٧٤٤هـ (١٣٤٤م) وهناك المدرسة الأزكشية التي بناها بالقاهرة الأمير أيازكوج الأسدي والمدرسة المسرورية التي بناها الخواص مسرور مقدم حلقة صلاح الدين وهناك خان السبيل الذي بناه بهاء الدين قراقوش الأسدي للمسافرين خارج باب الفترح بالقاهرة وسوبقة البلشون نسبة إلى الأمير سنقر البلشون الصلاحي إلى غير ذلك من المنشآت المختلفة التي إن دلت على شيء فإنما تدل على مقدار ما بلغه مماليك الأيوبيين الأوائل من نفوذ وكثرة.

السلطان العادل سيف الأيوبي (٥٩٦ ـ ٦١٥هـ/ ١١٩٩ ـ ١٢١٨م):

أدت وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ (١١٩٣م) إلى وقوع منازعات بين أبناء البيت الأيوبي مما أضعف المقاومة الإسلامية بوجه عام. ولقد انتهز ملك قبرص عموري لوزجنان هذه الفرصة وهاجم مدينة بيروت بأساطيله

---

(١)يروي المقريزي أن جهاركس كلمة فارسية معناها أربعة أنفس، على حين يروي أبو شامة أن لفظ جهاركس معناه أنه اشترى بأربعمائة دينار غير أن العمري يقول إن جهاركس وحركس وشركس طائفة من طوائف الشمال كالروس من مملكة توران.

(٢)هو والد تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، صاحب طبقات الشافعية الكبرى (ت ٧٧١هـ).

وجنوده واستولى عليها سنة ٥٩٣هـ (١١٩٧).

وذلك بعد أن فرعنها صاحبها عز الدين سامة بدون حرب أو مقاومة وقد أثار هذا العمل استياء الكثيرين مثل قول الشاعر المعاصر:

سلم الحصن ما عليك ملامه ما يلام الذي يروم السلامه
فعطاء الحصون من غير حرب سنة سنها ببيروت سامه

وعلى الرغم من أن الملك العادل قد استعاض بيروت بمدينة يافا التي استولى عليها في نفس السنة (١١٩٧م) إلا أن الدولة الأيوبية في الواقع كانت قد أصابها التفكك بسبب المنازعات الداخلية.

وترجع حوادث الخلف والمنازعات الداخلية بين أبناء البيت الأيوبي إلى تطبيق مبدأ اعتبار المملكة إرثاً خاصاً يقسم أنصبه متساوية وغير متساوية بين أبناء البيت المالك، وهو ما جرى عليه العرف في دولة الشرق والغرب أوائل العصور الوسطى كما يرجع إلى حرص صلاح الدين أن تكون أهم أقاليم المملكة لأبنائه دون غيرهم مثل أخيه وأقدر القادرين على امتلاك ناصية الدولة بعده وهو العادل الذي عينه صلاح الدين على أطراف مبعثرة مثل الكرك والشوبك ومثل أبناء العادل كذلك.

على أن عوامل الانقسام ما لبثت أن ديت بين أبناء صلاح الدين أنفسهم مما جعل للعادل بينهم مدخلاً سهلاً. ولم يمض على وفاة صلاح الدين سوى سبع سنوات حتى طوى العادل معظم أولئك الأبناء فحل محلهم على رأس دولة موحدة وتظهر لنا سياسته الميكيافيلية بوضوح في تصريحه الخطير الذي ألقاه على من حوله من أمراء الدولة بمصر مبرراً خلعه الملك المنصور بن العزيز بن صلاح الدين: إنه قبيح بي أكون أتابك صبي مع الشيخوخة والتقدم والملك ليس هو بالإرث وإنما هو لمن غلب.

وقامت طوائف المماليك الصلاحية والأسدية بدور كبير في تلك الحوادث إذ ناصرت الصلاحية العزيز بن صلاح الدين وابنه الملك المنصور وحاربت العادل وأطماعه. وكان مقدم الصلاحية الأمير فخر الدين جهاركس

الناصري مملوك الناصر صلاح الدين، أما الأسدية وكبيرهم سيف الدين يازكوخ، مملوك شيركوه أصلاً فإن العادل استغل ما بينهم وبين الصلاحية من تحاسد وتنافس واستطاع في مكر ودهاء ووعود خلابة أن يستميلهم إليه ما عدا الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي الذي بقي نائباً مخلصاً للملك العزيز في القاهرة. وظل النزاع بين هاتين الطائفتين قائماً ما ظل الخلاف بين الملوك الأيوبيين حتى تغلب العادل ووحد كلمة بني أيوب فكان نصراً للأسدية وقد خلع عليهم الملك العادل ورد إليهم اقطاعاتهم أما طائفة المماليك الصلاحية فإنها آلت إلى ما آل إليه أبناء صلاح الدين وأحفاده من الضعف وزادها ضعفاً وفاة بعض زعمائها أمثال جهاركس[١] في ٢٠ رجب سنة ٦٠٨هـ (ديسمبر سنة ١٢١١م) وعز الدين سامة فضلاً عن اضطهاد العادل لمن بقي من أولئك الزعماء باستيلائه على حصونهم واقطاعاتهم.

وهكذا نجح العادل في توحيد الدولة الأيوبية من جديد تحت سلطانه ولقد اقتدى السلطان العادل بأخيه صلاح الدين في تحصين ثغور مملكته ولا سيما ثغر دمياط الذي كان المجاز المفضل لدى الصليبيين لهذا شيد سنة ١٢١٧م مدينة العادلية جنوب دمياط على الضفة الشرقية للنيل وشحنها بالمقاتلة والآلات الحربية حتى أصبحت منذ ذلك الحين جهادية لحماية دمياط ومنع الصليبيين من دخولها وبالإضافة إلى ذلك كان عند مدخل فرع دمياط برج عال مبني في وسط النيل ومشحون بالمقاتلة ويعرف ببرج السلسلة إذ كانت تمتد منه سلسلتان: إحداهما تتجه على النيل إلى دمياط على الضفة الشرقية والأخرى تتجه إلى جيزة[٢] دمياط وهي الشاطىء الغربي المواجه

---

(١)دفن جهاركس بجبل الصالحية عند جبل قاسيون في شمال غرب دمشق ونقش على تربته المعروفة بقباب شركس العبارة التالية: هذه التربة المباركة للأمير الكبير الغازي المجاهد فخر الدين حافظ ثغور المسلمين قاتل الكفرة المشركين إياز جهاركس الناصري توفي عقب عودة الغزة في العشرين من رجب سنة ثمان وستمائة رحمة الله عليه وعلى جميع الأموات المسلمين

(٢)الجيزة في اللغة الناحية ولعلها سميت كذلك لأنها يجاز إليها من دمياط.

لدمياط فإذا وثقت السلسلتان امتنع على المراكب العبور من فرع دمياط لهذا كان البرج هو مفتاح دمياط أو قفل الديار المصرية كما يسميه المؤرخون المعاصرون ومن بقاياه حالياً اسمه الذي يطلق على قرية في شمال دمياط على الضفة الشرقية وهي عزبة البرج ويقابلها على الضفة الغربية مصيف رأس البر.

على أن هذه الحصانة التي تميزت بها دمياط وغيرها من الثغور المصرية لم تغير من عزم الصليبيين على غزو مصر خصوصاً بعد أن تبين لهم أن معظم المقاومة التي أبداها صلاح الدين وأخوه العادل كان مصدرها مصر.

وعلى هذا الأساس بدأ الصليبيون في تنفيذ ما عزموا عليه بمعاودة الهجوم على مجازهم المفضل دمياط سنة ١٢١٨م (٦١٥هـ) وكانت هذه الحملة وهي المعروفة في كتب التاريخ بالحملة الصليبية الخامسة قد تجمعت في عكا ثم أبحرت في أسطول ضخم إلى دمياط بقيادة جان دي بريين ملك مملكة بيت المقدس الذي لم يكن في يده منها سوى ثغر عكا وشاركه في القيادة نائب عن البابا اسمه الكاردينال بلاجيوس وكان يحكم مصر في ذلك الوقت الملك الكامل محمد الأيوبي نيابة عن أبيه السلطان العادل الذي كان يحارب الصليبيين في الشام.

ثم نزل الصليبيون في البر الغربي لمدينة دمياط (جيزة دمياط) وشرعوا في مهاجمة برج دمياط وقطع سلاسله لتمر مراكبهم في بحر النيل.

ونهض الملك الكامل فأرسل الأساطيل إلى دمياط وصار يركب كل يوم عدة مرات من العادلية إلى دمياط لتدبير الأمور وإعمال الحيلة في مكايدة الفرنج واستمر برج السلسلة يقاوم هجمات الصليبيين أربعة أشهر ثم تمكن الفرنج آخر الأمر من الاستيلاء عليه بعد أن أقاموا برجاً ضخماً على بطسة كبيرة، سهل لهم التغلب على المقاومة المصرية.

وقد كان لهذا الحادث وقع أليم في نفوس المسلمين حتى أن العادل حينما بلغه خبره وهو بمرج الصفر بالقرب من دمشق تأوه تأوهاً شديداً ودق بيده على صدره أسفاً وحزناً ومرض من ساعته ثم مات بعد أيام قليلة.

السلطان الكامل محمد (٦١٥ ـ ٦٣٥هـ/ ١٢١٨ ـ ١٢٣٨م):

استقل الملك الكامل بملك مصر بعد وفاة أبيه وأخذ يعمل على عرقلة تقدم الأسطول الصليبي في النيل بعد أن حطمت سلسلة البرج فنصب عوضاً عن السلاسل جسراً من السفن في عرض النيل ولكن الفرنج قاتلوا عليه قتالاً شديداً حتى نجحوا في قطعه واختراقه عند ذلك أمر الكامل بتغريق عدة من مراكبه في النيل فاستحال بذلك على السفن الصليبية التقدم جنوباً.

واحتال الفرنج على هذا الإجراء بأن حفروا فرعاً قديماً من فروع النيل يسمى الخليج الأزرق كان يأخذ مياهه من فرع دمياط عند بلدة بوره[1] ويصب في البحر المتوسط شمالاً فأعاد الصليبيون حفره من الرمال التي طمرته وصارت مراكبهم تجري فيه من البحر إلى بلدة بورة التي تواجهها على الضفة المقابلة منزلة العادلية حيث يعسكر السلطان الكامل وبهذا أصبح الجيشان الأيوبي والصليبي وجهاً لوجه لا يفصل بينهما إلا ماء النيل ودارت بين الفريقين معارك بحرية استطاع المصريون خلالها أسر مرمة (سفينة كبيرة) للفرنج كانت من عجائب الدنيا لا تعمل فيها النار لأنها مصفحة بالحديد وفيها من المسامير ما زنة الواحد منها خمسة وعشرون رطلاً[2].

واستمر الحال على هذا الوضع بضعة أشهر كانت دمياط خلالها في مأمن من العدو إذ كان النيل يفصل بينهما والامدادات تصلها بسهولة من العادلية ولكن الظروف سرعان ما تغير الأحوال إذ وقعت مؤامرة في معسكر السلطان كان هدفها خلع الكامل وتولية أخيه الفائز واكتشف الكامل المؤامرة في حينها ولكنه خشي على نفسه منها فترك معسكره ليلاً وانسحب جنوباً إلى

---

(١)بورة بلدة مندرسة على الضفة الغربية جنوب غرب دمياط ينسب إليها السمك البوري، ومكانها اليوم قرية كفر البطيخ والظاهر أنه لكثرة زراعة البطيخ بأراضيها اشتهرت به فتغلب اسمه عليها واختفى اسم بورة (محمد رمزي القاموس الجغرافي للبلاد المصرية جـ ١ ص ١٧٦، ١٧٩).

(٢)المقريزي: السلوك جـ ١ ق ١، ص ١٩٥.

أشموم طناح وهي أشمون الرمان حالياً بمركز دكرنس وحينما علم الجند بانسحاب قائدهم لحقوا به تاركين خيامهم وأثقالهم بالعادلية وانتهز الصليبيون هذه الفرصة فعبروا النيل إلى البر الشرقي واستولوا على معسكر العادلية وما فيه من ذخائر ثم صعدوا شمالاً إلى مدينة دمياط وأحدقوا بها من البر والبحر في يناير سنة ١٢١٩م.

واستطاع السلطان الكامل في ذلك الوقت أن يتغلب على المؤامرة التي قامت ضده وأن يطرد زعماء المتآمرين من بلاده أمثال أخيه الفائز والأمير الكردي عماد الدين بن المشطوب ثم نهض لمحاربة الصليبيين وفك الحصار عن دمياط.

وحاول السلطان الاتصال بأهل دمياط ليرفع من روحهم المعنوية فعهد إلى جندي من رجال حرسه يسمى شمايل أن يقوم بهذه المهمة الخطيرة فكان يسبح في النيل بعيداً عن أعين الصليبيين الذين امتلأ النيل بمراكبهم فيدخل إلى مدينة دمياط ويقوي قلوب أهلها ويعدهم بوصول النجدات ثم يعود إلى السلطان بأخبارهم[١].

وظلت دمياط تقاوم ما يقرب من سنة حتى استبد الجوع بأهلها وتفشت الأمراض والأوبئة فيهم، فانهارت مقاومتهم واستولى الصليبيون على المدينة وعاثوا فيها فساداً في نوفمبر سنة ١٢١٩م (شعبان ٦١٦هـ).

وكان السلطان الكامل في ذلك الوقت مخيماً عند رأس بحر أشمون طناح (البحر الصغير حالياً) في المنزلة التي عرفت بعد ذلك باسم المنصورة تيمناً بانتصاره[٢] وكانت النجدات والامدادات تصل إليه باستمرار بقيادة اخوته

(١)المقريزي: السلوك جـ ١ ق ١، ص ١٩٨ وقد كافأ السلطان هذا البطل الفدائي بولاية القاهرة بعد ذلك، وإليه تنسب خزانة شمايل.

(٢)تقع مدينة المنصورة على الشاطىء الشرقي لفرع دمياط وكانت في أيام مؤسسها السلطان الكامل وولده محاطة بالأسوار والآلات الحربية والستائر ثم أخذت تنمو حتى صارت من أمهات المدن المصرية.

وأقربائه أمراء الأيوبيين في الشام إلى جانب المصريين والعربان من أهل القاهرة ومصر وسائر النواحي حتى أسوان ونودي بالنفير العام بألا يبقى أحد فاجتمع من المسلمين المجاهدين عالم لا يقع عليه حصر[١] .

كذلك وصلت إلى الصليبيين في دمياط امدادات وفيرة من أوروبا والإمارات الصليبية في الشام فلما تكامل جمعهم تقدموا من دمياط بجيوشهم وأساطيلهم ونزلوا جنوباً تجاه بلدة طلخا شمالي المعسكر الإسلامي بحيث صار لا يفصل المعسكرين سوى قناة أو بحر أشموم طناح. ثم التحم الفريقان في قتال عنيف بالبر والبحر وقامت البحرية الأيوبية النيلية بدور هام في تلك المعارك إذ يروي المقريزي أن الأسطول المصري بقيادة الأمير بدر الدين ابن حسون تقدم في مائة شيني وحراقة كبيرة في بحر المحلة ـ وهو فرع قديم كان يخرج وقت ذاك من النيل قرب بنها ثم يتصل بالنيل ثانية شمالي طلخا والمنصورة أي قرب ميدان القتال واستطاع أن يقطع الطريق على السفن الصليبية القادمة من دمياط بالميرة والذخائر إلى ميدان القتال وأن يستولي على عدد كبير منها برجالها وأسلحتها وميرتها[٢] .

ويضيف المقريزي أن السلطان الكامل استغل فرصة زيادة النيل في ذلك الوقت، وأمر جماعة من المسلمين بعبور بحر المحلة في الأرض التي يعسكر عليها الفرنج ويفتحوا هناك مكاناً عظيماً في النيل فلم يشعر الفرنج إلا والماء قد غرق الأرض التي هم عليها وحال بينهم وبين الرجوع إلى دمياط وأصبحوا وليس لهم جهة يسلكونها سوى جهة واحدة ضيقة عند بحر أشموم طناح، سدها الكامل بعدد من جنوده فانحصر الصليبيون من سائر الجهات، وأدركوا أنهم خسروا المعركة فلاذوا إلى طلب الصلح وبعثوا إلى السلطان الكامل يطلبون الأمان لأنفسهم وأنهم يسلمون دمياط بدون قيد أو شرط وقبل السلطان هذا العرض وقد كان في مقدوره إبادتهم ودخلت الجيوش الأيوبية

---

(١)المقريزي: السلوك جـ ١ ق ـ ص ٢٠٢.

(٢)المقريزي ك السلوك جـ ١ ق ١ ص ٢٠٣ ـ ٢٠٧.

دمياط سنة ١٢٢١م (٦١٨هـ)[١] .

وفي عهد السلطان الكامل كانت الحملة الصليبية العجيبة على بيت المقدس التي قادها أمبراطور ألمانيا ومملكة الصقليتين (صقلية ونابولي) فرديرك الثاني وهي الحملة المعروفة بالسادسة وكان قوامها ستمائة جندي فقط ولم ترق فيها قطرة من الدماء وذلك لأن الأمبراطور فردريك توصل إلى عقد معاهدة مع السلطان الكامل سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٩م) استولى بمقتضاها على بيت المقدس بدون قتال.

وفي خلال هذه الزيارة توطدت الصداقة بين الأمبراطور فردريك وبين السلطان الكامل وعدد من الأمراء وكبار رجال الدولة وعلمائها مثل الملك الأشرف موسى شقيق السلطان الكامل والأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ والقاضي شمس الدين قاضي العسكر الذي صحب الأمبراطور أثناء إقامته في الشام.

وبعد عودة الأمبراطور إلى بلاده أهدى إلى الملك الأشرف موسى دباً أبيض فأرسل له السلطان الكامل جملة من الحيوانات الغربية من بينها فيل أثار إعجاب الناس أما الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ فقد سافر إلى الأمبراطور كرسول للملك الكامل وتوطدت بينهما صداقة وثيقة وقد حفظ لنا المؤرخ الحموي محمد بن نظيف في كتابه «التاريخ المنصوري».

(نشر في موسكو ١٩٦٠) عدداً من الرسائل التي أرسلها الأمبراطور إلى الأمير فخر الدين وهي تتضمن معلومات هامة عن أخبار الامبراطور وأخبار دولته.

وكان فردريك الثاني شغوفاً بالعلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية وكثيراً ما كانت تعترضه فيها مشكلات علمية ولا يجد من العلماء المحيطين به من

---

(١)روى المقريزي أن ألف مركب صليبية قدمت نجدة إلى دمياط بعد أن تسلمها المسلمون فكان ذلك صنيعاً من الله سبحانه وتعالى ودليلاً على ذكاء السلطان الكامل وبعد نظره السياسي.

يقدم له حلاً شافياً لها فكان يرسلها إلى أصدقائه من ملوك المسلمين لعرضها على علماء بلادهم والإجابة عليها من ذلك مثلاً المسائل الرياضية والفلسفية التي أرسلها إلى الملك الكامل والتي أجاب عليها العالم الرياضي المصري علم الدين قيصر الأسفوني (نسبة إلى أسفون وهي قرية بالصعيد فبعث بها إليه الملك الكامل مع كتاب في علم الفلك على سبيل الهدية كذلك أرسل فرديك الثاني مجموعة من الأسئلة الفلسفية إلى الفيلسوف المتصوف الأندلسي ابن سبعين وهي مسائل عن الكون والنفس والعلم الإلهي. . . الخ أجابه عليها ابن سبعين وقد عرفت هذه الأسئلة بالمسائل الصقلية لأن الأمبراطور كان مقيماً في صقلية. هذا ولم تقتصر عظمة الكامل على الإنجازات الحربية والسلمية التي حققها مع الغرب المسيحي، بل نجده يسارع إلى ارسال عشرة آلاف جندي من مصر إلى بغداد سنة ٦٣٥هـ للمساعدة في صد التتار بناء على طلب الخليفة العباسي المستنصر. وهو بهذا العمل يبين لنا مدى اهتمام مصر بالدفاع عن بغداد قبل سقوطها في أيدي التتار بواحد وعشرين سنة[١] .

ثم توفي الكامل سنة ٦٣٥هـ (١٢٣٨) وخلفه على عرش مصر ابنه الأصغر وهو العادل الثاني وبقي ابنه الأكبر وهو الصالح أيوب على ولايته بالبلاد الفراتية لأن أم العادل أرادت أن يكون ابنها سلطاناً فكان لها ما أرادت غير أن المماليك الكاملية لم يرضوا عما تم فحالفوا الأشرفية ومقدمهم عز الدين أيبك الأسمر وما زالوا حتى انتهزوا فرصة خروج العادل الصغير لمحاربة قريبه صاحب الكرك فقبضوا عليه في بلبيس وخلعوه سنة ٦٣٧هـ (١٢٤٠م) ولم يتحرك لنصره العادل الصغير إلا الأكراد الذين سرعان ما انهزموا على يد المماليك الكاملية والأشرفية من الأتراك[٢] .

ومن هذه الحادثة يتبين مدى تفوق القوة المملوكية التركية على القوة الكردية في دولة بني أيوب.

---

(١)المقريزي: السلوك جـ١ ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨، فريال قطان: الحجاز في ظل الدولة الأيوبية ص ٢٥١.

(٢)المقريزي: السلوك جـ١ ص ٢٩٤ ـ ٢٩٠.

ولم تكن أصبع الصالح أيوب صاحب الحق في العرش بعيدة عن تلك الحوادث غير أن الكاملية والأشرفية الذين اتفقوا على خلع العادل الصغير اختلفوا بينهم حول خلفه ومال الأشرفية إلى سلطة إسماعيل ابن العادل الأول صاحب دمشق وعم الصالح أيوب على حين مال الكاملية وهم أقوى شوكة إلى الصالح أيوب، فلم يسع الأشرفية إلا موافقتهم واستدعى الصالح أيوب أخيراً لتولي السلطنة في مصر فدخلها سنة ٦٣٧هـ (١٢٤٠م)[١] .

وكيفما كان الأمر فالمهم هنا هو أن المماليك بلغوا من القوة في الدولة الأيوبية ما جعلهم يخلعون سلطاناً ويقيمون آخر.

السلطان الصالح أيوب (٦٣٧ ـ ٦٤٧هـ/ ١٢٤٠ ـ ١٢٤٩م):

وعني الصالح أيوب منذ تبوئه عرش مضر بالإكثار من شراء المماليك الأتراك إلى درجة لم يبلغها غيره من أهل بيته حتى صار معظم جيشه منهم[٢] ، بعد أن ظل عنصر الأكراد الأحرار عدة الدولة الأيوبية منذ نشأتها والسبب في ذلك يرجع إلى خوف الصالح أيوب من اجتماع الملوك الأيوبيين ضده بزعامة عمه إسماعيل وخشية من انقلاب الكاملية والأشرفية عليه إذا رجحت لديهم كفة أعدائه[٣] هذا، ويبدو أن الصالح أيوب لم يستكثر من المماليك فحسب بل أنه أباح لهم الحرية دون غيرهم من الطوائف الأخرى حتى ضج الأهلون من عبثهم واعتداءاتهم على النفس والمال[٤] .

---

(١)ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٣٧، المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٩٦.

(٢)أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر جـ ٣ ص ١٨٨ ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ ص ٧٠، المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠.

(٣)ابن واصل مفرج الكروب ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠.

(٤)قال في ذلك أحد الشعراء المعاصرين (أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣١٩):

الصالح أيوب أكثر من ... ترك بدولته ياشر مجلوب

قد أخذ الله أيوباً بفعلته ... فالناس أصبحوا في ضر أيوب =

عندئذ رأى الصالح أيوب أن يبعدهم عن العاصمة فابتنى لهم سنة ٦٣٨هـ (١٢٤١م) قلعة خاصة بجزيرة الروضة قرب المقياس وأسكنهم بها كما اتخذها مقراً لملكه وزودها بكثير من الأسلحة وآلات الحرب وما يحتاج إليه من الغلال والمؤن وعرف هؤلاء المماليك الجدد باسم المماليك البحرية الصالحية[١] والمماليك البحرية مثل غيرهم من المماليك السابقين واللاحقين أبعد ما يكونون من الخجل من أصلهم أو فصلهم أو نشأتهم بل طالما افتخروا بأنهم مماليك لأن علاقة المملوك بسيده في الشرق عامة علاقة عائلية أكثر منها علاقة عبودية ولم يحل ذلك الأصل دون تربيتهم تربية طيبة وإعدادهم أحسن إعداد لوظائف الحكومة والإدارة والجيش غير أن المراجع المعاصرة لا تشرح طرق التربية التي سار عليها الأيوبيون في تنشئة المماليك بل ليس لدينا في ذلك الصدد سوى ما كتبه المقريزي في وصف ما جرت عليه الدولة المملوكية نفسها في تربية مماليكها بعد ذلك. على أن الاعتماد هنا على مبدأ تطبيق المتأخر على المتقدم يدعو إلى الاطمئنان إذاً المعروف أن الدولة المملوكية وليدة الأيوبيين ونظمها من نظمهم، ولا محل للتردد في القول بأن الصورة التي أوردها المقريزي في شرح تربية المماليك على عهد الدولة المملوكية لا يمكن أن تخرج عن الصورة التي درج عليها الأيوبيون في تربية مماليكهم، ما عدا ما يكون هناك من التعديلات التفصيلية التي أدخلها سلاطين المماليك أنفسهم، فإذا قدم بالمملوك تاجره، عرضه على السلطان فيشتريه ويجعله في طبقة جنسه، ويسلمه إلى المختص برسم الكتابة فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم ولكل طائفة فقيه يأتيها كل يوم، ويأخذ في تعليمها القرآن ومعرفة الخط والتمرين بآداب الشريعة الإسلامية وملازمة الصلوات والأذكار وصار الرسم إذ ذاك الا تجلب التجار الا المماليك الصغار فإذا صار إلى سن البلوغ أخد من تعليمه فنون الحرب

= والضر هنا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وأيوب إذ نادى ربه إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين﴾ [سورة الأنبياء، الآية ٨٣].

(١)المقريزي الخطط جـ ٢ ص ١١٦، ٢١٧.

في رمي السهام ولعب الرمح ونحو ذلك، فيتسلم كل طائفة معلم حتى يبلغ الغاية من معرفة ما يحتاج إليه، وإذا ركبوا إلى لعب الرمح أو رمي النشاب لا يجسر جندي ولا أمير أن يحدثهم أو يدنو منهم عند ذلك ينقل إلى الخدمة وينتقل في أطوارها رتبة بعد رتبة إلى أن يصير من الأمراء فلا يبلغ هذا إلا وقد تهذبت أخلاقه، وكثرت آدابه وامتزج تعظيم الاسلام وأهله بقلبه، واشتد ساعده في رماية النشاب وحسن لعبه بالرمح ومرن على ركوب الخيل. وقد كان لهم خداماً وأكابر من النواب يفحصون الواحد منهم فحصاً شافياً ويؤاخذونه أشد المؤاخذة، ويناقشونه على تحركاته وسكناته فإن عثر أحد مؤدبيه الذي يعلمه القرآن أو رأس النوبة الذي هو حاكم عليه، على أنه اقترف ذنباً، أو أخل برسم أو ترك أدباً من آداب الدين أو الدنيا، قابله على ذلك بعقوبة شديدة بقدر جرمه فلذلك كانوا سادة يدبرون المماليك وقادة يجاهدون في سبيل الله وأهل سياسة يبالغون في إظهار الجميل ويردعون من جار أو تعدى(١).

ويعلل القلقشندي سبب قوة هذا النظام المملوكي لكونه خلاصة الأنظمة المملوكية السابقة وحصيلة تجاربها فيقول ودأبت سلطنة المماليك في مصر على أن تنقل عن كل مملكة سبقتها أحسن ما فيها فسلكت سبيله ونسجت على منواله حتى تهذبت وترتبت أحسن ترتيب وفاقت سائر الممالك(٢).

وللمماليك الصالحية النجمية بالقاهرة خانات ودروب وحمامات ومدارس على غرار منشآت المماليك الأسدية والصلاحية نذكر منها المدرسة الغزنوية التي بناها حسام الدين قايماز الصالحي النجمي(٣) والخانقاه البند قدارية التي بناها الأمير علاء الدين البند قداري الصالحي النجمي(٤)

---

(١)المقريزي: الخطط جـ ٢ ص ٢١٣ ـ ٢١٤.
(٢)القلقشندي: صبح العشي جـ ٤ ص ٦.
(٣)المقريزي: الخطط جـ ٢ ص ٣٩٠.
(٤)المقريزي: الخطط جـ ٢ ص ٤٢٠.

ومطبخ سكر الأمير فارس أقطاي الصالحي النجمي[1]، وحمام الرومي بجوار حارة برجوان نسبة إلى الأمير سنقر الرومي الصالحي[2] .. الخ وكل هذا يدل على أن الدولة الأيوبية استخدمت المماليك الأتراك استخداماً واسعاً بدليل كثرة المباني والعمائر التي شيدها هؤلاء المماليك.

بقيت مسألة تستحق التصحيح في موضوع المماليك البحرية هي أن معظم المؤرخين السابقين والمحدثين أجمعوا على أن السلطان الصالح نجم الدين أيوب هو أول من رتب المماليك البحرية وأول من سماهم بذلك نسبة إلى بحر النيل الذي أحاط بثكناتهم في جزيرة الروضة، غير أن هذا الرأي لا يستند على أساس صحيح للأسباب الآتية:

أولاً: المؤرخون المعاصرون للصالح أيوب أمثال ابن واصل وأبي شامة لم يشيروا إلى بحر النيل كأصل لكلمة بحرية. هذه النسبة أوردها بعض المؤرخين المتأخرين أمثال المقريزي وأبـي المحاسن[3].

ثانياً: من المعروف أن الفاطميين من قبل، كانت لهم طائفة من الجند تعرف بالغز البحرية كذلك كان للسلطان العادل الأول، جد الصالح فرقة من المماليك أسماها البحرية العادلية وهذا يدل على أن الملك الصالح أيوب لم يكن أول من اخترع هذا اللفظ.

ثالثاً: يروي الخزرجي أن سلطان اليمن نور الدين عمر بن رسول (ت٦٤٧هـ) الذي كان معاصراً للصالح أيوب في مصر، استكثر من المماليك البحرية حتى بلغت عدتهم ألف فارس وكانوا يحسنون من الفروسية والرمي ما لا يحسنه مماليك مصر وكان معه من المماليك الصغار قريب منهم في العدد

---

(١)ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٤ ص ٤٤.

(٢)المقريزي: الخطط جـ ٢ ص ٨٣.

(٣)محمد مصطفى رياده: بعد ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك. مجلة كلية آداب القاهرة ١٩٣٦.

خارجاً عن حلقته وعساكر أمرائه[1] .

هذا النص يدل على أن لفظ بحرية استخدم في بلاد إسلامية بعيدة كل البعد عن بحر النيل.

رابعاً: أطلق المؤرخون العرب المعاصرون على بعض الفرق المسيحية العسكرية التي جاءت من أوروبا إلى الشام أثناء الحروب الصليبية اسم الفرنج الغرب البحرية فيروي أبو شامة أنه في سنة ٥٩٣هـ فتح الملك العادل يافا.

ومن عجيب ما بلغني أنه كان في قلعتها أربعون فارساً من الفرنج البحرية فلما تحققوا نقب القلعة وأخذها دخلوا كنيستها وأغلقوا عليهم بابها وتجالدوا بسيوفهم بعضهم لبعض إلى أن هلكوا وكسر المسلمون الباب وهم يرون أن الفرنج ممتنعون فألفوهم قتلى عن آخرهم فعجبوا عن حالهم[2] .

فلفظ بحرية إذن لم يكن جديداً على مصر حينما انشأ الملك الصالح أيوب فرقته البحرية، بل كان لفظاً عاماً أطلق على المسلمين والمسيحيين سواء كما استخدم في مصر وفي خارج مصر قبل عهد الصالح أيوب وهذا يؤدي القول بأن نسبة هذا اللفظ إلى بحر النيل أمر مشكوك في صحته. على أن المشكلة الأخيرة في هذا الصدد هي لماذا سميت هذه الفرق بالبحرية؟ للإجابة على هذا السؤال يجب أولاً أن نشير إلى ما قلناه آنفاً عن خطأ الفكرة الشائعة بأن لفظ بحرية يرجع إلى بحر النيل الذي أحاط بثكنات فرقة البحرية الصالحية بجزيرة الروضة فهذه النسبة لم يذكرها المؤرخون المعاصرون بتاتاً، فضلاً عن أن وجود هذا الاسم منذ العهد الفاطمي في مصر ينفي هذا الزعم أيضاً.

---

(١)راجع: (الخزوجي العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية جـ ١ ص ٨٢).

(٢)أبو شامة: الذيل على الروضتين، نشره عزت العطاء الحسيني تحت عنوان (تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجري) ص ١٠ ـ ١١، ٤٢، ١٥١ ـ هذا ويلاحظ أن كلمة «الغرب البحرية» قد تقرأ أيضاً «العزب البحرية» أي أنهم كانوا غير متزوجين.

وأغلب الظن أنهم سموا بحرية لأنهم جاءوا من وراء البحار إذ جاء في جوانفيل أنهم يسمون بحرية أو رجال ما وراء البحر[١] وجوانفيل الذي حارب المماليك البحرية الصالحية في حملة لويس التاسع وأسر عندهم وتحدث إليهم روايته لها قيمتها بصفته رجلاً معاصراً وشاهد عيان. وإذا علمنا أن المماليك البحرية زمن الأيوبيين والمماليك عبارة عن فئة من الغرباء الذين جلبوا من أسواق النخاسة بالقوقاز وآسيا الصغرى وشواطىء البحر الأسود ثم بحر القرم إلى خليج القسطنطينية ومنه إلى البحر المتوسط حيث يسيرون فيه إلى ميناء الإسكندرية أو دمياط تأيدت لدينا عبارة جوانفيل[٢] .

غير أن فضل جوانفيل لا يقتصر على تفسيره لفظ بحرية التي لصقت بدولة المماليك الأولى بل يتعداه إلى تسجيله حوادث الحملة الصليبية السابعة التي جاء على رأسها لويس التاسع ملك فرنسا للاستيلاء على مصر. ففي تلك الحملة وضحت قيمة المماليك البحرية وحوادثها هي التي مهدت لهم ولدولتهم في مصر والشام ذلك أنه بينما تستقر الأمور للصالح أيوب في مصر والشام إذ بالأنباء تصله بأن حملة صليبية في طريقها إلى مصر وأن قائدها الفرنسيس (أي ملك فرنسا المعروف بالقديس لويس) ويقول ابن واصل والمقريزي أن أخبار تلك الحملة بلغت السلطان الصالح أيوب عن طريق الامبراطور فردريك الثاني هو هنشتاوفن امبراطور ألمانيا وصقلية وأن رسوله تنكر في زي تاجر قصد إلى حضرة السلطان الصالح أيوب فوجده مريضاً بدمشق[٣] .

وإذا كان سقوط بيت المقدس في أيام صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) هو الذي بعث إلى قيام الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة فإن

---

(١)انظر (Joinville: History Of. Saint Louis, Tr Joan Evans P.84).

(٢)القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٤ ص ٤٦٩.

(٣)ابن واصل: مفرج الكروب جـ ١ ص ١٢١، المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٣١ حاشية ٢ وكذلك King: The Knights Hospitallers in The Holydand P. 240.

سقوطها في سنة ٦٤٢هـ (١٢٤٤) في يد الملك الصالح أيوب وحلفائه الخوارزمية[١] كان السبب الذي أدى إلى الحملة الصليبية المعروفة بالسابعة بقيادة لويس التاسع على مصر[٢] إذ أن أنباء الهزائم التي مني بها الصليبيون عند غزوه، وتسليمهم بيت المقدس والفظائع التي ارتكبها الخوارزميون وصلت أوروبا في كثير من المبالغة المعهودة، فكان لا بد لتلك الأنباء أن تثير الروح الصليبية في قلب لويس التاسع.

غير أن تلك الحملة تختلف عن الحملة الثالثة وغيرها من الحملات الصليبية عموماً في أنها لم تكن شاملة لمختلف الأوروبيين، بل فرنسية أغلبها من الفرنسيين لانصراف ألمانيا وإيطاليا وقتذاك إلى النزاع الامبراطوري البابوي وفشل لويس التاسع في إزالة الخلف بين البابا انوسنت الرابع والامبراطور فردريك الثاني. ففي مجمع ليون الديني وهو المجمع الذي عقد سنة ١٢٤٨م (٦٤٦هـ) للنظر فيما وصل إلى البابوية من أخبار الشرق وأعلنت

---

(١)ويلاحظ أن الجنود الخوارزمية هنا هم في الأصل جنود جلال الدين خوارزمشاه سلطان الدولة الخوارزمية التي قضى عليها جنكير خان المغولي وشرد جنودها فصاروا مناسر حربية تحاول الدخول في طاعة من يريد استخدامها وقد صاهر الصالح أيوب زعيماً من زعماء تلك المناسر واسمه بركة خان إذ زوجه اخته من أمه واستعان به ضد الصليبيين واسترد القدس.

(٢)الواقع ان استرداد بيت المقدس تم أولاً على يد الملك الناصر داود بن الملك المعظم ابن العادل صاحب الكرك سنة ١٢٤٠م أي بعد اثنتي عشرة سنة من تسليم الكامل له لفردريك الثاني وقد مدحه الشاعر المصري جمال الدين بن مطروح بقوله:

المسجـد الأقصـى لـه عـادة — سارت فسارت مثلاً سائرا
إذا غـدا بـه الكفـر مستـوطنـاً — أن يبعـث الله لـه نـاصـرا
فنـــاصـــر طهـــره أولاً — ونـاصـر طهـره آخـرا

ولكن الصليبيين استولوا عليه مرة أخرى سنة ١٢٤٢ بمساعدة الناصر داود نفسه نظير تحالفهم معه ضد الملك الصالح أيوب فما كان من هذا الأخير إلا أن استنجد بصهره بركة خان وجنوده الخوارزمية الذين هزموا القوات المتحالفة في غزة واستردوا بيت المقدس سنة ١٢٤٤ كما هو في المتن.

فيه الحملة بقيادة لويس التاسع دعا البابا إلى حملة سماها صليبية ضد فردريك الثاني باعتباره خارجاً على الكنيسة مقطوعاً من رحمتها.

وكانت الفكرة السائدة في أوروبا المسيحية منذ أواسط القرن الثاني عشر الميلادي أنه ما دامت مصر باقية على ما هي عليه من القوة والبأس فإن مشارع الصليبيين في الشام فاشلة لا محالة، ولا بد من حرمان الجبهة الإسلامية من تلك القاعدة الحربية الهامة. وأصل تلك الفكرة عمروي الأول صاحب الحملات المشهورة التي مهدت للدولة الأيوبية في مصر واتخذها حنا بريين Jean de Brienne ملك بيت المقدس محوراً لسياسته وحملته الفاشلة التي دهمت الشواطىء المصرية سنة ٦١٥هـ (١٢١٨) زمن السلطان الكامل كما جعلها لويس التاسع وسيلة لتحقيق غاياته وأحلامه الصليبية ولم تخف تلك الحقيقة على المؤرخ ابن واصل حينما قال. . . إن ملك فرنسا ريدا فرانس حدثته نفسه بأن يستعيد البيت المقدس إلى الفرنج. . . وعلم أن ذلك لا يتم إلا بملك الديار المصرية.

ثم أبحر الأسطول الفرنسي من ميناء مرسيليا في خريف سنة ١٢٤٨م إلى جزيرة قبرص التي كانت تحت حكم آل لوزجنان Lusignan وهم مسيحيون لاتينيون وهناك أقام لويس التاسع مدة الشتاء أجرى خلالها بضعة اتصالات مع المغول بغية تحويلهم إلى المسيحية والاستفادة من جهودهم في تطويق العالم الإسلامي في الشرق الأدنى[١] وأخيراً أبحرت الحملة من قبرص في مايو سنة ١٢٤٩م متجهة إلى مصر بعد أن بلغ عدد رجالها حوالي الخمسين ألف محارب وصحب الملك أخوه شارل دي أنجوا Anjou وروبرت دي أرتوا Artois.

وعلم الملك الصالح أيوب أن مدينة دمياط سوف تكون مجاز الصليبيين المفضل في غزو مصر فعسكر بجيوشه جنوبها في بلدة أشموم طناح

---

(١)لم ينفذ الخان المغولي هذه الخطة حتى إن الملك لويس التاسع ندم فيما بعد على حسن معاملته لرسله.

وهي أشمون الرمان بمركز دكرنس في العصر الحاضر وأمر بتحصين دمياط وتزويدها بالذخائر والأسلحة ووضع فيها حامية من عرب بني كنانة كما أرسل جيشاً إليها بقيادة الأمير فخر الدين يوسف وأمره أن ينزل بساحلها الغربي ليحول دون نزول العدو إلى الشاطىء فنزل هناك تجاه المدينة وأصبح النيل بينه وبينها.

ثم وصل الأسطول الصليبي إلى المياه المصرية قبالة دمياط في تاريخ ٤ يونيه سنة ١٢٤٩م وفي اليوم التالي نزل الصليبيون إلى البر الغربي للنيل حيث وقعت بينهم وبين المسلمين مناوشات، انسحب بعدها الأمير فخر الدين بجيشه وبحامية المدينة إلى المعسكر السلطاني بأشموم طناح وجفل أهل دمياط على أثر ذلك خائفين مذعورين وتركوا جسر السفن الذي يصل بين البر الغربي ودمياط قائماً فعبر عليه الصليبيون واحتلوا المدينة بسهولة. واستشاط السلطان الصالح أيوب غضباً لما وقع فأمر بشنق الكنانيين الذين ارتدوا عن دمياط دون قتال كما تغير على الأمير فخر الدين واشتد في تأنيبه لدرجة أن بعض الأمراء هموا بقتل السلطان لولا نصيحة فخر الدين لهم بالتريث لأن السلطان مريض بمرض خطير وصائر لأجله عن قريب.

ويعلل المؤرخ الفرنسي المعاصر جوانفيل، ذلك الإنسحاب بأن الأمير فخر الدين راسل السلطان ثلاث مرات بالحمام الزاجل يخبره بنزول الفرنج إلى الساحل ولكنه لم يتلق رداً فظن أنه مات وآثر الرحيل بسرعة. ويفهم من كلام ابن واصل والمقريزي أن الأمير فخر الدين كان يطمع في سلطنة مصر لنفسه «وأن همته كانت تترقى إلى الملك» فلعل انسحابه كان سبيلاً لتحقيق أمانيه اعتقاداً منه بأن السلطان قد مات.

وكيفما كان الأمر فإن السلطان اضطر أمام هذه الأحداث إلى الارتداد بمعسكره إلى مدينة المنصورة حيث نزل بالقصر السلطاني على ساحل النيل ورابطت السفن الحربية في النيل تجاه المدينة، كما أخذت جموع العربان والجنود المطوعة تفد إلى تلك القاعدة الجديدة لمواجهة الخطر الداهم.

وصارت العمليات الحربية في تلك الأثناء مجرد غارات يشنها الفدائيون المسلمون على معسكرات الصليبيين واختطاف كل من تصل أيديهم إليه، فإذا شعر بهم الفرنج، ألقوا بأنفسهم في الماء وسبحوا إلى أن يصيروا في بر المسلمين وكانوا يتحيلون في اختطاف الفرنج بكافة الطرق التي تثير الدهشة والإعجاب مثال ذلك أن مجاهداً من المسلمين قوربطيخة خضراء وأدخل رأسه فيها ثم غطس في الماء إلى أن قرب من الفرنج فظنه بعضهم بطيخة سائبة في الماء ولما نزل لأخذها خطفه ذلك الفدائي وأتى به أسيراً إلى معسكر المسلمين.

واستمر الحال على ذلك المنوال ستة أشهر من يونيو إلى نوفمبر سنة ١٢٤٩م ولويس التاسع ينتظر في دمياط قدوم أخيه الثالث كونت دي بواتييه فلما وصل هذا الأمير عقد الملك مجلساً للتشاور في أحسن طريق تسلكه الحملة فأشار البعض بالذهاب إلى الإسكندرية[١] لأنها مرفأ طيب يمكن أن تأوي إليه السفن ويكون التموين فيه سهلاً ولكن الكونت دي أرتوا عارض ذلك الرأي قائلاً بضرورة الذهاب إلى أهم مدينة بالقطر المصري وهي القاهرة «فمن يريد قتل الثعبان فليحطم رأسه أولاً ووافق لويس التاسع على رأي أخيه[٢].

وبينما يستقر الرأي على الزحف صوب القاهرة توفي الملك الصالح أيوب فقامت زوجته شجر الدر[٣] بتدبير شؤون الدولة بعد أن أخفت خبر موته خوفاً من حدوث فتنة بين صفوف المسلمين وفي الوقت نفسه أرسلت إلى ابن زوجها وولي عهده تورانشاه تحثه على الرحيل من ولايته في حصن كيفا

(١)انظر Oman: History Of Art of War in The Middle ages Vol. I. p. 54.

(٢)Hoinville: History Of saint Louis tr. by Evans P. 54.

(٣)المصادر المعاصرة وشبه المعاصرة تذكر الاسم كما ورد هنا في المتن: شجره الدر أما المراجع المتأخرة فتذكره بصيغة شجرة الدر ومن الواضح أن تسمية المعاصرين وأشباههم هي الأصح وقد أيد المؤرخون الأوربيون صحة تسميتها بشجر الدر أمثال دائرة المعارف الإسلامية ولين بول وجاستون فييت وكنج وغيرهم.

بأطراف العراق والقدوم إلى مصر ليعتلي السلطنة بعد أبيه.

ثم علم الفرنج بوفاة الصالح أيوب، فانتهزوا الفرصة وتركوا دمياط زاحفين جنوباً على شاطىء النيل الشرقي لفرع دمياط وسفنهم تسير حذاءهم في النيل وبعد عدة وقفات في فارسكور وشارمساح وفارامون، وصلوا إلى بحر أو قناة أشموم[1] طناح في ١٦ ديسمبر سنة ١٢٤٩م فصار على يمينهم النيل وأمامهم قناة أشموم التي تفصلهم عن معسكرات المسلمين القائمة عند مدينة المنصورة ولمواصلة التقدم جنوباً تعين على الفرنسيين أن يعبروا إما فرع دمياط أو قناة أشموم فاختار لويس التاسع القناة.

وما زال حتى دله بعض الخونة على مخائضها مقابل مبلغ من المال فعبرت الخيالة الصليبية دون أن تلقى مقاومة أثناء عبورها[2] ولم يشعر المسلمون إلا والفرنج معهم في المعسكر فانتشر الذعر بين الجند وخرج الأمير فخر الدين يوسف قائد الجيوش المصرية من الحمام وامتطى صهوة جواده دون أن يلبس درعه، وحاول أن يلم شمل الجنود الفارين بالهجوم هو وبعض مماليكه على العدو المتقدم ولكن السيوف اعتورته من كل جانب فسقط قتيلاً بعد أن تفرق عنه فرسانه واقتحم الصليبيون بقيادة روبرت أرتوا أحد أبواب المنصورة وواصلوا هجومهم في فصائل صغيرة مبعثرة إلى داخل المدينة يقتلون المصريين يميناً وشمالاً حتى وصلت طلائعهم إلى أبواب قصر السلطان نفسه وانتشرت جنودهم في أزقة المنصورة حيث أخذ السكان يرمونهم بالحجارة والطوب والسهام. وبينما الكل على ذلك جمعت فرقة المماليك البحرية الصالحية قواها خارج المدينة ثم أطبقت على الفرنج بقيادة الأمير بيبرس البندقداري فانقلب نصر الصليبيين إلى هزيمة، وأوسعهم

---

(١)هو المعروف اليوم باسم البحر الصغير أحد فروع الري الشهيرة بمحافظة الدقهلية وكان يسمى بحر أشموم نسبة إلى مدينة أشموم طناح الواقعة عليه راجع: أبو المحاسن النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٢١١ ـ ٢٣٢ حاشية رقم ٥).

(٢)المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٤٩ حيث ترد الأقوال الخاصة بمن دل الفرنج على العبور.

المماليك قتلاً حتى أهلكوهم عن آخرهم تقريباً بما في ذلك الكونت أرتوا نفسه الذي لقي بذلك جزاء تهوره واندفاعه[١] .

وبعد ذلك بقليل وصل ملك فرنسا إلى ميدان القتال ونجح في إقامة جسر على بحر أشموم لتعبر عليه الرجالة، غير أن الروح المعنوية الجديدة التي أثارتها موقعة المنصورة (٨ فبراير سنة ١٢٥٠م) في صفوف المسلمين قد طغت على هذا النجاح المؤقت الذي أحرزه الفرنسيون.

وفي اليوم التالي عقد قائد الجيش الأمير فارس الدين اقطاي الصالحي مجلس حرب عرض فيه على المسلمين كزاغند[٢] الكونت أرتوا قائلاً بأنها سترة الملك نفسه وأن شعباً بدون ملك، جسم بلا رأس ولا يخشى منه خطر، وعلى ذلك سوف نهاجم الفرنسيين في يوم الجمعة إذا طاب لكم ذلك، وفي فجر يوم الجمعة وهو الموافق ١١ فبراير سنة ١٢٥٠م أمر اقطاي أربعة آلاف من فرسانه بالتقدم حتى أحاطوا بمعسكر الفرنج، وهذا خلاف فرق الاحتياطي الرابضة عن كثب مستعدة للطوارىء وبعد أن انتهى اقطاي من ترتيب جيوشه تقدم بمفرده راكباً فرساً ليشهد صفوف الصليبيين ومراكز القوة والضعف فيها حتى يحرك قواته على أساسها. وشغلت هذه العمليات وقت اقطاي حتى منتصف النهار ثم أمر بقرع النقارات[٣] ومن ثم بدأ الخيالة والمشاة في الهجوم من جميع النواحي كما لو كانوا يلعبون الشطرنج على حد قول

---

(١)بلغ عدد قتلى الفرنسيين في تلك الموقعة حوالي ١٥٠٠ فارس.
راجع: Oman: Op. Cit I p350

(٢)الكزاغند: المعطف القصير فوق الزردية ويلاحظ هنا أن المسلمين اختلط عليهم الأمر حينما وجدوا على المعطف الشعار الملكي الفرنسي وهو زهرة الزنبق Fleur de Lis فظنوه معطف الملك نفسه وأن الذي قتل هو لويس التاسع.

(٣)النقارات هي من الآلات الخاصة بموكب السلطنة منذ عهد الفاطميين تحمل في ركاب السلاطين إلى ساحة الحرب فتستخدم في إصدار الأوامر وفي الإيذان ببدء القتال وكانت تحمل على عشرين بغلاً، على كل ثلاث منها مثنى راجع (القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٧٥.

جوانفيل[1] واستخدم المماليك النار الإغريقية في هجومهم ولكن الملك لويس تمكن من الثبات وإعادة خط القتال إلى ما كان عليه بعد أن تكبد خسائر فادحة وبذلك تنتهي موقعة المنصورة الثانية، التي أيقن الصليبيون بعدها أنهم لا يستطيعون البقاء في مراكزهم، وأن عليهم الانسحاب إلى دمياط قبل فوات الفرصة[2] .

ثم لم تمض أيام على هذه الموقعة حتى قدم تورانشاه إلى مصر (٢٧ فبراير سنة ١٢٥٠م) فأعلنت وفاة الصالح أيوب وسلمته شجر الدر مقاليد الأمور وما لبث السلطان الجديد حتى تولى قيادة الجيوش بنفسه وأخذ في تدبير خطة لإجبار لويس التاسع على التسليم وخلاصتها أن يقطع خط الرجعة على الفرنسيين، لذا أمر تورانشاه بنقل عدة سفن مفصلة أجزاء على ظهور الجمال وإنزالها في النيل وراء الخطوط الفرنسية[3] وبهذه الوسيلة تمكنت أساطيل المصريين من مهاجمة كثير من السفن الفرنسية المحملة بالمؤن والأقوات والاستيلاء عليها وأسر من فيها ونتج عن ذلك حلول المجاعة بالمعسكر الفرنسي وتفشي الأمراض والأوبئة بين الجنود فساء حالهم واضطر الملك إلى طلب الهدنة وتسليم دمياط على أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبعض بلاد الساحل الشامي، ولكن المصريين رفضوا هذه الشروط علماً منهم بسوء حالة الفرنج فعول الملك على الانسحاب تحت جنح الظلام وأمر بإزالة الجسر الذي على قناة أشموم غير أن الصليبيين تعجلوا أمرهم فسهوا عن قطع الجسر فعبر المصريون في الحال وركبوا أعناق الصليبيين وبذلوا فيهم سيوفهم

---

(١)لعل جوانفيل يقصد بلعبة الشطرنج أن فرسان المسلمين كانوا على شكل درج en echelon.

(٢)انظر Joinvill: cit. P. 80

(٣)هذه الخطة اتبعها من قبل جده السلطان الكامل ضد حملة جان دي برين على مصر سنة ١٢١٧م كذلك أوصاه بها أبوه الصالح أيوب في وصيته التي تركها له قبيل وفاته والتي أوردها النويري في كتابه نهاية الأرب في فنون الأدب جـ ٢٧ لوحة ٨٩ ـ ٩٣) مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة.

واستمرت المطاردة حتى فارسكور حيث أحدقوا بالصليبيين من كل جانب فقتلوا وأسروا منهم عدداً كبيراً(١) وغنموا معظم خيولهم وعتادهم وأموالهم وأبلى المماليك البحرية الصالحية ولا سيما اقطاي وبيبرس البندقداري، في فارسكور بلاءً حسناً حتى أطلق ابن واصل عليهم «داوية الإسلام» إشارة إلى ما صار لهم من قوة تشبه فرسان الداوية عند الصليبيين(٢).

أما على الصعيد الشعبي فقد كانت الروح المعنوية عالية والمشاركة الحربية شاملة وقد سبقت الإشارة إلى صور منها ويعطينا هنا المؤرخ السكندري أبو القاسم النويري صورة حية من أعمال المقاومة الشعبية في ذلك الوقت فيقول:

حدثني أحمد الدمياطي عن والده المعروف بابن طهليش قال: كنت أصطاد السمك بدمياط، فلما كانت وقعة دمياط، كنت ابن خمس عشرة سنة فكنت أجد الجماعة من الفرنجة على ساحل البحر (النيل) خائرين من الجوع فأطرح عليهم الشبكة وأبادرهم بالذبح وأحمل رؤوسهم في الشبكة وآتي بها السلطان وكان السلطان رسم بأن من أتى برأس إفرنجي يأخذ ديناراً، فأخذت بعدد ما معي أول مرة من الرؤوس عن كل رأس ديناراً ثم أعطيت بما جئت به ثاني مرة عن كل رأس درهماً وكان غيري قد أتى بالرؤوس فأعطي كما أعطيت فقلت أخذت أولاً بكل رأس ديناراً وآخذ الآن لكل رأس درهماً؟ فقيل رخصت الرؤوس لكثرتها من ذبح المسلمين لهم فصار لكل رأس بدرهم، وكان ذبحهم هيناً على المسلمين بسبب جوعهم، لأن المسلمين

---

(١) يقال إن عدد القتلى في موقعة فارسكور بلغ ثلاثين ألفاً وقد كتب تورنشاه نفسه هذا العدد في خطابه إلى جمال الدين يغمور نائبه في دمشق وإن كان يبدو أن هذا التقدير مبالغ فيه.

(٢) فرسان الداوية أو المعبد أو الهيكل Templers من أشهر جماعات الفرسان الدينية إبان الحروب الصليبية التي جمعت بين مبادي الرهبنة ومبادي الفروسية وهذه الطائفة مشهورة ببسالتها وشدة بلائها في الحروب فلا غرو إن شبه بها ابن واصل فرقة المماليك البحرية الصالحية.

قعدوا لهم على طريق ميرتهم متى يأتونهم بها من عند أصحابهم بدمياط فيقتلونهم ويأخذون الميرة منهم فجاعت الفرنج الذين يقاتلون المسلمين وانحلت عزائمهم عن القتال، وكسرت الخولة عليهم الجسور فغرقوا بماء النيل وأسر منهم نحو سبعين ألف نفر حتى ملكهم الفرنسيس[1].

ولم يشأ لويس التاسع أن ينجو بنفسه رغم إلحاح الدوسنطاريا عليه، بل قرر الإقامة مع المؤخرة كي «يحمي أصحابه» على قول أبـي المحاسن ولذلك تمكن المصريون من أسره وأسر من معه من الأشراف والفرسان في قرية منية أبـي عبد الله[2] شمالي المنصورة ببضعة أميال ثم سيق لويس التاسع إلى مدينة المنصورة حيث سجن بدار القاضي فخر الدين إبراهيم بن لقمان[3]

وهكذا وصلت الحملة الصليبية المعروفة بالسابعة إلى نهايتها الفاشلة بفضل المماليك البحرية ولم يبق إلا المفاوضات من أجل الصلح.

ولا شك أن فشل هذه الحملة الصليبية يدل دلالة واضحة على جهل الصليبيين بجغرافية البلاد المصرية، فقد كان الأجدر بهم اتباع طريق

---

(١)راجع (محمد بن قاسم النويري السكندري: كتاب الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية (مخطوط رقم ٦٦٧ بكلية الآداب جامعة الإسكندرية). وقد نشره الدكتور عزيز سوريال في ٧ أجزاء في حيدر أباد سنة ١٩٧٦.

(٢)منية أبـي عبد الله قرية لا تزال موجودة إلى اليوم على الشاطىء الشرقي لفرع دمياط وهي التي تعرف باسم ميت الخولي عبد الله إحدى قرى مركز فارسكور بمحافظة الدقهلية.

(٣)قال الشاعر المعاصر جمال الدين يحيى بن مطروح محذراً الفرنسيين بعد هذا الفشل:

وقل لهم إن اضمروا عودة ... لأخذ ثأر أو لقصد صحيح
دار ابن لقمان على حالها ... والقيد باق والطواشي صبيح

انظر (ديوان ابن مطروح ص ١٨١ ـ ١٨٢ هذا ولا تزال دار ابن لقمان معروفة بالمنصورة بجوار جامع الشيخ الموافي.

الصالحية ـ بلبيس الذي سار فيه أكثر غزاة مصر مثل قمبيز والإسكندر وعمرو بن العاص، وسليم الأول، بدلاً من هذا الطريق المعقد الذي قادهم إلى وسط الدلتا حيث كان عليهم عبور النيل بفروعه وقنواته المتعددة.

على أن الشيء الذي يؤسف له حقاً هو أن شعور المسلمين بزوال خطر الفرنج قد حول بأسهم فيما بينهم بعد أن كان على عدوهم فاضطرمت المنازعات الداخلية وحيكت المؤامرات السياسية التي أدت إلى زوال دولة وقيام أخرى. ذلك أن تورنشاه كره المماليك البحرية لأمر لم تشرحه المراجع شرحاً وافياً ما عدا أن تورنشاه كان فتى عنيف الأهواء ورث عن أبيه الكآبة والكبرياء مما نفر منه أمراء المماليك وأنه ارتاب في المماليك البحرية الصالحية وتوجس خيفة من نفوذهم فأعرض عنهم وقرب إليه مماليكه وحاشيته الذين جاءوا معه من الشرق وأحلهم محل البحرية الذين صاروا موضع اضطهاده ووعيده. فكان إذا سكر بالليل جمع أمامه الشموع وضرب رؤوسها بالسيف حتى تنقطع ويقول. هكذا أفعل بالبحرية ويسمي كل واحد منهم باسمه ولذا نقموا عليه وأضمروا له السوء.

ثم وعد تورنشاه الأتابك أقطاي بولاية الإسكندرية ولكنه لم يف بوعده بل قيل أنه عزم على إرساله بشيراً بالنصر إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وأنه أراد بذلك أن يقبض عليه بدر الدين ويعتقله في بعض القلاع، فتنكر أقطاي لتورنشاه وصار يتربص به الدوائر وقيل كذلك أن السلطان أراد أن يرسل جماعة من المماليك بأخبار النصر إلى ملوك البلاد المجاورة ليبعدهم عن القاهرة ففطنت المماليك إلى حيلته وعلموا أنه يريد التخلص منهم.

ولم يقتصر تورنشاه على مناوأة أمراء جيشه وكبار دولته بل تنكر لشجر الدر التي يدين لها بعرشه فبعث إليها يتهددها ويطالبها بمال أبيه فكانت تجيبه بأن الأموال صرفت كلها في شؤون الحرب وشؤون البلاد العامة ويقال إنها داخلها منه خوف شديد فمضت إلى القدس حيناً من الزمن مخافة غدره، كما

كتبت إلى البحرية تشكو لهم من مسلكه الخشن نحوها رغم الخدمات الجليلة التي أدتها له وقت غيابه عن مصر، وكان المماليك البحرية الصالحية يخلصون لشجر الدر لأنها من حريم استاذهم الذي اشتراهم، وبحكم الزمالة التي تربطها وإياهم وهي المعبر عنها في المصادر المعاصرة بلفظ الخشداشية، وهي من أقوى الروابط التي كان لها أثر في تطورات التاريخ المملوكي.

كل هذه الأمور جعلت المماليك يحنقون على السلطان تورنشاه ويجمعون على قتله والتخلص منه من قبل أن يبطش بهم وقام بتنفيذ هذه المؤامرة أربعة من الأمراء منهم فارس الدين أقطاي وبيبرس البند قداري وفي صباح يوم الاثنين الموافق ٢ مايو سنة ١٢٥٠م ـ (٢٧ محرم سنة ٦٤٨هـ) بعد فراغ تورنشاه من طعام إفطاره في خيمته بفارسكور تقدم إليه بيبرس البندقداري وضربه بسيفه ضربة تلقاها بيده فقطعت أصابعه والتجأ تورنشاه إلى البرج الخشبي الذي أقامه على النيل ليمضي فيه بعض وقته أثناء إقامته بفارسكور واحتمى بأعلاه، وأغلق على نفسه الباب فتبعه بيبرس وأقطاي وغيرهما من زعماء البحرية وقالوا:

«بعد جرح الحية لا ينبغي إلا قتلها» وأحاطوا البرج وأضرموا النار فيه فنزل منه تورنشاه وهو يصيح مستنجداً: خذوا ملككم ودعوني أعود إلى حصن كبقا فلم يغثه أحد فأخذ يركض نحو النيل ونبال المماليك تأخذه من كل جانب حتى ألقى بنفسه في الماء على أمل أن يسبح إلى إحدى سفنه الراسية ليعتصم بها ولكن سرعان ما لحق به أقطاي فقتله.

ومما يدعو إلى الالتفات هنا أن مقتل تورنشاه وقع أمام رجال الجيش دون أن يحرك منهم أحد ساكناً لإنقاذه. مما يدل على امتلاك المماليك زمام الموقف، وكان أبو عز الدين رسول الخليفة العباسي موجوداً في المعسكر فعارض في مقتل السلطان ويقال إن تورنشاه أخذ يستغيث به من أعلا البرج فيقول: يا أبا عز الدين أدركني وتكرر ذلك فركب أبو عز الدين في أمره وكلمهم فيه فقبض عليه المماليك البحرية وهددوه بالقتل إذا تدخل في الأمر

ويروي أبو شامة أن المماليك هددوه بإخراق حرمة الخلافة ولا ندري ماذا يعني أبو شامة من وراء هذه العبارة(١) ولعله يعني إخراج مصر عن دائرة النفوذ الديني لخليفة بغداد، والدعاء لخلافة أخرى غير الخلافة العباسية كخلافة الموحدين مثلاً في المغرب.

ثم انتشلت جثة السلطان من النيل وتركت على شاطئه ثلاثة أيام حتى تقرر دفنها في مكانها(٢) وبموت تورنشاه ينتهي عصر دولة الأيوبيين في مصر.

بعض المظاهر الحضارية في عصر الدولة الأيوبية:

رأينا مما تقدم كيف كانت الدولة الأيوبية دولة إسلامية مجاهدة من بدايتها إلى نهايتها فقد اقترنت بدايتها بنصر حطين الذي استردت فيه بيت المقدس، كما اقترنت نهايتها بنصر المنصورة الذي طردت فيه المستعمرين الفرنسيين بقيادة ملكهم لويس التاسع من الأراضي المصرية غير أن هذا الجانب العسكري المنتصر كان يواكبه جانب آخر حضاري مزدهر في شتى ميادين العلم والمعرفة.

من المعروف أن الأيوبيين كانوا أكراداً بأصلهم ونسبهم ولكنهم في الواقع كانوا عرباً بثقافتهم وتربيتهم ونشأتهم فقد نشأوا نشأة عربية إسلامية وامتزجوا بها ولهذا شغفوا حباً باللغة العربية وآدابها وعلومها وقربوا إليهم الشعراء والعلماء والكتاب وشملوهم بعطفهم وكرمهم وهباتهم وخلعهم فاكتظت مجالسهم بأهل العلم والأدب.

ولقد تميز العصر الأيوبي بطابع خاص وهو طابع الجهاد والكفاح ضد الصليبيين ومن ثم كان من الطبيعي أن تنعكس تلك الصورة في نفس الشعراء

---

(١) أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ١٨٥.

(٢) يروي أبو شامة نقلاً عن كلام والي القاهرة أنه بعد مقتل السلطان تورنشاه رمي في جوف على حافة البحر (النيل) وردم عليه التراب فبقي هناك ثلاثة أيام، ثم كشف الماء فجوه مراكبي في الماء بصنارة كأنه حوت إلى أن وصل إلى الشاطىء الآخر فدفنه هناك.

والكتاب في جميع أنحاء الشرق العربي، فانطلقت ألسنتهم وأقلامهم تشيد بالانتصارات وأعمال البطولة وتمدح أبطالها المدافعين عن حوزة الإسلام وتعبر عن أمانيها وآمالها بمستقبل أفضل.

وكان صلاح الدين نفسه يتذوق الشعر ويردد بعضه في مجالسه ويميز الجيد من الرديء منه. كذلك كان ملماً إلماماً كبيراً بأحكام الشريعة وأصولها وله مساجلات أيضاً مع الفقهاء والعلماء في هذا الصدد.

وما يقال عن صلاح الدين يقال أيضاً عن أفراد أسرته فأخوه العادل كان يميل إلى العلم والعلماء ونخص بالذكر منهم العالم الفيلسوف فخر الدين الرازي الذي صنف له بعض كتبه وأرسلها له من خراسان وهناك الملك المؤيد مسعود بن صلاح الدين صاحب اليمن الذي كان مغرماً باقتناء الكتب حتى اشتملت مكتبته على آلاف الكتب كذلك الملك المعظم عيسى بن العادل صاحب دمشق الذي وهب لكل من يحفظ كتاب المفصل للزمخشري مائة دينار وخلعة كما أنه طلب من الأديب الفارسي قوام الدين الفتح بن محمد البنداري الأصفهاني ترجمة كتاب الشهنامه لأبي القاسم الفردوس (والشهنامه ملحمة شعرية فارسية تقص أخبار ملوك الفرس القدماء وأساطيرهم حتى الفتح العربي).

وإلى جانب الملوك والأمراء هناك طبقة الوزراء والكتاب في ذلك العصر نذكر منهم القاضي الفاضل أبو علي محيي الدين اللخمي (ت ٥٩٦هـ) وزير صلاح الدين وصاحب الطريقة الفاضلية في الإنشاء وهناك العماد الأصفهاني (ت ٥٩٧هـ) كاتب صلاح الدين ومؤرخه الحربي وصاحب المصنفات الأدبية والتاريخية العديدة مثل: دولة آل سلجوق (مطبوع) والبرق الشامي (مخطوط) وخريدة القصر وجريدة العصر (مطبوع) والفتح القسي في الفتح القدسي (مطبوع) كذلك نذكر الأمير الفارس أسامة بن منقذ (ت ٥٨٣هـ) أحد أمراء بني منقذ أصحاب حصن شيزز الذي لا زالت أطلاله باقية إلى اليوم باسم سيجر على بعد خمسة عشر ميلاً إلى الشمال من

حماة على ضفة العاصي الغربية وبحكم جواره للصليبيين كان لأسامة معهم مشاكل وحروب وصداقات ونوادر دونها في كتابه على شكل مذكرات خاصة تحت عنوان كتاب الاعتبار (نشر فيليب حتي) والكتاب يتضمن صوراً مقارنة بين عادات المسلمين والفرنجة شاهدها وعاينها أسامة بنفسه. وهناك أيضاً المؤرخ بهاء الدين بن شداد (ت ٦٣٢هـ) صاحب كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (مطبوع) وتناول سيرة سلطانه صلاح الدين وينبغي أن نفرق بينه وبين سميه عز الدين بن شداد (ت ٦٨٤هـ) الذي عاش بعده بخمسين سنة وفي مدينته حلب وألف كتاباً في سيرة سلطانه الظاهر بيبرس بعنوان الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر (مخطوط) وهناك الأديب العالم ضياء الدين بن الأثير (ت ٦٢٨هـ) وزير الملك الأفضل ابن صلاح الدين الذي ألف كتباً عديدة في البلاغة وعلم البيان وهو الأخ الأصغر للمؤرخ عز الدين ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) صاحب كتاب الكامل في التاريخ كذلك نذكر القاضي شمس الدين بن خلكان (ت ٦٨١) صاحب كتاب وفيات الأعيان (مطبوع) والمؤرخ الحموي جمال الدين بن واصل (ت ٦٩٦هـ) الذي كتب موسوعة عن العصر الأيوبي بعنوان مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (مطبوع) الذي كان يريد اهداءه إلى الملك تورنشاه آخر ملوك الأيوبيين ولكنه لما علم بمقتله عدل عن فكرته. كذلك نذكر ابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨هـ) صاحب كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء (مطبوع) وهناك المؤرخ الدمشقي شهاب الدين أبو شامة (ت ٦٦٥هـ) الذي كان معاصراً لابن واصل والذي كتب تاريخاً هاماً لهذا العصر بعنوان (كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية وما وقع من الحروب الصليبية (مطبوع).

أما شعراء هذا العصر فهم كثيرون ونكتفي بالإشارة إلى الشاعر الصوفي المعروف عمر بن الفارض المصري (ت ٦٣٢هـ) ومن قصائده تائيتان كبرى وصغرى وفيها من أغراض الصوفية الشيء الكثير وهناك الشاعر البهاء زهير (ت ٦٥٦) الذي عاش في خدمة الملك الصالح أيوب والشاعر جمال الدين يحيى بن مطروح ت ٦٤٩هـ) وهو من آل صعيد مصر وكانت بينه وبين البهاء

زهير مساجلات شعرية وله قصيدة مشهورة يهاجم فيها الفرنسيين ولويس التاسع. كذلك نذكر الشاعر المصري ابن سناء الملك (ت ٦٠٨هـ) الذي ألف كتاباً عن فنون الشعر المختلفة ولا سيما فن الموشحات تحت عنوان دار الطراز (نشر جودة الركابـي).

وهذه النهضة العلمية والأدبية كان لها مراكز حضارية يشع منها نور العلم والمعرفة مثل مجالس الملوك في قصورهم وهو ما يعرف ببلاط الأمير أو السلطان ومثل ديوان الإنشاء أو ديوان المكاتبات السلطانية الذي لا يعين فيه إلا ذوو الكفاءات والثقافة العالية والصناعة اللفظية ومثل الرباطات والخوانق (جمع خانقاه) وهي أماكن العبادة والتصوف التي صدرت منها القصائد الصوفية المشهورة ومثل المارستانات أو المستشفيات حيث الطب والأطباء والمؤلفات الطبية ومثل المدارس التي كانت تدرس فيها العلوم العقلية والنقلية وقد سبق أن قلنا أن نظام المدارس نظام استحدثه السلاجقة لنشر المذهب السني ومكافحة المذهب الشيعي وتهيئة عقول المسلمين لفكرة الجهاد المقدس ثم سار على هَذه السياسة نور الدين محمود زنكي ثم صلاح الدين وخلفاؤه في مصر والشام مع فارق بسيط هو أن نور الدين محمود كان يميل إلى المذهب الحنفي بينما كان صلاح الدين يميل إلى المذهب الشافعي بصفة خاصة.

ومن المدارس التي أنشأها صلاح الدين في مصر:

١ ـ **المدرسة الصلاحية**: التي بناها بجوار مقام الإمام الشافعي وكانت تقوم بتدريس أصول المذهب الشافعي ومكانها اليوم جامع الإمام الشافعي.

٢ ـ **مدرسة ابن زين التجار**: وهي مدرسة أخرى للشافعية بناها صلاح الدين بجوار الجامع العتيق أو جامع عمرو بن العاص وعرفت أولاً بالمدرسة الناصرية ثم اشتهرت بمدرسة ابن زين التجار نسبة إلى العالم الشافعي أبـي العباس أحمد بن المظفر المعروف بابن زين التجار الذي عكف على التدريس بها مدة طويلة إلى أن مات سنة ٥٩١هـ فعرفت باسمه.

٣ ـ المدرسة القمحية: بناها صلاح الدين بالقرب من جامع عمرو لتدريس الفقه المالكي وأوقف عليها الضياع المغلة للقمح وكانت مرتبات الأساتذة والمعيدين وجرايات الطلبة تدفع قمحاً ولهذا سميت بالمدرسة القمحية.

٤ ـ مدرسة السيوفية: بناها صلاح الدين لكي يدرس فيها مذهب الإمام أبي حنيفة وكانت في الأصل داراً لوزير فاطمي يدعى عباس وكان سوق السيوفيين على بابها فعرفت بمدرسة السيوفية.

٥ ـ بنى صلاح الدين مدارس سنية في خارج مصر في كل من القدس ودمشق وألحق بكل منها مارستانا.

وقد لخص ابن خلكان هذه الأعمال بقوله:

«وكان السلطان صلاح الدين لما ملك الديار لم يكن بها شيء من المدارس فإن الدولة المصرية (يعني الدولة الفاطمية) كان مذهبها الإمامية، فلم يكونوا يقولون بهذه الأشياء فعمر صلاح الدين بالقرافة المدرسة المجاورة للإمام الشافعي رضي الله عنه ـ وبنى مدرسة مجاورة للمشهد المنسوب للحسين بن علي ـ رضي الله عنهما بالقاهرة وجعل دار سعيد السعداء خادم الخلفاء المصريين خانقاه ووقف عليها وقفاً هائلاً كذلك وقف على كل مدرسة عمرها وقفاً جيداً وجعل دار عباس الوزير العبيدي مدرسة للحنفية وأوقف عليها وقفاً جيداً أيضاً وهي بالقاهرة وبنى بالقصر داخل القاهرة بيمارستانا وأوقف له وقفاً جيداً وله بالقدس مدرسة ومارستان وخانقاة ولقد فكرت في نفسي في أمر هذا الرجل وقلت: إنه سعيد في الدنيا والآخرة فإنه فعل في الدنيا هذه الأفعال المشهورة من الفتوحات الكثيرة وغيرها ورتب هذه الأوقاف العظيمة وليس شيء منسوباً إليه في الظاهر منها، فإن المدرسة التي بالقرافة ما تسمى إلا بالشافعي والمجاورة للمشهد الحسيني لا يقولون إلا المشهد والخانقاه لا يقولون إلا سعيد السعداء والمدرسة الحنفية لا يقولون إلا السيوفية والتي بمصر لا يقولون إلا مدرسة ابن زين التجار والتي بمصر

أيضاً مدرسة المالكية وهذه صدقة السر على الحقيقة. وكان صلاح الدين مع هذه المملكة المتسعة والسلطنة العظيمة كثير التواضع واللطف قريباً من الناس رحيم القلب كثير الاحتمال والمداراة وكان يحب العلماء ويقربهم ويحسن إليهم وكان يستحسن الأشعار الجيدة ويرددها في مجالسه ومثال ذلك أنه كان يعجبه قول الشاعر ابن المنجم المغربي الأصل المصري الدار والوفاة في وصف خضاب الشيب:

وما خضب الناس البياض لقبحه　　واقبح منه حين يظهر ناصله
ولكنه مات الشباب فسودت　　على الرسم من حزن عليه منازله

قيل فكان صلاح الدين عند سماعه مات الشباب يمسك كريمته وينظر إليها فيقول: أي والله مات الشباب.

واستمرت عملية إنشاء وتعمير المدارس السنية مستمرة في زمن الأيوبيين سواء في مصر أو الشام ومثال ذلك المدرسة الفاضلية التي بناها القاضي الفاضل للشافعية بمصر وكذلك المدرسة التقوية التي بناها الأمير تقي الدين عمر الأيوبي للشافعية بمصر ثم هناك مدرسة الظاهر غازي بن صلاح الدين بمدينة حلب وقد دفن بتربته الملاصقة لها وهناك المدرسة العادلية التي بناها الملك العادل، أخو صلاح الدين، بدمشق، ودفن بها أيضاً وهي من أعظم مدارس الشافعية بدمشق ودرس وسكن بها جملة من العلماء نذكر منهم ابن خلكان صاحب كتاب وفيات الأعيان وهي الآن مقر المجمع العلمي العربي بدمشق.

وهناك بدمشق أيضاً مدرسة المعظم عيسى بن العادل والمدرسة العزيزية التي بناها الملك العزيز محمد بجوار مقام والده صلاح الدين بالكلاسة شمالي الجامع الأموي بدمشق.

كذلك نذكر المدرسة الكاملية التي بناها السلطان الكامل محمد بن العادل في القاهرة بين القصرين، وكانت تسمى أيضاً بدار الحديث الكاملية لأنها اهتمت بدراسة الحديث النبوي بصفة خاصة وكان شيخها زمن الملك

الصالح العالم الأندلسي أبا الخطاب عمر بن دحية البلنسي (ت٦٣٢هـ)، صاحب كتاب المطرب في أشعار المغرب (مطبوع).

وأخيراً وليس آخراً نذكر المدارس الصالحية التي بناها السلطان الصالح أيوب سنة ٦٤١هـ بخط بين القصرين أيضاً. ولأول مرة في مصر كانت هذه المدرسة تدرس المذاهب السنية الأربعة معاً، ولهذا سميت بالمدارس والزائر لهذه المدرسة الآن لا يجد بها سوى الوجهة الغربية، وهي حافلة بالنقوش والكتابات ويتوسطها باب خشبي تعلوه مئذنة أما بقية المدرسة فقد اندرست واغتصب العامة أرضها وبجوار هذه المدرسة توجد تربة الملك الصالح أيوب التي بنتها له زوجته شجر الدر، وهي تمتاز بدقة وجمال الصناعة الخشبية فيها[(١)] .

إلى جانب المدارس هناك القلاع والحصون التي بناها الأيوبيون وهي كثيرة جداً[(٢)] ويكفي أن نشير إلى أن كل مدينة في العصور الوسطى تتكون من مدينة ومن قلعة قائمة بذاتها ومستقلة بنفسها عن المدينة التابعة لها حتى أنه في كثير من الأحيان كانت المدينة تستسلم للفاتحين وتمتنع القلعة عليهم لقدرتها على الدفاع عن نفسها ولا تعتبر المدينة قد سقطت تماماً إلا بسقوط قلعتها. ومن أهم القلاع التي بناها الأيوبيون قلعة الجبل التي بناها صلاح الدين على ربوة جبل المقطم تشرف منها على القاهرة والفسطاط والنيل والقرافة وكان غرض صلاح الدين أن يتخذها حصناً له ولأسرته من خطر الثورات الداخلية ومن مؤامرات الفاطميين وخلفائهم وكان بدء البناء سنة ٥٧٢هـ (١١٧٦م) وكان المشرف على بنائها وزيره بهاء الدين قراقوش الأسدي الناصري الذي أحاط القاهرة والفسطاط وما بينهما بسور كبير استغل في بنائه بعض أحجار الأهرام الصغيرة بالجيزة كذلك استعان صلاح الدين بعدد كبير

---

(١)راجع (النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، نشر جعفر الحسيني).

(٢)راجع (ابن جبير: تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار المعروفة برحلة ابن جبير نشر حسين نصار الجزء الخاص بالمنشآت العمرانية على عهد الأيوبيين).

من أسرى الحروب الصليبية في عمليات البناء ولا سيما في حفر الخندق المحيط بسور القلعة وهو خندق نقر نقراً في الصخور بالمعاول وقد أبدى الرحالة المعاصر الأندلسي ابن جبير (ت ٦١٣هـ/ ١٢١٧م) إعجابه بهذا العمل ولقد استمرت أعمال البناء في القلعة في عهد الحكام الذين جاءوا بعد صلاح الدين مثل الكامل محمد بن العادل الذي زاد في مساحتها وبنى فيها قصوراً وهو أول من جعلها مقراً لملكه من الأيوبيين.

ولا يزال يوجد نقش من أيام صلاح الدين باقياً على أحد أبواب القلعة (الباب المدرج) يقول فيه «بسم الله الرحمن الرحيم، أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة المجاورة القاهرة بالعزمة التي جمعت نفعاً وتحسيناً وسعة على من التجأ إلى ظل ملكه وتحصيناً، مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف أيوب محيـي دولة أمير المؤمنين في نظر أخيه وولي عهده الملك العادل سيف الدين أبـي بكر محمد، خليل أمير المؤمنين على يد أمير مملكته ومعين دولته قراقوش عبد الله الممالكي الناصري في سنة تسع وسبعين وخمسمائة».

ويلاحظ أن هذه الكتابة مكتوبة بالقلم النسخ الأيوبـي وهذا يؤيد ما هو معروف من استعمال الخط النسخي بدلاً من الكوفي في عهد صلاح الدين أي عند قيام المذهب السني مقام المذهب الشيعي ولا سيما في الأبنية.

ومن القلاع الهامة أيضاً قلعة دمشق. وهذه القلعة قديمة جداً، ولكنها خربت ثم جاء الملك العادل فأعاد بناءها من جديد وفرق أبراجها على أمراء بني أيوب فعمروها من أموالهم، وجددوا مواقع الدفاع فيها على أحدث الطرق الحربية في زمانهم. وما زالت هذه القلعة رابضة بأبراجها ومنشآتها العسكرية إلى الآن. هذا وقد جرت العادة أن يوضع على هذه المنشآت الأيوبية رسم الشعار الذي اتخذه صلاح الدين وهو عبارة عن نسر منفرد الجناحين (مثل شعارنا الآن). أما العلم الأيوبـي فكان من حرير أصفر اللون ومطرز بالذهب وعليه ألقاب السلطان واسمه. وفي ذلك يقول الشاعر

الحسن بن على الشاتاني (نسبة إلى شاتان بديار بكر بالجزيرة) يمدح صلاح الدين:

أرى النصر مقروناً برايتك الصفـرا فسر واملك الدنيا فأنت بها أحرى

وكانت هذه الراية الصفراء العظيمة تتقدم الجيش وفي رأسها خصلة من الشعر تسمى الجاليش وهي عادة تركية انتقلت إلى الأيوبيين والمماليك بعدهم عن طريق السلاجقة. ومن الطريف أن هذه العادة انتقلت أيضاً إلى أقصى المغرب مع الجنود الترك والغز الذين دخلوا في خدمة الموحدين وبني مرين. وقد أعطانا الوزير الغرناطي لسان الدين بن الخطيب وصفاً لهجوم قام به الجيش المريني بقوله:

«ثم أردفوا بالناشبة ورماة القسي العربية، فزحفت رايتهم على شأن غز المشارقة من المزمار والطبل وحمل جمة الشعر في أعلا سنان الراية».

لم يقتصر فضل الأيوبيين على الانتصارات العسكرية والمنشآت العمرانية بل شمل فضلهم أيضاً النواحي الاقتصادية بصفة عامة.

فالزراعة نمت وازدهرت نتيجة للقنوات والمصارف التي حفرت في أيامهم بمصر فروت مساحات شاسعة من الأراضي التي لم تكن تصلها مياه من قبل. أما في الشام فقد ازداد عدد النواعير (السواقي الضخمة) التي كان نظام الري يقوم عليها هناك زيادة كبيرة على عهد الأيوبيين. وقد انتقلت كلمة ناعورة إلى اللغات الأوروبية باسم Noria.

وكانت النتيجة أن ازداد انتاج بعض المحاصيل الزراعية في مصر والشام وصار يصدر ما يفيض منها إلى الخارج مثل السمسم والأرز والسكر الذي دخل أوروبا لأول مرة وصار يسمى بنفس الاسم تقريباً. ويقال إن الأمبراطور فردريك الثاني هو أول من أدخل صناعة السكر في أوروبا عن طريق صقلية ١٢٣٩م، وإن كنا لا نشك أيضاً في احتمال انتقال السكر إلى أوروبا عن طريق المغرب والأندلس حيث عثر الأثريون هناك على مصانع عديدة للسكر يرجع تاريخ أقدمها إلى عهد المرابطين في القرنين الخامس والسادس الهجري

ـ (١١، ١٢ ميلادي) كذلك ازدهرت التجارة في عهد الأيوبيين، وقد ساعد على نموها الحروب الصليبية نفسها التي كانت لها طبيعة اقتصادية إلى جانب طابعها الديني والحربي.

ومن ثم قام التجار المسيحيون ولا سيما تجار الجمهوريات الإيطالية مثل جنوا وبيزا والبندقية بدور الوسيط في نقل البضائع الشرقية في سفنهم إلى الموانى الأوروبية. ولقد استفادت مصر والشام من هذه العمليات التجارية لوقوعهما في الطريق التجاري القادم من الهند وفارس والعراق وشبه جزيرة العرب. فكان الحكام الأيوبيون يتقاضون رسوماً على الصادر والوارد من البضائع المارة في بلادهم.

ولقد أذن الأيوبيون لبعض التجار المسيحيين بالإقامة في بعض المدن والثغور المصرية والشامية. فكانت هناك جالية عند قنطرة الموسكي بالقرب من القاهرة منذ أيام صلاح الدين، كما كانت هناك جاليات في الإسكندرية ودمشق وبيروت وحلب. وكان لهذه الجاليات فنادق خاصة ينزلون فيها مع دوابهم وبضائعهم. وكذلك كان لهم قناصل في هذه المدن الإسلامية لحماية مصالحهم أمام السلطان الأيوبي حسب المعاهدات التجارية المبرمة بين الطرفين. وكان التجار المسيحيون بدورهم يرون أن من مصلحتهم عدم مضايقة التجار المسلمين، فسمحوا لهم أيضاً بدخول الموانى الصليبية في الشام، كما ضربوا عملة خاصة مثل الدينار الصوري(١) . الذي نقشوا عليه آية قرآنية باللغة العربية كي يقبل المسلمون على التعامل به. ويقال إن البابا أنوسنت الرابع حرم استعماله لهذا السبب. وعندما زار الملك لويس التاسع الإمارات الصليبية في الشام بعد حملته الفاشلة على مصر، تدخل في هذه المسألة واستطاع بنفوذه أن يغير الآية القرآنية بعبارة مسيحية تكتب باللغة

(١)الدينار الصوري عملة ذهبية سكها البنادقة في مدينة صور التي كانت مركزاً تجارياً هاماً للصليبيين، بينما يسميه القلقشندي الدينار الصوري (بفتح الواو أي الشخص) لنقش صور أصحابها من ملوك الإفرنج على وجه هذه العملة.

العربية على الدينار الصوري كي يقبل المسلمون على التعامل به في الشام والعراق.

ومن أهم السلع التجارية التي كان الشرق يستوردها من أوروبا الخشب والمعادن والرقيق، بينما كان الشرق يصدر البضائع التي أشرنا إليها آنفاً وكذلك تجارة التوابل أو البهار التي عرفت باسم الكارم وكان لها تجار تخصصوا في بيعها وعرفوا بتجار الكارم أو الكارمية أو الأكارم. وقد اختلف الرأي حول أصل هذه الكلمة فالبعض يرى أنها تعني العنبر الأصفر، والبعض الآخر يرى أنها تحريف لكلمة كاتم وهي اسم إحدى بلاد جنوب أفريقيا شمال شرق بحيرة تشاد وتنسب إليها جاليات تجارية في مصر واليمن. وقال فريق ثالث إنها تعني أكارم التجارة في عدن. وكيفما كان الأمر فإن هذه الكلمة أطلقت على تجارة التوابل أو البهار.

ولقد بلغ من شدة اندماج التجار المسيحيين في الحياة الشرقية انهم قلدوا المسلمين في حياتهم الخاصة، فأطلقوا لحاهم، ولبسوا الملابس الشرقية، وبنوا منازلهم وكنائسهم على الطراز الشرقي، واتخذوا الحريم والجواري والراقصات. . . الخ.

كل هذا كان يحدث حتى في أوقات الحروب بين الطرفين، فالتجار كانوا يروحون ويجيئون ولا يمس أحد منهم بأذى. وقد نص على ذلك الرحالة ابن جبير عند قوله: «واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الفرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكا كذلك، وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحد منهم أحد ولا يعترض. . . وأهل الحرب مشتغلون في حربهم، أما الرعايا والتجار فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلماً أو حرباً».

وهكذا ازدهرت التجارة والصناعة في عهد الأيوبيين، واستفادت أوروبا الشيء الكثير من هذه النهضة. فمن دمشق والموصل وصل أوروبا المنسوجات الحريرية التي عرف هناك باسم Damask (دمشق)، musulin

(تحريف لموصل). ومن فارس وصل إلى أوروبا السجاجيد العجمي (أي الفارسية أو الإيرانية)، ولعل كلمة Tapis أو Tapiz مشتقة من كلمة تبريز وهي من أشهر المدن الفارسية.

وصفوة القول إن الدولة الأيوبية تعتبر من الدول الإيجابية الفعالة التي قامت بجليل الأعمال في مختلف الميادين السياسية والعسكرية والاقتصادية والعلمية ولهذا خلدها التاريخ.

الفصل الرابع

انتقال السلطنة إلى المماليك البحرية الصالحية

يروي جوانفيل قصة غريبة خلاصتها أن أمراء المماليك بعد أن قتلوا سلطانهم تورانشاه اقترحوا في مجلس المشورة أن يمنح الملك لويس التاسع سلطنة مصر، وأنه لولا علمهم بتعصبه للديانة المسيحية وخوفهم من إجباره لهم على اعتناقها، لنفذوا هذا الاقتراح ولوجدوا قبولاً من الملك نفسه[1]. ومن الواضح أن هذه القصة مختلقة من أساسها، ولعلها مستوحاة من الاضطراب الذي حل بالمعسكر الإسلامي، وحيرة أمراء المماليك فيمن عساه يكون سلطاناً بعد أن قتل تورانشاه في سرعة مفاجئة. وكان من الطبيعي أن يطمع كل أمير منهم في سلطنة مصر، ثم هناك أيضاً ملوك الأيوبيين بالشام وعلى رأسهم الناصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي، وقد تولى مملكة حلب بعد وفاة أبيه سنة ١٢٣٧م (٦٣٤هـ). إذ أضحى من الصعب على أولئك الملوك الأيوبيين أن يقبلوا استئثار مماليك آبائهم بمصر بعد قتلهم سلطانها الشرعي، ومن الطبيعي أن يرى كل منهم في نفسه الشرعية الكافية لأن يلي السلطنة بعد تورانشاه.

وكيفما كان الأمر فيبدو أن المماليك قرروا حل العقدة التي نجمت عن

---

(١) انظر Joinville: History of saint. Louis tr. by Evaans p. 109

شغور العرش المصري فجأة بإقامة شجر الدر أم خليل بن الصالح أيوب في السلطنة، مبالغة منهم في احترام الأسرة المالكة الذاهبة، وحرصاً على عدم الظهور بمظهر الخارج عليها. ثم عرضوا الأتابكية أو نيابة السلطنة على عدد من الأمراء، ولم يرد اسم الأتابك السابق فارس الدين أقطاي من بين أسماء المرشحين، ولعل مرجع ذلك أنه أصبح من المغضوب عليهم، أو أن المماليك خشوا قوته وشوكته واستئثاره بأمور السلطنة إذا قام في الأتابكية إلى جانب شجر الدر. وانجلى الموقف بتعيين أيبك التركماني(١) أحد أمراء البحرية الصالحية لمنصب الأتابكية، وأدى ذلك بطبيعة الحال إلى عداء بين أقطاي وأيبك سوف تظهر نتيجته فيما بعد.

وأخذت البيعة للسلطانة الجديدة في مايو سنة ١٢٥٠ م (١٠ صفر سنة ٦٤٨ هـ) باعتبارها أم ولد هو خليل شجر شاه(٢) الذي توفي في حياة أبيه. وحرصت شجر الدر على إظهار ذلك في علامتها على الأمور والمراسيم، فكتبت «والدة خليل»، وجعلت صيغة الدعاء على المنابر: «احفظ اللهم الجهة الصالحية ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين. أم خليل، المستعصمية، صاحبة الملك الصالح». كذلك نقش اسمها على السكة بالعبارة الآتية: «المستعصية الصالحية ملكة المسلمين والدة خليل أمير المؤمنين»(٣).

---

(١)لفظ أيبك يتركب من كلمتين تركيتين هما آي ومعناها القمر، وبك ومعناها الأمير. فمعنى الاسم الأمير القمر (أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٩) وأيبك كان في الأصل مملوكاً لأولاد التركماني وهم بنو رسول الذين استقلوا باليمن، ولهذا عرف بأيبك التركماني ثم انتقل إلى خدمة الملك الصالح أيوب. وبنو رسول غسانية أتوا من بلاد التركمان إلى بغداد في خلافة المستنجد (ت ٥٦٦هـ) فنسبهم من يعرفهم إلى غسان، ونسبهم من لا يعرفهم إلى التركمان. راجع (الخزرجي: العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية جـ ص ٢٧ ـ ٢٨).

(٢)أبوشامة: الذيل على الروضتين ص ١٩٦.

(٣)توجد بالمتحف البريطاني عمل ذهبية ضربت في القاهرة على عهد شجر الدر بتاريخ ٦٤٨ هـ تحمل ألقاب الملكة التي ذكرناها.

ويروي المؤرخ الإنجليزي لين بول في كتابه تاريخ مصر في العصور الوسطى أن كلمة المستعصمية السالفة الذكر، تدل على أن شجر الدر بدأت جارية للخليفة العباسي المستعصم (١٢٤٢ ـ ١٢٥٨م) قبل أن يشتريها الملك الصالح أيوب. غير أن صمت المراجع العربية من هذه المسألة يحمل على الاعتقاد أن شجر الدر ربما أقرت هذه النسبة في سكتها وخطبتها ترضية للخليفة العباسي كي يعترف بشرعية حكمها. وثمة مسألة أخرى تدعو إلى الانتباه في هذا الصدد، وهي أنه كانت توجد بالعراق جارية أخرى تسمى شجرة الدر، كانت جارية للخليفة العباسي الناصر لدين الله (١١٨٠ ـ ١٢٢٥م)، مقربة إليه، وكانت تكتب خطاً جيداً وتقرأ له المطالعات الواردة عليه لما تغير نظره، ويملي عليها الأجوبة، وتوفيت سنة ١٢٣٦م (٦٣٤هـ)، ودفنت في تربة الخلاطية ببغداد[١]. فلعل المؤرخ لين بول قد التبس عليه الأمر بين شجر الدر المصرية وشجرة الدر العراقية.

ومهما يكن من شيء فقد قبضت شجر الدر على زمام الأمور في مصر بيد من حديد، ولم يكن ابن إياس مغالياً حين وصفها بأنها امرأة صعبة الخلق، شديدة الغيرة، قوية البأس، ذات شهامة زائدة، وحرمة وافرة، سكرانة من خمرة التيه والعجب». وحق لها أن تكون ذلك كله فهي صاحبة الفضل في إخفاق حملة صليبية كبيرة على مصر، وهي قد أتت إلى العرش اعترافاً من المعاصرين بذلك الفضل. وإذا استثنينا رضية الدين سلطانة دلهى (١٢٣٦ ـ ١٢٤٠م)، تعتبر شجر الدر أول ملكة مسلمة جلست على عرش مملكة إسلامية. والواقع أن ابن إياس اعتبرها جزءاً من الدولة الأيوبية، ولكن مما لا شك فيه أن الدولة الأيوبية انتهت بمقتل تورانشاه ولو كان هناك أي رغبة في الإبقاء على الأيوبيين، لما تعسر على المماليك أن يجدوا من رجال البيت الأيوبي بالشام من يصلح للقيام بالسلطنة في القاهرة.

وأول عمل اهتمت به شجر الدر هو تصفية الموقف مع الفرنج، وإنهاء

---

(١)ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص ٩٧.

المفاوضات التي بدأت معهم على عهد تورانشاه لترحيلهم عن البلاد المصرية. فلم يلبث المفاوض المصري وهو الأمير حسام الدين أبو علي الهذباني، أن اتفق مع الملك لويس التاسع على تسليم دمياط، وإخلاء سبيله وسبيل من معه من كبار الأسرى لقاء فدية قدرها ثمانمائة ألف دينار يدفع نصفها قبل رحيله، ويدفع النصف الآخر بعد وصوله عكا. وقامت ملكة فرنسا مرجريت دي بروفانس التي رافقت زوجها في تلك الحملة، وبقيت بدمياط مدة وجود الصليبيين بالديار المصرية، بجمع المبلغ المطلوب لدفع نصف الفدية. ثم أبحرت إلى عكا ومعها ابنها الذي ولدته في دمياط وأسمته جان تريستان أي وليد الأحزان. ويروي جوانفيل أن مدينة دمياط سلمت للمصريين في ٦ مايو سنة ١٢٥٠ وأن بعض المماليك قاموا بأعمال السلب والنهب في معسكر الفرنج مما حمل لويس التاسع على أن يرسل راهباً اسمه راؤول إلى الأمير اقطاي يحتج لديه عما ارتكبه المماليك من فظائع، وأن أقطاي أجابه قائلاً: «أيها الأخ راؤول، قل للملك إنني لا يمكنني إصلاح ما فسد، وإن قلبي لمفعم بالأسى، وحذره بالنيابة عن نفسي بألا يبدي أي تذمر عما يجيش في نفسه ما دام في أيدينا وإلا كان مصيره الموت». وهذه العبارة تدل على أن أقطاي لم يكن راضياً عما تطور إليه الموقف من سلطنة شجر الدر وأتابكية أيبك، ثم أنه لم يكن مبالغاً فيما قال، لأن حزباً من الأمراء وعلى رأسه الأمير حسام الدين أبو علي الهذباني، رأى منذ البداية أن من المصلحة للمسلمين أن تحتفظ مصر بالملك لويس وألا تطلق سراحه نظراً لإطلاعه على عورات المسلمين، ولمركزه الديني العظيم في النصرانية، ولأن دمياط قد صارت فعلاً في أيدي المسلمين. ولكن شجر الدر وبعض قادة الجيش أقنعوا ذلك الحزب المعارض بضرورة احترام العهد الذي أخذوه على أنفسهم.

ثم أبحر لويس التاسع وأتباعه إلى عكا في ٧ مايو سنة ١٢٥٠م (صفر سنة ٦٤٨هـ)، وبذلك انتهت الحملة الصليبية التي اقترنت حوادثها بنهاية الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك الأولى في مصر.

أخذت شجر الدر تتقرب إلى الخاصة والعامة، وتعمل على ارضائهم بشتى الوسائل، ولا سيما المماليك البحرية الذين أغدقت عليهم الأموال الطائلة والإقطاعات الواسعة والرتب العالية. ولكن على الرغم من ذلك، فإن المصريين عموماً أنفوا من قيام امرأة في السلطنة، وقاموا بمظاهرات واضطرابات عديدة في القاهرة حتى اضطرت الحكومة إلى غلق أبواب المدينة منعاً لتسرب أنباء الاضطرابات إلى بقية البلاد. ويبدو أن رجال الدين كانوا من وراء هذه الحركة المعارضة بدليل ما رواه السيوطي من أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام وهو أكبر زعيم ديني في ذلك الوقت كتب كتاباً حول ما قد يبتلى به المسلمون بولاية امرأة. وهو يستند في هذا إلى حديث نبوي يقول: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»[1] .

وانتهز الملك الناصر يوسف صاحب حلب وحفيد صلاح الدين، هذه الفرصة السانحة وزحف بجيوشه نحو دمشق فاستولى عليها وعلى غيرها من المدن الشامية بدون حرب ثم واصل زحفه جنوباً نحو مصر.

وخاف المماليك على دولتهم الناشئة من منافسة الأيوبيين فكتبوا إلى

---

(١)السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ص ٣٤. والشيخ عز الدين بن عبد السلام الشافعي ولد سنة ٥٧٧هـ ودرس بدمشق على أئمة عصره مثل ابن عساكر، وولي الخطابة والإمامة بالجامع الأموي بدمشق، وتتلمذ له أبو شامة وظل بدمشق إلى أن استعان صاحبها الملك الصالح إسماعيل بالفرنج فأنكر عليه الشيخ عز الدين هذا الفعل وتوجه إلى مصر سنة ٦٣٩هـ فتلقاه سلطانها الملك الصالح أيوب وولاه خطابة جامع عمرو بن العاص. ولما بنى الصالح أيوب مدرسته بين القصرين بالقاهرة، فوض إليه تدريس المذهب الشافعي بها، وظل متمتعاً بالمنزلة الرفيعة حتى وفاته بمصر سنة ٦٦٠هـ وقيل إنه لما مرت جنازته تحت القلعة وشاهد السلطان الظاهر بيبرس كثرة الخلق الذين معها قال لبعض خواصه: اليوم استقر أمري في الملك لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس اخرجوا عليه لانتزع الملك مني. راجع (تاج الدين السبكي: طبقات الشافعية الكبرى جـ ٥ ص ٨٠ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر جـ٣ ص ٢٢٤، السيوطي حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ص ٣٤).

الخليفة العباسي المستعصم يطلبون منه تأييد سلطنة شجر الدر، وكان غرضهم من وراء ذلك تدعيم سلطانهم بسياج من التأييد الشرعي. غير أن الخليفة عاب عليهم إقامة امرأة في السلطنة، وكتب إليهم قائلاً: «إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فاعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً». ولما وصل خطاب المستعصم إلى القاهرة، اقتنع أمراء المماليك بخطأ تصرفهم وقالوا: «لا يمكننا حفظ البلاد والملك لامرأة، ولا بد من إقامة رجل للمملكة تجتمع الكلمة عليه». فأشاروا على شجر الدر بأن تتزوج الأتابك أيبك التركماني، وتتنازل له عن العرش، فقبلت ذلك وخلعت نفسها من السلطة في يوليو سنة ١٢٥٠م بعد أن حكمت ثمانين يوماً.

والواقع أن سلطنة شجر الدر على مصر كانت وليدة للظروف التي أحاطت بمصر في ذلك الوقت، ونتيجة لموافقة جماعة من زملائها أو خشداشيتها المماليك، وليست نتيجة لموافقة الشعب أو رجال الدين أو الخلافة العباسية، هذا فضلاً عن أنها كانت مسألة لا يقرها الشرع ولا تستسيغها التقاليد الإسلامية.

تولى عرش مصر السلطان أيبك التركماني وتلقب باللقب السلطاني «الملك المعز». ولم يكن أيبك في الواقع أكبر أمراء المماليك سناً، أو أقدمهم خدمة، أو أقواهم مكانة ونفوذاً، إذ كان يوجد من هم أكبر وأقدم وأقدر منه مثل فارس الدين أقطاي والظاهر بيبرس. وهذه الحالة الاستثنائية في نظام التدرج المملوكي جعلت بعض المؤرخين مثل أبي المحاسن في كتابه النجوم الزاهرة، يتهم أيبك بضعف النفوذ والشوكة، وأن الأمراء لم ينتخبوه إلا لكي يتمكنوا من عزله متى شاءوا. كذلك يذهب المستشرق بلوشيه Blochet إلى أن أيبك ظل يحكم رغم اعتزال شجر الدر، بصفة زوج الملكة مع أنه صار سلطاناً يحكم عن نفسه. غير أن الحوادث دلت على أن أيبك رجل ممتاز بصفات السياسة والحزم والشجاعة، ولم يكن ضعيف الشخصية كما يصوره بعض المؤرخين. ويبدو أن أبا المحاسن نفسه قد شعر بالخطأ الذي وقع فيه حينما وصف أيبك بالضعف في كتابه النجوم الزاهرة،

إذ أنه عاد واستدرك ذلك في كتابه الآخر: «المنهل الصافي»، فمدح أيبك فيه، ووصفه بالديانة والصيانة والعقل والسياسة، وأنه أنقذ دولة المماليك من خطر محقق[1] .

وإذا تناولنا المشاكل والصعاب التي واجهت السلطان أيبك، نجد أنها تتمثل في تهديدات الأيوبيين والصليبيين في الخارج، وفي ثورات الأعراب في الداخل، ثم في خطر زملائه المماليك في داخل البلاد وخارجها.

١ ـ الخطر الأيوبي والصليبي:

كان الخطر الأيوبي ممثلاً في الشام وفي الأمراء الأيوبيين هناك وعلى رأسهم الملك الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق. وحاول أيبك هدم هذه المعارضة الأيوبية بإقامة أمير من ذرية بني أيوب إلى جانبه، واستقر الرأي على تولية المدعو الأشرف موسى[2] ، وهو طفل في نحو السادسة، ليكون شريكاً لأيبك في السلطنة، فصار يخطب بإسمهما على منابر مصر وأعمالها، وضربت لهما السكة على الدنانير والدراهم. غير أن هذه الحيلة لم تدخل على الأيوبيين لأنهم يعلمون تماماً أن الأشرف موسى لم يكن له غير الاسم، على حين كانت الأمور جميعها بيد أيبك. عندئذ أعلن أيبك أن البلاد تحت سلطة الخلافة العباسية صاحبة السلطان القديم عليها، وأنه نائب الخليفة المستعصم بها. وبهذه الحيلة الثانية حاول أيبك هدم المقاومة الأيوبية غير أنه لم يكتف بذلك علماً منه أن الناصر يوسف لن يرجع عن عزمه في سهولة، فأخذ يستعد لمحاربته.

---

(١)أبو المحاسن: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي جـ١ لوحة ٢ (مخطوط بدار الكتب المصرية).

(٢)وهو الأشرف موسى بن يوسف بن المسعود بن الكامل، وكان جده المسعود صاحب اليمن المعروف بأقيسيس المتوفى سنة ١٢٢٨م، وعاش أبوه في كنف الصالح أيوب حتى توفى عن هذا الطفل الصغير موسى. (المقريزي: السلوك جـ١ ص ٣٦٩).

أما الملك الناصر يوسف، فإنه رأى لكي يضمن النجاح لحملته على مصر، أن يضم إلى جانبه الملك لويس التاسع المقيم في عكا، وعرض عليه مقابل ذلك تسليمه بيت المقدس الذي كان تحت امرة الأيوبيين في ذلك الوقت.

وعلم أيبك بأنباء هذه المفاوضات، فأرسل إلى الملك لويس تهديداً بقتل أسرى الصليبيين المقيمين بمصر إن قام بأي عمل عدائي ضده. وفي الوقت نفسه أبدى له استعداده لتعديل معاهدة دمياط، والتنازل له عن نصف الفدية المقررة، إن تحالف معه ضد الناصر يوسف. غير أن الملك لويس التاسع فضل أن يقف بين الفريقين موقف الحياد، وأن يستغل نزاعهما لصالحه.

ولما يئس الناصر يوسف من مساعدة لويس التاسع، زحف بجيوشه نحو مصر، وسارع أيبك للقائه، ولكنه خشي في الوقت نفسه أن يقوم الصليبيون بهجوم مفاجىء على مصر، فأمر بهدم ثغر دمياط مجازهم المفضل، فوقع الهدم في أسوارها يوم الاثنين ١٨ شعبان سنة ٦٤٨هـ (أواخر سنة ١٢٥٠م) حتى خربت كلها ولم يبق منها سوى الجامع وأخصاص من القش على شاطىء النيل يسكنها جماعة من الصيادين وضعفاء الناس وسموها المنشية(١).

ثم التقى المماليك بالأيوبيين في معركة عامة عند بلدة العباسة بين مدينتي بلبيس والصالحية، في ٣ فبراير سنة ١٢٥١م، انتصر فيها الملك الناصر أول الأمر، ولكن فرقة من مماليكه، وهم العزيزية(٢)، خذلوه وانضموا

(١)المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣٧٢. واستمرت دمياط على هذا الحال حتى عمرها السلطان بيبرس البند قداري من جديد سنة ١٣٧١م (٦٦٩هـ) راجع (ابن إياس: المرجع السابق جـ ١ (ص ٨٧، ١١١).

(٢)العزيزية نسبة إلى العزيز محمد والد الناصر يوسف، وقد انتقلوا إلى خدمته بعد وفاة أبيه سنة ١٢٣٦م.

إلى المماليك البحرية لعلة الجنسية على قول المراجع المعاصرة، ففر الناصر ومن معه من أبناء البيت الأيوبي إلى الشام منهزمين، بعد أن فقدوا عدداً كبيراً من القتلى والأسرى. وقرر أيبك أن يواصل زحفه نحو الشام للقضاء على مراكز المقاومة الأيوبية. ولكي يضمن النجاح لمشروعه، حاول أن يضم لويس التاسع إلى جانبه، ووعده ببيت المقدس بمجرد استيلائه عليه من الملك الناصر يوسف. وفضل لويس التاسع، بعد أن رأى انتصار الجانب المصري أن يستجيب لعروض أيبك ويترك سياسة الحياد.

وفي أوائل مايو سنة ١٢٥٢م اتفق أيبك ولويس التاسع على القيام بحملة مشتركة لطرد الناصر يوسف من الشام. وكانت الخطة المتفق عليها هي أن يستولي لويس التاسع على يافا، بينما يحتل أيبك غزة، ومن هناك يتم الاتصال بين الجيشين في منتصف مايو سنة ١٢٥٢م، للقيام بهجوم عام مشترك على ولايات الأيوبيين(١) . وتنفيذاً لهذه الخطة، احتل الملك لويس مدينة يافا دون مقاومة، بينما تقدم المماليك بقيادة أقطاي نحو غزة، غير أن الملك الناصر يوسف، الذي علم بأخبار هذا التحالف، سبقهم إلى احتلالها بقوة حربية كبيرة، فاستطاع بهذا العمل الجريء أن يحول دون اتصال المماليك بحلفائهم الصليبيين، ويفسد عليهم خطتهم المشتركة.

واستمرت جيوش المماليك في الصالحية، وجيوش الأيوبيين في غزة، كل منهما تتحفز بالأخرى، إلى أن أنقذ الموقف أخيراً الخليفة العباسي المستعصم عندما توسط لدى الفريقين، وتمكن رسوله نجم الدين البادراني(٢) من عقد الصلح بينهما في إبريل سنة ١٢٥٣ م (٦٥١ هـ) على أن يكون لمماليك مصر وجنوب فلسطين بما في ذلك غزة وبيت المقدس، بينما تظل البلاد الشامية في أيدي أصحابها من أبناء البيت الأيوبي. وهكذا فشل لويس التاسع في تحقيق آماله بامتلاك بيت المقدس، ولم يستطع بعد ذلك البقاء في

---

(١)راجع : King op. cit. p. 250.

(٢)البادراني نسبة إلى قرية بادران بأصبهان.

الشام خصوصاً بعد وفاة والدته الملكة بلانش Blanche (القشتالية) التي كانت تحكم فرنسا في غيابه كوصية على العرش، فاضطر لويس التاسع إلى الرجوع إلى بلاده سنة ١٢٥٤ م.

على أنه ينبغي أن نلاحظ هنا أن تدخل الخليفة العباسي في ذلك الوقت، لم يكن هدفه إيقاف التغلغل الصليبي في شؤون الشرق العربي فحسب، بل كان غرضه أيضاً توحيد الجهود لتكوين جبهة إسلامية أمام خطر جديد أشد من الخطر الصليبي، وهو الخطر المغولي الذي كانت جحافله قد اجتاحت الحدود الإسلامية الشرقية بقيادة جنكيزخان وقضت على الدولة الخوارزمية التي كانت بمثابة الترس المانع الحامي لجميع الدول الإسلامية في غرب آسيا والشرق الأدنى من هجمات المغول وغيرهم من الآسيويين. وهكذا انتهت العقبة الأولى في تأسيس الدولة المملوكية الناشئة وهي النزاع بين المماليك وملوك البيت الأيوبي.

٢ ـ ثورة الاعراب ضد حكم المماليك:

العقبة الثانية التي اعترضت السلطان أيبك، هي الثورة الشعبية التي قام بها الاعراب أو العربان في مصر وذلك في سنة ١٢٥٣م.

من المعروف أن القبائل العربية التي استوطنت مصر بعد الفتح العربي، أخذت تتحول تدريجياً إلى شعب زراعي مستقر ولا سيما في أقاليم الصعيد والشرقية، وأطلق عليهم اسم العرب المزارعة. وكان هؤلاء الأعراب يقومون بفلاحة الأرض على مقربة من القرى القديمة الآهلة بالفلاحين من أهالي البلاد. غير أنه يلاحظ أن هؤلاء الاعراب كانوا يتمتعون بمركز اجتماعي أعلا مرتبة من الفلاحين بسبب المساعدات الحربية التي كانوا يؤدونها للدولة في وقت الحرب ولا سيما إبان الحروب الصليبية. وكان مشايخ العربان تقع عليهم تبعة حفظ النظام في القرى والأرياف، كذلك كانت مساهمتهم في الإنتاج الزراعي ودفع الخراج كبيرة نسبياً.

وكان تعسف أمراء المماليك في تحديد أثمان المنتجات الزراعية واحتكارها والتلاعب في أسعارها أحياناً، من الأسباب التي دفعت بهؤلاء المزارعين العرب إلى القيام بثورات متعددة طوال العصر المملوكي. وهذه الثورات عرفت في الكتب المعاصرة باسم «فساد العربان»، وكانت تنتهي في العادة بهزيمة العرب نظراً لبراعة المماليك في فنون القتال.

واستخدم المماليك في قمع تلك الثورات وسائل متعددة تنطوي على القسوة والقهر مثل: التوسيط، والتسمير، والمعاصر، ونشر الأجسام، وسلخ الجلود، ودفن الأحياء، وتعليق رؤوس القتلى في رقاب نسائهم، إلى غير ذلك من وسائل القتل والتعذيب المعروفة في العصور الوسطى شرقاً وغرباً.

وقد أدت هذه السياسة إلى هجرة عدد كبير من المزارعين إلى المدن الكبرى بغية التسول أو السرقة أو الاشتراك في المنازعات والاضطرابات الداخلية التي كانت بين أمراء المماليك. وهؤلاء كانوا يسمون بالحرافيش وبالزعر أو زعر العامة ويبدو أن هذه الألفاظ كانت مشرقية بحتة بدليل قول المؤرخ الأندلسي لسان الدين ابن الخطيب في سب أحد ملوك غرناطة: «وكان حرفوشاً على عرف المشارقة»[١] .

على أنه يلاحظ كذلك أن هذه الثورات العربية، إلى جانب دوافعها الاقتصادية، كانت لها أيضاً أهداف سياسية وهي إلغاء حكم المماليك وإعادته إلى العرب الأحرار أصحاب السيادة القديمة على البلاد.

ويبدو أن هذا الهدف السياسي هو الذي أثار مخاوف المماليك ودفعهم إلى اتباع سياسة العنف والقسوة في قمع تلك الثورات خوفاً على سلطانهم. وأول وأخطر ثورة قام بها الأعراب أيام المماليك، هي الثورة التي قاموا بها في عهد السلطان أيبك التركماني سنة ١٢٥٣م (٦٥١هـ) وأسباب هذه الثورة ترجع إلى عوامل سياسة واقتصادية كما أسلفنا فالمماليك منذ أن انتصروا على

---

(١)ابن الخطيب: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، ص ٢٠ نشر أحمد مختار العبادي.

الأيوبيين في موقعة العباسة وتدخلت الخلافة في صالحهم اعتقدوا أن البلاد وما فيها صارت لهم ولا منازع فبالغوا في الفساد والاستهتار وزيادة الضرائب إلى درجة أن بعض المؤرخين أمثال المقريزي وأبـي المحاسن فضلوا عليهم الصليبيين وقالوا إن الفرنج لو ملكوا مصر ما فعلوا فعلهم.

والظاهر أن حركة الاستياء والتذمر لم تقتصر على العناصر العربية فقط بل صارت حركة شعبية عامة بدليل قول أبـي المحاسن «أن أهل مصر لم يرضوا بسلطان مسه الرق، وظلوا إلى أن مات السلطان أيبك وهم يسمعونه ما يكره حتى في وجهه إذا ركب ومر بالطرقات ويقولون لا نريد إلا سلطاناً رئيساً مولوداً على الفطرة.

وتزعم تلك الثورة الشعبية شريف علوي وهو حصن الدين بن ثعلب الذي طمع في السلطنة وصرح بأن ملك مصر يجب أن يكون للعرب وليس للعبيد الأرقاء، وأقام دولة عربية مستقلة في مصر الوسطى وفي منطقة الشرقية بالوجه البحري وكانت قاعدة هذه الدولة بنواحي الفيوم في بلدة تعرف بذروة سريام أو ذروة الشريف (نسبة إليه) وتقع بين النيل وترعة المنهى التي هي الآن بحر يوسف.

واتصل الشريف حصن الدين بالملك الناصر يوسف الأيوبـي صاحب الشام يطلب مساعدته في محاربة أيبك ولكن الناصر يوسف لم يكن في وسعه محاربة أيبك في ذلك الوقت إذ كان رسل الخليفة المستعصم قد تدخلت لحسم النزاع بينهما.

وكان العرب يومئذ في كثرة من الرجال والخيل والمال بفضل مشاركتهم في حرب الصليبيين فكونوا جيشاً كبيراً والتفوا حول زعيمهم حصن الدين وحلفوا له واضطر السلطان أيبك أن يرسل حملة تأديبية على هذه الثورة. ومن العجب أن يسند قيادتها إلى منافسه أقطاي، وذلك فيما يبدو لمهارته الحربية.

وخرج أقطاي من القاهرة بخمسة آلاف فارس من خيرة المماليك،

وتوجه إلى الشرقية حيث كانت أكبر مظاهر العصيان وعلى الرغم من قلة عدد المماليك بالقياس إلى العرب تغلب المماليك بفضل تفوقهم الحربي ومهارة قائدهم اقطاي وتهدمت المقاومة العربية في بلبيس سنة ١٢٥٣ غير أنها بقيت على حالها في مصر الوسطى، حيث ظل حصن الدين طليقاً، وأقام حكومة مستقلة هناك، ولم يتمكن أيبك ومن جاء بعده من سلاطين من القبض عليه إلى أن خدعه السلطان بيبرس البندقداري وقبض عليه بعد أن أمنه وشنقه بالإسكندرية[١] وكيفما كان الأمر في نهاية الأمير حصن الدين فالمهم هنا أن أيبك تغلب على أحد الـ·· [illegible] نيام دولة المماليك واستقرارها في مصر.

٣ ـ خطر زملائه المماليك:

أما العقبة الثالثة التي اعترضت حكم أيبك وهددت كيان الدولة الناشئة فهي خطر زملائه المماليك البحرية وزعيمهم فارس الدين أقطاي وكان أيبك يتوجس خيفة من هذه الطائفة لعلمه بقوتها وخطرها، ومن ثم أخذ يعمل على تقوية نفسه، فأنشأ فرقة من المماليك عرفوا بالمعزية نسبة إلى لقبه (الملك المعز) كما عين مملوكه قطز المعزي نائباً للسلطنة بمصر ثم لم يلبث أن أخرج المماليك البحرية من ثكناتهم بجزيرة الروضة وعزل الملك الأيوبي

---

(١)راجع (شهاب الدين العمري: التعريف بالمصالح الشريف ص ١٨٨ ويروي المقريزي (السلوك جـ ١ ص ٣٨٨) رواية أخرى تختلف عن رواية العمري يقول فيها إن الشريف حصن الدين طلب من أيبك الأمان فأمنه ووعده بإقطاعات له ولأصحابه فانخدع الشريف واتجه هو وأصحابه إلى القاهرة فشنق الجميع وبعث بالشريف إلى الإسكندرية فحبس بها وقد علق بولياك على هذه الرواية بقوله ويظهر أن الرواية التي سردها المقريزي عن استئصال شأفة العرب في عهد أيبك لم تكن إلا طمساً للحقيقة كانت غايته منها تمجيد الأتراك المماليك لأن خطر العربان ظل باقياً حتى نهاية حكم المماليك.

راجع: Polıak: Les Revoltes populaires en Egypte, R.E, I, 1934.

الطفل موسى شريكه الأسمي في الحكم وانفرد بالسلطنة.

على أن هذه الاجراءات كلها لم تكن إلا مجرد احتياطات شكلية لم تقلل من خطر اقطاي وزملائه البحرية، فيجمع المؤرخون على أن أقطاي وصل إلى قمة المجد خصوصاً بعد تغلبه على ثورة العرب وأصبح لا يظهر في مكان إلا وحوله حرس عظيم من الفرسان المسلحين كأنه ملك متوج وكانت نفسه ترى أن ملك مصر لا شيء عنده وكان كثيراً ما يذكر الملك المعز في مجلسه ويستنقصه ولا يسميه إلا أيبكا وقد بلغ ذلك المعز فكان يغضي عنه لكثرة خشداشيته البحرية وبعبارة أخرى أخذ أقطاي يرنو علانية نحو السلطنة كما أخذ خشداشيته (زملاؤه) يسعون في تحقيق بغيته فلقبوه فيما بينهم بالملك الجواد وعملوا على تزويجه من إحدى أميرات البيت الأيوبي وهي ابنة الملك المظفر تقي الدين ملك حماة، بل إنهم تآمروا على قتل أيبك ليخلو الجو لاقطاي، ثم حدث أن طلب اقطاي من أيبك أن يأذن له في الإقامة مع عروسه بقلعة الجبل (المقطم) لكونها من بنات الملوك فلم يبق بعد ذلك لدى أيبك أي شك في نوايا أقطاي فصمم على قتله وفي يوم الأربعاء ٣ شعبان سنة ٦٥٢هـ (١٢٥٤م) طلب أيبك إلى أقطاي الحضور إلى قلعة الجبل لاستشارته في أمر من الأمور بعد أن اتفق مع مماليكه المعزية على اغتياله وركب أقطاي إلى القلعة في عدة من مماليكه فما كان يدخل من باب القلعة المؤدي إلى قاعة العواميد أو القاعة الكبرى حتى أغلق خلفه ومنع مماليكه من اللحاق به ثم انقض عليه المتآمرون ومنهم الأمير قطز المعزى وقتلوه بسيوفهم وأشيع خبر مقتله في القاهرة فهرع لإنقاذه سبعمائة من خشداشيته ومنهم الأمير بيبرس البندقداري والأمير قلاوون الألفي وفي ظنهم أنه لم يقتل بعد وإنما قبض عليه فلم يشعروا إلا ورأس أقطاي قد رمي بها إليهم من سور القلعة. ولقد أفزع هذا الحادث كبار المماليك وخشوا من أن تدور الدائرة عليهم فهرب من استطاع الهرب(١) إلى ملوك البيت الأيوبي في الشام مثل

---

(١)يلاحظ أنه في أثناء فرار المماليك كانت أبواب القاهرة مغلقة فاضطروا إلى حرق أحد أبوابها الشرقية وهو باب القراطين فسمي بالباب المحروق منذ ذلك الوقت.

الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق، والمغيث عمر ملك الكرك كما التجأ مائة وثلاثون منهم إلى سلطان سلاجقة الروم علاء الدين كيقباذ بن كيخسر وصاحب قونية بآسيا الصغرى.

والواقع أن مقتل أقطاي قد شطر المماليك إلى حزبين متناوئين وهما البحرية والمعزية مما عرض قيام دولة المماليك لأشد الأخطار إذ أخذ المماليك الهاربون يحرضون ملوك البيت الأيوبي على غزو مصر، ولم يخف ذلك على أيبك فعمد أولاً إلى مصادرة أموال المماليك البحرية، كما قبض على من بقي منهم في مصر وشتت شمل من والاهم من طوائف المماليك الأخرى.

ثم كتب أيبك إلى الملوك الذين لجأ إليهم البحرية وحذرهم منهم ومن غدرهم وشرهم فأجابه الناصر يوسف بأن طلب إليه إعادة البلاد التي أخذها من فلسطين وهي مدينة القدس وساحل فلسطين، ليقيم بها المماليك البحرية لأنها من إقطاعاتهم وبذلك يكون قد أرضاهم وأبعدهم عن مصر.

غير أن أيبك ظن أن في تلك الإجابة خدعة وأن الناصر يزمع الزحف على مصر مرة أخرى بعد أن صارت البحرية في جانبه فرأى أن يستجيب إلى طلبه وإعادة البلاد المذكورة فعلاً إلى أصحابها ولكنه تجهز للخروج بجيوشه إلى الحدود المصرية وعسكر بالقرب من بلدة العباسة مدة ثلاث سنوات تقريباً ولم يعد إلى القاهرة إلا بعد أن تقرر الصلح بينه وبين الناصر سنة ١٢٥٦م (٦٥٤م) بواسطة رسول الخليفة المستعصم نجم الدين البادراني على أن يكون لأيبك الديار المصرية وساحل الشام وعلى ألا يأوي الملك الناصر عنده أحداً من البحرية واضطر المماليك عندما علموا بما تم إلى الرحيل إلى المغيث عمر ملك الكرك وهو الأيوبي الآخر الطامع في مصر وكان بعض اخوانهم قد لجأوا منذ أول أمرهم إلى سلطان سلاجقة الروم فكتب إليه أيبك كتاباً يقول «فيه البحرية قوم مناحيس أطراف[1] لا يقفون عند

(١)أطراف جمع طرف، وهو الرجل الذي لا يثبت على صحة أحد.

الإيمان ولا يرجعون إلى كلام من هو أكبر منهم وإن استأمنتهم خانوا وإن استحلفتهم كذبوا وان وثقت بهم غدروا فتحرز منهم على نفسك فإنهم غدارون مكارون خوافون ولا آمن أن يمكروا عليك» فخاف سلطان الروم منهم فاستدعاهم وقال: يا أمراء ما لكم ولاستاذكم؟ فتقدم الأمير علم الدين سنجر الباشقردي وقال: يا مولانا من هو أستاذنا: قال الملك المعز صاحب مصر فقال الباشقردي «بحفظ الله مولانا السلطان إن كان الملك المعز قال في كتابه إنه أستاذنا فقد أخطأ إنما هو خشداشنا ونحن وليناه علينا وكان فينا من هو أكبر سناً وقدراً وأحق بالمملكة ونحن التجأنا إليك» فأعجب السلطان بهم واستخدمهم عنده.

غير أن أيبك لم يخش شيئاً من سلاجقة الروم لبعد المسافة بينه وبينهم بل خاف أن يقوم المغيث عمر بمثل ما قام به الناصر من قبل فكتب إلى الخليفة المستعصم يلتمس تشريفه بالتقليد والخلع والألوية أسوة بمن تقدم من ملوك مصر وسعى في نفس الوقت في تعطيل خلعة الملك الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق رغم ما بينهما من حلف إذ خشي أن تتحرك أطماع الناصر من جديد بعد وصول الخلعة الخليفية إليه. ويظهر أن أيبك أخذ يشعر بما بين زوجته شجر الدر والمماليك البحرية بالكرك من مراسلات واتفاقات فعزم على الزواج من غيرها وأرسل سنة ١٢٥٦ ميلادية إلى بدر الدين لؤلؤ(١)

(١)هو لؤلؤ بن عبد الله النوري الملك الرحيم بدر الدين أبو الفضائل الأرمني الأتابكي صاحب الموصل كان في الأصل مملوكاً لنور الدين أرسلان شاة ونكي وترقى عنده حتى صار استادارة والخادم في دولته وبعد موت نور الدين سنة ٦٠٧هـ استقر في الملك بعده ولده القاهر مسعود وقام بدر الدين بتدبير ملكه وبعد موت القاهر ثم ولديه الصغيرين استقل بدر الدين بالملك سنة ٦٣١ هـ وسمي بالملك الرحيم وأخذ يتقرب للخليفة المستنصر بالله حتى بعث له الخلع والتقليد بالسلطنة وقد رآه ابن واصل نفسه فوصفه قائلاً ورأيت من تجمله وعنايته بالرسل والواردين عليه ما لا رأيته عند ملك من الملوك ولم يزل بدر الدين مالكاً للموصل وبلادها إلى أن ملك التتر بغداد واستولوا على العراق والجزيرة سنة ١٢٥٩م (٦٥٦هـ) فتوجه بدر الدين إلى هولاكو ملك التتر فأقره على ولايته ثم رجع إلى الموصل فمات بها سنة ١٢٥٩م (٦٥٧هـ).

الاتابكي صاحب الموصل يطلب إليه حلفاً زواجياً لم يعلم عنه إلا ما تداولته المراجع من خطبة أيبك لإبنة بدر الدين. وليس من المعقول أن تكون الخطبة قاصرة على مجرد الرغبة في الزواج إذ ربما أراد من وراء ذلك الحلف معرفة تحركات المغول عن طريق صاحب الموصل وكيفما كان الأمر فقد كانت هذه المسألة بداية الخاتمة لعهد أيبك، لأن مضاره امرأة مثل شجر الدر وهي التي دلت على مهارة وقوة شخصية أيام الصليبيين كان أسوأ من اللعب بالنار ذلك أنه لما علمت شجر الدر بما بيته لها أخذت هي تتزعم حركة المعارضة الداخلية والخارجية لسلطنته فقام بعض من بقي في مصر من البحرية بمعارضة مشروع الزواج فقبض أيبك على عدد كبير منهم أيدكين الصالحي وسيرهم لقلعة الجبل لسجنهم في الجب فلما وصلوا إلى قرب نافذة القصر السلطاني حيث سكنت شجر الدر أحنى الأمير ايدكين رأسه احتراماً وقال بالتركية والله ياخوند[1] ما عملنا ذنباً وجب مسكنا ولكنه لما سير يخطب بنت صاحب الموصل ما هان علينا لأجلك فانا تربية نعمتك ونعمة الشهيد المرحوم الصالح أيوب فلما عتبناه تغير علينا وفعل بنا ما ترين فأومات إليه شجر الدر بمنديلها بما معناه قد سمعت كلامك.

وعندما نزلوا بهم إلى الجب، قال ايدكين «إن كان قد حبسنا فقد قتلناه» ومعنى هذا أن شجر الدر كانت بيتت هي الأخرى لأيبك جزاءً وفاقاً وأن قبضه على أولئك لم يكن لمجرد معارضتهم في الزواج، بل لأنه علم بمؤامرتهم فأراد أن يقضي على الحركة كلها بالفصل بين أمراء المماليك وزعيمتهم. غير أن شجر الدر كانت قد دبرت ما لم يكن في الحسبان إذ أرسلت سراً أحد المماليك العزيزية إلى الملك الناصر يوسف بهدية ورسالة تخبره فيها أنها عزمت على قتل أيبك والتزوج منه وتمليكه عرش مصر ولكن الناصر أعرض عنها خوفاً من أن يكون من الأمر خدعة ولم يجبها بشيء وعلم بدر الدين لؤلؤ بأخبار هذه المفاوضات السرية فبعث إلى أيبك ينصحه أن

(١)الخوند لفظ تركي أو فارسي واصله خداوند بضم الخاء ومعناه السيد أو الأمير ويخاطب به الذكور أو الإناث انظر (المقريزي: السلوك جـ ١، ص ٢٢٤ حاشية رقم ٢).

يأخذ حذره وخاف أيبك على حياته فترك القلعة وأقام بناظر اللوق وصمم على قتل زوجته قبل أن تقضي عليه ويقال في هذا الصدد أن منجماً أخبر أيبك بأنه سوف يموت قتيلاً على يد امرأة ولا شك أن المنجم كان عليماً ببعض ما يجري من وراء ستار إذ المعروف أن الزوجين أخذا يتسابقان في نسج المؤامرات بعد القبض على البحرية في القاهرة وانتهى السباق بانتصار المرأة في ميدانها إذ أرسلت شجر الدر إلى أيبك رسالة رقيقة تتلطف به وتدعوه بالحضور إليها بالقلعة فاستجاب لدعوتها وصعد إلى القصر السلطاني بالقلعة حيث أعدت له شجر الدر خمسة من الغلمان الأشداء لاغتياله منهم محسن الجري ونصر العزيزي وسنجر وكان آخرهم من مماليك أقطاي وقد قام هؤلاء الغلمان بما أمروا به وقتلوه في الحمام في أبريل سنة ١٢٥٧م (٦٥٥هـ) وأرادت شجر الدر أن تتفادى عواقب هذه الجريمة بأن تولي السلطنة أميراً يقبض على زمام الموقف وتختفي خلفه في الحكم فعرضت السلطنة على جمال الدين بن أيدغدي العزيزي وعز الدين أيبك الحلبي ولكنهما لم يجسرا على ذلك وامتنعا وفي اليوم التالي ذاع الخبر في المدينة فأسرع المماليك المعزية إلى القلعة وقبضوا على الخدم والحريم وبتعذيبهم اعترفوا بحقيقة ما حدث وعندئذ حاول المماليك المعزية قتل شجر الدر ولكن المماليك الصالحية حالوا بينهم وبينها وسعوا إلى إنقاذها باعتقالها في البرج الأحمر(١) بالقلعة فأحاط المماليك المعزية بالقلعة وأخذوا يتحينون الفرص لقتلها وكان من المحتمل إنقاذ شجر الدر من الموت في ذلك الوقت نظراً لحماية البحرية لها، ولخدماتها الجليلة التي لم تنس بعد لولا أنها جلبت على نفسها حقد امرأة المعز الأولى وأم ولده على التي أخذت تتحرق شوقاً للانتقام من شجر الدر التي منعت زوجها من زيارتها وأرغمته على طلاقها فأخذت هي وابنها يلحان في تحريض المعزية على قتلها إلى أن ضعفت معارضة الصالحية في النهاية وحملت شجر الدر إليها فأمرت جواريها بقتلها وهنا يقول المقريزي

(١)كان بالقلعة عدة أبراج منها البرج الأحمر الذي بناه الملك الكامل ويعرف اليوم باسم برج المقطم في الجهة الجنوبية من القلعة.

فضربها الجواري بالقباقيب إلى أن ماتت وألقوها من سور القلعة إلى الخندق وليس عليها سوى سروال وقميص فبقيت في الخندق أياماً وأخذ بعض أراذل العامة تكة سراويلها ثم دفنت بعد أيام وقد نتنت وحملت في قفة بتربتها قرب المشهد النفيسي.

ولقد تعصب المماليك المعزية لابن سيدهم المدعو نور الدين علي فأقاموه سلطاناً في ربيع الأول سنة ٦٥٥هـ (١٢٥٧م) ولقبوه بالملك المنصور وكان عمره وقتئذ خمسة عشر عاماً واعترض المماليك الصالحية على سلطته واتفقوا على سلطنة اتابك العسكر الأمير علم الدين سنجر الحلبي وحلفوا له ولكن سرعان ما قبض عليه المعزية وسجنوه في الجب بالقلعة عندئذ اضطرب خشداشيته من الصالحية وخافوا أن تدور الدائرة عليهم فأمعنوا في الهرب إلى الشام، وخرج المماليك المعزية في أثرهم وقبض على عدد كبير منهم وأثار مسلك المعزية استياء بعض الطوائف المملوكية الأخرى مثل الأشرفية حتى أشيع أنهم اتفقوا على إزالةِ نفوذ المعزية من الدولة، فما كان من المعزية إلا أن قبضوا على الأشرفية ونهبوا دورهم ولجأت الطوائف المملوكية من بحرية وغير بحرية التي سئمت الوضع في القاهرة إلى ملوك الأيوبيين بالشام ولا سيما المغيث عمر صاحب الكرك حيث أخذوا يحرضونه على أخذ مصر ملك آبائه وأجداده حتى استجاب لدعوتهم وسعى بمعونتهم في الاستيلاء على مصر وحاول ذلك مرتين في سنة ١٢٥٧م) (ذو القعدة ٦٥٥هـ) وفي سنة ١٢٥٨م (ربيع الأول سنة ٦٥٦هـ) ولكنه رد في كلتيهما خائباً مهزوماً بفضل شجاعة نائب السلطنة الأمير سيف الدين قطز المعزى.

وهكذا بدت الدولة وسلطانها صبي وهي لم تزل في دور التكوين ولم تكن بحاجة إلى ما يترتب على قيام الصغار من منافسات ومؤامرات داخلية فضلاً عما خفي وقتذاك من عوامل الخطر الخارجي مما كان أدهى وأعظم وهو الخطر المغولي.

الفصل الخامس

خطر المغول أو التتار على قيام الدولة المملوكية الأولى في مصر

لم يتعرض الإسلام لأوقات عصيبة مثل التي تعرض لها زمن الغزو المغولي في القرن الثالث عشر الميلادي أي السابع الهجري، إذ دمرت الجيوش المغولية مدن المسلمين، وأتت على كثير من الناس قتلاً أو أسراً أو تعذيباً، وقوضت معالم المدنية بكل مكان في غير شفقة أو رحمة. ومن سوء حظ آسيا الإسلامية أنه لم يوجد بها وقتذاك قوة تستطيع مواجهة مثل ذلك الغزو العنيف الذي قاده جنكيزخان[1] وأولاده وأحفاده، فالخلافة العباسية سادرة في الاضمحلال، ودولة السلاجقة في بغداد تبدو كأنها أثر بعد عين، أما في غرب بغداد، فتوجد دولة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى وهي الأخرى آخذة في الضعف والتدهور ثم الدولة المملوكية الناشئة بمصر والشام ولما تبلغ من العمر سوى بضع سنين، وكيانها لا يزال في كفة الميزان، وأخطار

(١)جنكيزخان ـ يعني أقوى الحكام ـ وهو الذي اختار هذا الاسم لنفسه، أما اسمه الحقيقي الذي عرف به في صباه فهو تيموجين ومعناه في اللغة الصينية الصلب الخالص. وقد تمكن تيموجين بعد حروب ومنازعات مع أبناء جنسه أن يصل إلى غايته وهي زعامة المغول سنة ٦٠١هـ وأن يجعل منهم قوة يظنها المعاصرون أنها لا تهزم، وبهذه القوة الخارقة استطاع هذا الإسكندر الآسيوي أن يكتسح البلاد شرقاً وغرباً حتى ترك لأولاده امبراطورية شملت ما بين بحر الصين والبحر الأسود، وكانت وفاته في سنة ١٢٢٧م (٦٢٥هـ).

حداثتها لا تزال محدقة بها من كل جانب داخلي وخارجي. «ثم زحف هولاكو حفيد جنكيز خان غرباً نحو فارس في فبراير سنة ١٢٥٤. فقضى على قلاع الشيعة الإسماعيلية الباطنية بها ثم قضى على الخلافة العباسية وجميع ولايات غرب آسيا، ولم يبق أمامه سوى الدولة المملوكية بمصر والشام[١] ويرجع السر في انتصارات المغول إلى تفوقهم في الأسلحة وإلى سرعة إطباقهم على العدو ثم إلى سرعة الرماية وإحكامها، فأعمالهم الحربية قائمة على السرعة، والقدرة في السبق وهي المعبر عنها اليوم بالحرب الخاطفة، ومعظم أسلحتهم هي النبال ذات الأطراف الفولاذية أو العظمية أو القرنية، ولا تخلو جعبة الجندي المغولي من عدد كبير من أوتار القسي ومعها إبرة، وشمع لإصلاحها، ومبرد لسن أطراف النبال. ثم كانت سيوف المغول مدببة حادة أصلح للطعن منها للضرب، ودروع خيولهم من جلد مقسى مطلي. ويضع المغول أسلحتهم وأمتعتهم في جعبات من الجلد يمكن نفخها ليستعينوا بها على اجتياز الأنهار. ويتألف الجيش المغولي من العناصر الأصلية كالمغول والتتار ثم من عناصر أخرى ملحقة به من الباشقرد والقرغيز والترك والتركمان وغيرهم، وقوامها جميعاً فصائل من الفرسان كل منها عشرة أو مائة أو ألف أو عشرة آلاف من الجنود. وفيه فضلاً عن المقاتلة فصائل إضافية من مهندسين وإخصائيين في فن قذف المجانيق وآلات الحصار وإصلاح مختلف أدوات القتال. ويقضي النظام التتري بالطاعة التامة، وينكر أن يهرب واحد من صفوف الجند أو يترك زميلاً عاجزاً أو أسيراً في يد الأعداء دون أن يقدم على انقاذه، ونساء المغول يتمتعن بحرية كبيرة، ويحاربن مثلما يحارب الرجال، وكثيراً ما كن يحملن أطفالهن حول أعناقهن[٢]، صفوة القول إن الأمة المغولية كلها عملت في صفوف الجيش

(١)راجع Howorth: History of the Mongols Vol. I. p.193 وكذلك D'Hosson: Histoire des Mongols III p. 134.

(٢)لاحظ ذلك الرحالة الطنجي ابن بطوطة فقال: والنساء كالرجال سافرات يحضرن مجالس الرجال. وكان سلطان المغول يصدر أوامره باسمه واسم خواتينه (زوجاته).

المغولي لتوفر له ما يحتاج إليه من طعام ومعدات[١] .

وتعتبر سنة ١٢٥٨م (٦٥٦هـ) سنة مشؤومة في تاريخ الدولة الإسلامية، إذ استولى المغول في فبراير منها على بغداد قلعة الإسلام وحاضرة العباسيين، وأعملوا فيها معاول التخريب والسيف والنار بضعة أيام، وقتلوا الخليفة المستعصم بالله وأفراد أسرته وأكابر دولته واهتز المسلمون فرقاً لتلك الكارثة، لأن الخلافة العباسية ظلت رغم ضعف سلطانها السياسي، محتفظة بمركز الزعامة الروحية إلى درجة تفوق مركز البابوية في روما، فلا عجب إذن إذ خيل للمسلمين «أن العالم على وشك الانحلال وأن الساعة آتية عن قريب، وصاروا يؤولون كل ظاهرة على أنها تعبير عن سخط الله، وأتخذوها أدلة على ما سيحدث في العالم من انقلاب سيء لخلوه من خليفة[٢] .

ونتج عن سقوط بغداد في أيدي التتار آثار ونتائج عديدة في الحياة الإسلامية: فالوحدة السياسية للمسلمين أصبحت من الأمور التي يستحيل تحقيقها، أضف إلى ذلك أن الثقافة الإسلامية منيت على أيدي التتار بخسارة كبيرة حين أتلف المغول آلافاً من الكتب القيمة والمخطوطات النادرة، وقتلوا كثيراً من العلماء والأدباء، وشتتوا شمل من بقي منهم في مختلف البقاع الإسلامية. وجذبت مصر عدداً كبيراً من هؤلاء العلماء، مما أدى إلى انتقال مركز الزعامة الفكرية إلى القاهرة التي أضحت بحكم وضعها الجغرافي أقرب من بغداد إلى أوروبا، مما ساعد على اقتراب العالم الغربي من الحضارة الشرقية[٣] وما يقال بصدد هجرة العلماء والأدباء يقال كذلك على أهل الحرف والصناعات وغيرهم من أهالي بلاد المشرق الإسلامي، مثال ذلك أن مصر استقبلت إبان الغزو المغولي عدداً كبيراً من المشارقة الذين بنوا لأنفسهم بيوتاً على ضفاف الخليج وحول بركة الفيل[٤] . وقد جلب أهل الحرف منهم بعض

---

(١) Cambridge Medieval History vol. Iv p. 637.

(٢) السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ـ ص ٣٠٩.

(٣) Caml. Ned. Hist, Vol 4 p. 641.

(٤) المقريزي: الخطط، جـ ١ ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥.

أساليب بلادهم الفنية وتأثر المعمار المصري نتيجة ذلك في القرن الثالث عشر الميلادي، ببعض المؤثرات الفارسية والعراقية، ومن المحتمل جداً تكون خطة بناء مسجد الظاهر بيبرس مأخوذة من رسم مسجد ميافارقين الذي أنشيء في سنة ١٢٢٣م[١] ، وعلى الرغم من أن هذه الأساليب والمؤثرات الفنية، قد وجدت فعلاً في مصر قبل القرن الثالث عشر، إلا أن تلك الهجرات الأخيرة كانت مدعاة لظهورها وإحيائها[٢] ، والواقع أن سقوط بغداد وقيام دولة ايلخانات فارس على عهد هولاكو ، قد فصل أراضي شرق دجلة عن غربه، ففي الشرق اتسعت دائرة الحضارة الفارسية، وفي الغرب قامت البقية الباقية من الثقافة العربية، بعد أن كانت حضارة العالم الوسيط من سمرقند إلى اشبيلية قائمة على التعاون الفكري والتبادل العلمي والأدبي بين الفرس والعرب في ظل الخلافة العباسية. حقيقة إن الفرقة بين اللغتين الفارسية والعربية ظهرت قبل ذلك بقرون نتيجة للنهوض القومي الفارسي، إلا أنه منذ سقوط بغداد قلت أهمية اللغة العربية بين الفرس وأصبحت قاصرة على البحوث الدينية والفلسفية[٣] وترتب على سقوط بغداد أيضاً الاتجاه في إعادة ترتيب العالم السياسي مثل وجوب تعيين حدود جديدة وعقود محالفات مختلفة، كما ترتب عليه تغيير سلاطين المماليك في مصر سياستهم نحو الخلافة إذ جعلهم يفكرون في إحيائها من جديد، وفي الوقت نفسه أعطاهم فرصة قصيرة من الزمن يستعدون فيها لصد هذا السيل المغولي الجارف المندفع نحوهم. ومع أن سقوط بغداد بين للمسلمين ضرورة توحيد الجهود

---

(١) Creswell: The works of Sultan Baibars, Bulletin de l'Institut Francais D'archeologie Orientale tome 26 P. 181.

(٢) الواقع أن هجرات أهل الحرف نتيجة الغزو المغولي لم تكن جديدة على مصر والإسلام، فهناك أمثلة عديدة من هذا النوع نذكر منها حادثة المهندسين الأرمن الثلاثة الذين هاجروا من الرها إلى مصر، وأشرفوا على بناء حصون الفاطميين بالقاهرة سنة ١٠٨٧م (٤٨٠هـ) في عهد المستنصر بالله، ومن المحتمل أن مجيئهم إلى مصر كان نتيجة لهروبهم من مدينة الرها التى احتلها السلاجقة قبل ذلك بعام.

(٣) Nickolson: Aliterary History of the Arabs p. 446.

إزاء ذلك الخطر العام، ظل النزاع بين السنة والشيعة قائماً مستمراً، فاستغل المغول ما هنالك من تنافس لصالحهم، وزحفوا نحو الغرب يعيثون فساداً وتخريباً يساعدهم في ذلك انقسام المسلمين، وأيد هولاكو حزب الشيعة. واتخذ الاحتياطات التي تكفل سلامة قبر الإمام علي بالنجف من التدمير.

ومن الطبيعي أن يتلو ذلك غزو الشام، وما يليها غرباً، حيث أضحت الأمبرطورية التي أسسها السلطان صلاح الدين الأيوبي منقسمة إلى قسمين، وهما مصر التي زال عنها حكم الأيوبيين وصار سلاطينها من مماليكهم، ثم الشام وقد سيطر على مدنها عدد من ملوك بني أيوب على رأسهم الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق، الذي أوجس خيفة من التقدم المغولي، وقدر أن هولاكو وجنوده سوف يستولون على الشام بين عشية وضحاها، وأن الشام لن يجد من يحميه من ملوك الأيوبيين أو مماليك القاهرة سواء، لذا أرسل ابنه الملك العزيز محمد سنة ١٢٥٨م إلى هولاكو يخطب وده ويسأله أن يعينه على أخذ مصر من أيدي المماليك. وكان حرياً بهولاكو أن يقبل الطلب لو أن أمير دمشق أحاطه بشيء من العناية وذهب بنفسه يطلب حلف الايلخان المغولي ويعرض عليه ولاءه وتبعيته، ولكن الناصر لم ير فيما يبدو أن يرتبط بعهد وثيق، ففضل البقاء بعيداً عن حضرة هولاكو، حتى إذا أصيبت القوى المغولية بالهزيمة أمام المسلمين استطاع أن يجد لنفسه بعض المعاذير. وغضب هولاكو من هذا الوفد الذي لم يناسب مقامه، فأرسل إلى الملك الناصر رسالة يأمره فيها بالخضوع والتبعية دون قيد أو شرط. وعندما رأى الملك الناصر حبوط مسعاه، وأن محاولته هذه جعلته مريباً عند المسلمين، رد على رسالة هولاكو برسالة كلها قذف وسباب، ودفع ثمن ذلك غالياً فيما بعد.

وفي سبتمبر سنة ١٢٥٩م (٦٥٧هـ) غزا هولاكو الشام بجيش قوي، وحاصر ابنه يشمط ميافارقين، وأدرك الناصر استحالة الوقوف وحده في وجه التتار، فقرر أن يطلب من المماليك معونة حربية تسمح له بوقف سيل المغيرين. وكان سلطان مصر في ذلك الوقت الملك المظفر سيف الدين قطز

وهو من الخوارزمية[1] الناقمين على التتر والعارفين بما يسفكونه من دماء في أي بلد يحلون فيه. وعلى الرغم من سوء العلاقات بين قطز والناصر، فإن خطورة الموقف جعلت السلطان المملوكي يتناسى الأحقاد ويقبل طلبه الخاص بإرسال نجدات عسكرية إليه. ويظهر دهاء قطز بوضوح في الرسالة التي أرسلها إلى الناصر لهذا الغرض، إذ يخبره فيها بأنه يقبل كل عروضه عن طيب خاطر، ولا يقتصر على ذلك بل يعتبر الناصر أيضاً ـ بصفته سليل صلاح الدين ـ ملكاً على جميع المماليك التي خضعت لسلطان الأيوبيين ومنها مصر، ثم يضيف بأنه ـ أي قطز ـ ليس إلا أحد قادته على ضفاف النيل، وأنه يتعهد أن يعطيه السلطنة العليا إذ أراد القدوم إلى القاهرة. كما يعرض عليه أن يرسل له جيشه إلى دمشق ليجنبه عناء القدوم بنفسه إلى القاهرة إذا كان يرتاب في صدق نواياه. وسواء أكانت هذه الوعود آتية من الفزع من هولاكو أو آتية من أن قطز يريد أن يخدع أمير دمشق ليأخذ أملاكه فيما بعد، فإن المغول انتهزوا فرصة سكون الناصر وتابعوا السير إلى الشام، فاستولوا على حلب في ٢٥ يناير سنة ١٢٦٠م صفر ٦٥٨هـ) بعد سبعة أيام مروعة من السفك والتخريب. ثم سقطت ميافارقين بعد ذلك بعدة شهور في يد يشموط ابن هولاكو، بعد أن دافعت حاميتها دفاعاً باسلاً لم يشهد المغول مثله، واستشهد صاحبها الملك الكامل محمد الأيوبي.

وأمام ذلك الخطر الداهم رأى بعض أمراء الأيوبيين في الشام أن

---

(١)كان قطز شاباً أشقر كبير اللحية يقال إن اسمه الأصلي محمد ابن مودود، وإنه ينتسب إلى بيت الملك في خوارزم ـ ابن أخت جلال الدين خوارزمشاه ـ ولما قضى المغول على ملك هذه الأسرة كان قطز من السبايا الذين حملوا إلى دمشق، وهناك بيع الرقيق للسلطان أيبك التركماني. ويؤثر عن قطز أنه قال لأحد المنجمين «أنا أكسرهم ـ أي التتار ـ وآخذ بثأر خالي خوارزم شاه ويقال إن كلمة قطز معناه بالتركية الكلب الشرس ـ راجع (الكتبي: فوات الوفيات ـ جـ ٢، ص ١٣٢ ـ ١٩٣) ويلاحظ أنه في تلك السنة عزل قطز السلطان علي بن أيبك وأعلن نفسه سلطاناً مبرزاً ذلك بقوله: «لا بد من سلطان قاهر يقاتل العدو والملك المنصور على صبي لا يعرف تدبير المملكة».

يخضعوا للغزاة حرصاً على كيانهم، ومن هؤلاء الملك الأشرف موسى سليل أسد الدين شيركوه الذي لم يكن يملك في ذلك الوقت إلا قرية تل باشر الصغيرة قرب الرها. وكافأه، هولاكو على ذلك بأن رد إليه إمارة حمص التي أخذها منه الناصر يوسف قبل ذلك باثني عشر عاماً (٦٤٦هـ)، وجعله قائده العام في الشام، أما الناصر فإنه خرج بجيوشه من دمشق ومعه مماليكه الناصرية والعزيزية وعدة من البحرية وعلى رأسهم الأمير بيبرس البندقداري[١] ، وخيم على يرزه[٢] ، على مسافة يسيرة من دمشق شمالاً. غير أن تعدد عناصر جيشه وقديم التنافر بين تلك العناصر فضلاً عن اختلاف قلوب أمرائه، وتآمر مماليكه الناصرية على قتله، وخوف الأمراء من هولاكو وجنوده، سرعان ما جعل ذلك التعس أن ينسحب إلى غزة حيث يكون على مقربة من النجدة التي وعده بها سلطان مصر وكانت هذه الخطة المتقلبة موافقة إلى أقصى حد لطبيعته فإنه لم يفكر مطلقاً في حماية عاصمته وتعرض حياته للخطر بها، بل أسرع بتركها لوزيره زين الدين الحافظي[٣] ، الذي

(١)سبق أن أشرنا إلى مقاومة المماليك البحرية للملك الناصر والتجائهم إلى الملك المغيث الأيوبي صاحب الكرك ونضيف إلى ذلك بأن هؤلاء المماليك لجأوا إلى الإغارة على أملاك الملك الناصر الأمر الذي جعله يزحف بجيوشه نحو الكرك ويحاصر المغيث بها سنة ٦٥٧هـ لحمايته لهم. واضطر المغيث إلى قبول شروط الناصر التي منها تسليم ما عنده من البحرية إليه. ولما علم بيبرس بذلك هرب في جماعة من البحرية إلى الملك الناصر طالبين منه العفو فعفى عنهم وأدخلهم في خدمته، وقبض المغيث على من بقي عنده من البحرية وبعث بهم إلى الملك الناصر فاعتقلهم بقلعة حلب، وظلوا بها إلى أن استولى التتار عليهم فأخذهم هولاكو مع ممن أسر إلى بلاده، راجع (ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ جـ ٢، ص ٣٩٠ ـ ٣٩١)، أبو الفداء جـ٣، ص ٢٠٣، المقريزي: السلوك، جـ١ ص ٤١٤ ـ ٤١٥، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: جـ ٧، ص ٥٣).

(٢)هي قرية بالغوطة ـ (ياقوت: معجم البلدان، جـ١ ص ٥٦٣).

(٣)الأمير زين الدين سليمان بن المؤيد بن عامر العقرباني المعروف بالزين الحافظي كان أبوه خطيب عقربا من قرى دمشق، واشتغل هو بالطب حتى مهر فيه، ولقب بالحافظي لأنه خدم الحافظ نور الدين أرسلان شاه بن العادل أبو بكر بن أيوب =

سلمها للمغول في مارس سنة ١٢٦٠م (ربيع الأول سنة ٦٥٨هـ)، وحاولت قلعتها الحصينة المقاومة دون جدوى، واستسلمت الحامية في ٣ يونيو من نفس السنة[١] ، ونجت دمشق من التخريب[٢] ، بفضل وساطة أعيانها، واقتدت انطاكية بدمشق في التسليم ولكنها لم تسلم من التخريب[٣] ، وفي ذلك الوقت علم هولاكو بموت أخيه الخان الأعظم منجوقان، فأسند قيادة جيوشه في الشام إلى كتبغانوين ورحل مسرعاً إلى القورلتاي ـ مجمع زعماء التتر ـ في العاصمة قرة قورم[٤] ، حيث تجري الانتخابات لاختيار خاقان المغول الجديد. وقدر هولاكو أنه سوف يعين خاقاناً للمغول لأهمية فتوحاته واتساعها، ولكنه علم في تبريز[٥] ، أن الاختيار وقع على أخيه قوبيلاي[٦] ،

= صاحب قلعة جعبر، ثم انتقل إلى خدمة الملك الناصر يوسف بجلب، فصارت له عنده منزلة رفيعة، وكثرة أمواله، وصار مكيناً في دولته ويرسل عنه إلى هولاكو، فمازج التتار وأطمعهم في البلاد، وعاد فهول بهم على الناصر حتى هرب، فقام هو بأمر دمشق للتتار ودعوه بالملك زين الدين، وبعد هزيمة التتار في عين جالوت فرّ مع نواب التتار من دمشق خوفاً من الملك المظفر. وقد قتل زين الدين الحافظي بيد المغول سنة ٦٦٢هـ.

(١)نقش على جدران قلعة دمشق عبارة تذكارية عن حملة المغول عليها تبين أن سقوط القلعة في أيدي المغول كان في ٢١ جمادى الآخرة ٦٥٨هـ (٣ يونيو ١٩٦٠م) وأن استعادة الجيش المصري والشامي لهذا كان في ٢٧ رمضان من نفس السنة (٥ سبتمبر) أما المدينة نفسها فسلمت قبل سقوط قلعتها بنحو شهرين.

(٢)كان المؤرخ المعروف بأبي شامة موجوداً بدمشق أثناء الاحتلال المغولي لها، وقد وصف هذا الغزو مفصلاً في كتابه «الذيل على الروضتين» ص ٢٠٤ وختمه بقوله: «والحمد لله الذي عافانا مما ابتلى به غيرنا».

(٣) Cambridge Medieval History Iv p. 643.

(٤)قرة قورم مدينة في منغوليا على نهر أرخون في وسط آسيا ولم يبق منها الآن سوى الأنقاض ودير بوذى.

(٥)حلت تبريز منذ ذلك الوقت محل بغداد في الجاه والثراء، وأصبحت العراق تحكم حكماً مغولياً من هناك.

(٦)صار قوبيلاي الخان الأعظم على بلاد التتر حتى سنة ٦٩٣هـ (١٢٩٤م) واستولى في =

(١٢٦٠ ـ ١٢٩٤)، وأن الاختيار تقرر بصفة غير شرعية بواسطة أمراء مغول الشرق الأقصى الذين أرادوا إفساد الانتخابات قبل مجيء أمراء الغرب، وكان ذلك منافياً لقواعد الحكم التي قررها جنكيزخان، ولكن هولاكو قبل تلك النتيجة احتراماً لأخيه قوبيلاي.

أما الناصر فإنه ما كان يصل إلى غزة على رأس جيشه حتى أخذ قطز في أغراء وحدات ذلك الجيش واجتذابها إلى ناحيته[١]، وذلك لأن قطز لم يكن يخشى شيئاً خشيته من وصول أمير أيوبي على رأس قوة حربية إلى حدود مصر. ونجحت إغراءات قطز حتى ألقى الناصر نفسه وحيداً في غزة، فخرج منها في بعض أقاربه وحاشيته وهو لا يدري بالضبط ماذا يفعل، فاتجه إلى قطيا[٢] بجنوب فلسطين لعله يجد فيها مأوى أو نجاة من المغول من ناحية والمماليك من ناحية أخرى. وبينما هو على تلك الحال أفشى اثنان من رجاله إلى كبتغانوين[٣] ـ نائب هولاكو بدمشق ـ سر ارتداد الناصر عن الحدود

= أثناء حكمه على البقية من بلاد الصين، ونقل عاصمة التتر من قراقورم إلى خان بالق وهي بكين الحالية، وانصبغت دولة قوبيلاي منذ ذلك الوقت بصبغة صينية من دون سائر دول التتار وعرفت الأسرة الحاكمة بها باسم يون Yuen

Blochet: Histoire des Sultans Mamlouks I. P. 377.

(١)يروي أبو شامة في هذا الصدد العبارة التالية «. . . فتوجه الترك إلى مصر مع الأثقال، وتوجه هو ـ أي الناصر ـ مع خواصه إلى وادي موسى ثم نزل بركة زيزي وكبسه نائب التتار بها». راجع (الذيل على الروضتين ـ ٢٠٥).

(٢)وتكتب أيضاً قطية وهي قرية من نواحي الجفار في الطريق بين مصر والشام في وسط الرمل قرب القرما وبها جامع ومارستان (مستشفى) وبها والي طبلخاناه مقيم لأخذ العشر من التجار، وبها قاش وناظر وشهود ومباشرون. . لا يمكن أحد من الجواز من مصر إلى الشام أو بالعكس إلا بجواز مرور. وكان بها مكان أخذ المكس من القادمين إلى مصر (ياقوت ـ معجم البلدان، جـ ٤ ص ١٤٤)، وقد اندثرت هذه القرية الآن ولم يبق إلا أطلالها في الطريق بين القنطرة والعريش في الجنوب الشرقي من محطة الرمانة (الروماني قديماً) وعلى بعد عشر كيلومترات منها راجع: (أبو المحاسن ـ النجوم = جـ ٧ ص ٧٧ حاشية رقم ٢).

(٣)يرد اسم هذا القائد على صيغ مختلفة مثل كتبوغا وكتبوقا نوين، وهو من قبيلة تترية =

المصرية، فأرسل القائد المغولي ثلة من الفرسان قبضت على الأمير الأيوبي عند بركة زيزاء[1] وحملته إلى هولاكو واختار هولاكو أن ينسى خطاب السب الذي أرسله إليه الناصر رداً على خطابه، أو لعله ـ لأن المغول لا ينسون شيئاً ـ رأى أن أمير دمشق أنفع له وللسياسة التي يرى اتباعها مع المسلمين من أمير حمص الشاب الملك الأشرف موسى، ولهذا لقيه لقاء طيباً، ووعده باحياء الأمبراطورية الأيوبية الممتدة من أطراف الشام إلى النوبة ومن برقة إلى الفرات، كما وعده بأنه سوف يجعل له السيادة الفعلية في تلك البلاد كلها بما في ذلك مصر بشرط أن يعترف بسلطان المغول وسيادة الخان الأكبر، وهنا تتضح لنا حقيقة لها أهميتها فيما يتعلق بسلامة دولة المماليك في مصر ألا وهي تواطؤ ملك الأيوبيين مع المغول في القضاء على الدولة المملوكية الناشئة، وهذه الحقيقة ان دلت على شيء فإنما تدل على مدى ما تعرضت له الدولة المملوكية من الأخطار المهددة لكيانها. كما تدل على أن قيام دولة؛ المماليك ظل ناقصاً ما دامت تلك الأخطار ماثلة.

ورأى هولاكو أن تتابع جيوشه زحفها نحو الغرب، غير مقتصر على الفتوحات الهامة التي تمت له بالاستيلاء على حلب ودمشق، فأخذ يعد العدة للهجوم على بيت المقدس والتعقيب على ذلك بغزو البلاد المصرية، فأرسل رسله إلى مصر بكتاب كله وعيد وتهديد وانذار بالويل والثبور لسلطان مصر المملوكي إن هو لم يخضع له ويعترف بسلطان المغول وقد أوردنا ـ كضميمة

= اعتنقت الدين المسيحي منذ قرون وقد يكون هذا من الأسباب التي جعلته يضطهد مسلمي دمشق ويعظم قسوس النصارى وينزل كنائسهم مما يشجع نصارى دمشق على الاستطالة على المسلمين (أبو شامة ـ الذيل على الروضتين ص ٢٠٨، المقريزي ـ السلوك ـ جـ ١ ص ٤٢٥) ونوين ـ حسب ضبط صبح الأعشى ـ جـ ٦ ص ٣٣ ـ لفظ فارسي كثيراً ما يقرن بأسماء قواد التتر ومعناه مقدم ألف وقيل عشرة آلاف ـ (أبو المحاسن ـ النجوم ـ جـ ٧ ص ٧٨ حاشية ٢).

(١) قرية من قرى البلقاء الكبيرة، والبلقاء كورة من أعمال دمشق ـ يطؤها الحاج ويقام بها لهم سوق ـ وفيها بركة عظيمة (ياقوت ـ معجم البلدان = جـ ٢ ص ٩٦٦).

في آخر الكتاب ـ نص هذا الخطاب الذي يدل على مبلغ اعتداد المغول بأنفسهم ومدى ما أحدثوه في البلاد التي فتحوها من قتل وتخريب.

وأمام هذا الخطر الداهم عقد السلطان قطز مجلساً من كبار الأمراء، واستقر الرأي على مقابلة وعيد التتر بالاستعداد للحرب. وحوالي ذلك الوقت أخذ كثير من أمراء المماليك البحرية، الذين هربوا من القاهرة أيام أيبك خوفاً من أن ينالهم ما نال أقطاي، وبقوا في منتصف الدويلات الشامية الأيوبية، وفي بلاط دولة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى، أخذوا يفدون إلى القاهرة بعد أن انتشر المغول بأكبر مدن الشام وهددوا آسيا الصغرى نفسها، ونسي أولئك المماليك مخاوفهم، ونسي قطز مخاوفه كذلك، فرحب بمقدمهم ومنحهم الاقطاعات الجليلة الواسعة، فصار المماليك بذلك كتلة واحدة متحدة، وتلك الظاهرة تتكرر كثيراً في صفوف المماليك ابان الأزمات التي تعرضت لها دولتهم في تاريخها الطويل ومن ضمن المماليك الذين رجعوا إلى القاهرة والقائلين بوجوب مقاتلة التتر، الأمير بيبرس البندقداري[(١)] ، الذي استقبله قطز مرحباً سنة ١٢٦٠م (٦٥٨هـ)، وأنزله بدار الوزارة[(٢)] وأقطعه قليوب

(١)يقال إن بيبرس طلب من الناصر عندما كان مقيماً عنده، أن يقدمه أو غيره على أربعة آلاف فارس ليتوجه بهم إلى شط الفرات ليمنع التتر من عبوره، فلم يمكنه الناصر من ذلك، ففارقه وقدم إلى مصر. (الكتبي: فوات الوفيات، جـ١ ص ٨٦). ويقال كذلك أن بيبرس سب الوزير زين الدين الحافظي حينما أشار على الملك الناصر بعدم مقاتلة التتر، وصاح به قائلاً «أنتم سبب هلاك المسلمين ـ »راجع (المقريزي: السلوك ـ جـ١ ص ٤١٩).

(٢)كانت دار الوزارة بجوار القصر الخلافي الفاطمي المعروف بالقصر الشرقي الكبير، بناها الوزير الأفضل بن بدر الجمالي ويقال إن بدر الجمالي نفسه هو الذي بناها. وكان يسكنها وزراء الدولة الفاطمية أرباب السيوف من عهد الأفضل إلى أن زالت الدولة، وكانت تعرف بالدار الأفضلية. ثم استقر بها صلاح الدين الأيوبي وابنه العزيز ثم الملك العادل وصاروا يسمونها بالدار السلطانية. وأول من انتقل عنها من الملك وسكن قلعة الجبل الملك الكامل بن العادل الذي جعلها منزلاً للرسل، فلما ولي قطز ملك مصر وحضر إليه المماليك البحرية من الشام خرج قطز للقائهم وأنزل =

وأعمالها[1] .

وكان رد قطز على تهديد هولاكو واضحاً، إذ قبض على رسل المغول وأعدمهم توسيطاً[2] وعلق رؤوسهم على باب زويلة، ونودي في القاهرة وسائر الأقاليم بالخروج إلى الجهاد[2] وفي نفس الوقت أخذ قطز يعمل على حشد الجيوش وجمع الأموال اللازمة للانفاق بفرض ضرائب جديدة مختلفة على سكان مصر والقاهرة[3] . ولقي قطز في جباية تلك الضرائب معارضة شديدة من جانب القضاة ورجال الدين، إذ اشترطوا عليه أولا إحضار ما عنده وعند حريمه، وما عند الأمراء من الحلى وضربها سكة ونقداً، وتفريقها على رجال الجيش، فإن لم تقم بكفايتهم جاز أن يفرض ضرائب جديدة على الرعية، وأن يقترض من أموال التجار ليستعين بذلك على مجاهدة أعداء الدين. وامتثل قطز لرأي رجال الدين ولم يشرع في جمع الأموال من المصريين إلا بعد أن أحضر هو والأمراء ما عندهم من الحلى والأموال بين يدي الشيخ عز الدين بن عبد السلام أقوى رجال الدين مكانة في ذلك الوقت[4] ولم يقتصر الأمراء على ذلك بل لقي قطز صعوبة أخرى في إقناع

= الأمير بيبرس دار الوزارة، راجع (المقريزي: الخطط، جـ ٢ ص ٣٠١ ـ ٣٠٢).

(١)الكتبي: فوات الوفيات، جـ ص ٨٦، المقريزي: السلوك، جـ ١ ص ٤١٩ ـ ٤٢٠).

(٢)التوسيط هو أن يضرب الشخص بالسيف ضربة تقطعه نصفين، وكان هذا النوع من الإعدام شائعاً بمصر في العصور الوسطى.

(٣)المقريزي: السلوك، جـ ١ ص ٤٢٩.

(٤)وضح لنا ابن إياس (بدائع الزهور جـ ١ ص ٩٦ ـ ٩٧) هذه الضرائب فقال إن قطز. (أخذ في أسباب جمع الأموال فأخذ من أهل مصر والقاهرة على كل رأس من الناس من ذكر وأنثى ديناراً واحداً، وأخذ من أغنياء الناس والتجار زكاة أموالهم معجلاً، وأخذ من الترك الأهلية الثلث، من المال، وأخذ على الغيطان والسواقي أجرة شهر، وأحدث من أبواب هذه المظالم أشياء كثيرة فبلغ جملة ما جمعه من الأموال في هذه الحركة ستمائة ألف دينار). والمقصود بالترك الأهلية عناصر الترك المقيمة بمصر من زمن طويل السلوك، جـ ١، ص ٤٣٧ حاشية ٥).

كثير من الأمراء بوجوب الرحيل معه من مصر لملاقاة التتر، فأخذ يعمل على إثارة نخوتهم واستنهاض همتهم بقوله: «يا أمراء المسلمين، لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه، فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته فإن الله مطلع عليه، وخطيئة المسلمين في رقاب المتأخرين»(١) . وكان لهذه الخطبة أثرها في تقوية روحهم المنهارة فتحالفوا جميعاً على الجهاد في قتال العدو ودفعه عن البلاد.

يتضح لنا مما تقدم أنه فضلاً عن الصعوبات الخارجية التي واجهت دولة المماليك من جراء انضمام الأيوبيين إلى المغول في غزو مصر، واجهتها صعوبات أخرى داخلية لا تقل عنها خطراً، عندما أعلنت التعبئة العامة من مال ورجال لصد ذلك الخطر المغولي الداهم. وفي أغسطس سنة ١٢٦٠م (رمضان سنة ٦٥٨هـ) خرج قطز من مصر على رأس الجيوش المصرية ومن انضم إليه من الجنود الشامية وغيرهم، وأمر الأمير بيبرس أن يتقدم بقطعة من العسكر ليكشف أخبار التتار، فسار بيبرس حتى لقي المغول عند غزة، وتمكن بيبرس من أن يلحق بطلائع المغول هزيمة كانت الأولى في تاريخ المغول غير أنها لم تكن حاسمة، وأخذ بيبرس يناوش العدو ويراوغه ليخفي عنه تحركات الجيش الرئيسي بقيادة قطز. ثم تقدم قطز عن طريق الساحل، فعرج أولاً نحو عكا لكي يتبين نيات الفرنج الذين ارتبطوا مع الناصر سلطان حلب ودمشق بمعاهدة منذ ٢١ فبراير سنة ١٢٥٤م وتستمر عشرة أعوام، وقد اندمجت مصر في تلك المعاهدة بعد عقدها في سنة ١٢٥٦م، ويقول بعض المؤرخين في ذلك الصدد أن الفرنج عرضوا وقتذاك على قطز أن يمدوه بقوات من عندهم، ولكنه اكتفى بأن طلب منهم التزام الحيدة التامة وإلا قاتلهم قبل أن يلقى التتر. غير أن أحوال الصليبيين ببلاد الشام لم تكن تسمح لهم بتقديم أية مساعدة للسلطان قطز أو المغول، ولم يكن السلطان قطز في الواقع بحاجة إلى خشيتهم أو تهديدهم لأن أحوال مسيحي الشام جميعاً ولا

(١)تاج الدين السبكي - طبقات الشافعية الكبرى - جـ ٥ ص ٨٣ - ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٢ ص ٣٩٢).

سيما في عكا بلغت أقصى درجات السوء حيث قام نزاع بين الجنوية والبنادقة سنة ١٢٥٦م، وسرعان ما تطور ذلك النزاع إلى حرب أهلية دخلت فيها كل العناصر المسيحية، فانضم البيازنة، وفيلب دي موتنفورت أمير صور إلى الجنوية وانضم بوهمند السادس أمير انطاكية إلى البنادقة، ولم تستطع جماعات الفرسان الحربية المعروفة أن تقف مكتوفة الأيدي، فانضم الاسبتاريون إلى الجنوية وانضم الداوية والتيوتون وهيئة القديس توماس أكون لازارس إلى البنادقة، وامتدت الحرب على طول ساحل الشام براً وبحراً، فقتل عدد كبير منهم وتلفت كميات هائلة من البضائع، ولم ينته هذا الصراع إلا بعقد معاهدة بين الطرفين في ٩ أكتوبر سنة ١٢٥٨م. ومن هذا نرى أن حالة الفرنج الداخلية ـ حينما تقدم قطز لقتال المغول سنة ١٢٦٠م ـ كانت من الضعف والسوء بمكان بحيث لا تسمح لهم بالاشتراك فعلياً في مساعدة القوة المصرية أو المغولية على السواء[١] .

ثم وافى قطز الأمير بيبرس عند عين جالوت[٢] . ويروي بعض المؤرخين أن رجوع هولاكو بجزء من جيشه إلى فارس قبيل ذلك الوقت أضعف من قوى المغول أمام المماليك، بل يقول أبو المحاسن أن بعض أمراء المسلمين الخاضعين للتتر، نصحوا القائد المغولي بالانتظار ريثما يعود هولاكو أو يصل المدد من عنده إلى الشام ليستطيع ملاقاة الجيش المصري[٣] وكيفما كان الأمر فإن رجوع هولاكو إلى فارس لم يغير من عزم التتر على التقدم لغزو مصر،

(١) Wiet: Histoire de la nation Egyptienne Iv, p. 410

(٢)بليدة شرق دارين بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين ويرجع هذا الاسم إلى الأسطورة القائلة بأن داود قتل جالوت في هذا المكان وقد سماها الصليبيون مدينة Tubanea راجع (ياقوت ـ معجم البلدان جـ ٣ ص ٧٦).

(٣)يقال إن هولاكو كان يتأهب للزحف على مصر بحوالي أربعين ألف جندي، وإذا بوفاة أخيه منجوقان تضطره إلى الرجوع بجزء من جيشه إلى فارس بعد أن ترك بالشام قائده كتبغانوين مع عشرة آلاف من عساكره لتنفيذ مهمة فتح مصر ـ راجع (تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار ـ جـ ١ ص ٤١٩).

كما أنه لم يلق في نفوس المماليك أمناً ولا هدوءاً، بل ظلت قلوبهم مضطربة واهمة من هؤلاء القوم الذين اجتاحوا آسيا وجزءاً من أوروبا دون أن تلحق بهم هزيمة واحدة. وفي صباح يوم الجمعة الموافق ٣ سبتمبر سنة ١٢٦٠م (٢٦ رمضان سنة ٦٥٨هـ) التقى الجمعان المغولي والمملوكي في معركة عامة عند عين جالوت. وليس أدل على تفاصيل تلك المعركة وأسرارها من رواية «صارم الدين أزبك عبد الله الأشرفي[1] الذي وقع أسيراً في يد المغول إبان غزوهم الشام، وقبل الخدمة في صفوفهم وحارب معهم في تلك الوقعة، فروايته لها قيمتها لا بصفة شاهد عيان للموقعة فحسب، بل للدور الذي لعبه فيها كما يتضح من النص حيث يقول فيه «... لما قدمت الشام، وجدت التتار مجتمعين على نهر الأردن وقد خرجوا قاصدين الديار المصرية، وقد خرج المسلمون للقائلهم. فلما علمت أن التتر لا بد لهم من الديار المصرية، بعثت غلاماً لي في صفة جاسوس وأمرته أن يجتمع بالملك المظفر قطز، والأمير بيبرس البندقداري وبلبان الرشيدي وسنقر الرومي، ويعرفهم أن التتار لا شيء فلا تخافوا منهم، وأن تكون ميسرة المسلمين قوية بالخيل والرجال، وعرفهم أن التتار في عسكر قليل. وأوصيته أن يراعي المسلمين أن يكون

(١)بدأ صارم الدين أزبك حياته مملوكاً عند الملك الأشرف موسى صاحب حمص، وشغل وظائف إدارية في الشام، وعاش ببلاد المغول مدة من الزمان، وتوفي في حوالي سن الخمسين يناير ـ فبراير ١٢٨١م شوال سنة ٦٧٩هـ) بعد أن أعطانا معلومات دقيقة عن المغول، وصوراً حية عن عاداتهم تضمنها التاريخ الذي كتبه قرطاي العزي الخازنداري وهو أيضاً موظف مملوكي شغل وظائف أمير دمشق وحاجب حلب ونائب طرابلس وتوفي سنة ١٣٣٣م (٧٣٤هـ) فوق سن الستين. والجزء الخاص بأخبار صارم الدين أزبك في تاريخ قرطاي لعزي مخطوط بمكتبة الفاتيكان (ar. 626) وقد نشره العالم الإيطالي Levi Della Vida تحت عنوان «غارة التتار على سوريا في سنة ١٢٦٠م كما رواها شاهد عيان».

ويوجد هذا النص في مخطوط (عبد الله بن أيبك ـ كنز الدور وجامع الغرر ـ جـ٨ ق ١ لوحة ٤٦ ـ ٥٣ ـ (مخطوط بدار الكتب). ونظراً لأهمية هذا النص رأينا نقله برمته كضميمة في آخر هذا الكتاب.

الملتقى عند طلوع الشمس. فلما وصل غلامي إلى عسكر المسلمين وجدهم خائفين من التتار خوفاً عظيماً، فاجتمع ببعض الأمراء الذين عرفته بهم، وعرفهم ما أوصيتهم به، وكنت قلت في كلامي: قل للأمراء، لا تخافوا، ها أنا وأصحابي والملك الأشرف، ننهزم بين أيديكم، والله وكذلك كان. فلما سمع الأمراء كلام غلامي، قال بعضهم لبعض: «لا يكون هذا معمولية على المسلمين». فلما كان ملتقى الجمعين على عين جالوت، طلعت الشمس علينا وظلت عساكر الإسلام، كان أول سنجق سبق أحمر وأبيض، وكانوا لابسين العدد المليحة. وأشرقت الشمس على تلك العدد، فطلبني كتبغا وقد بهت هو والتتار الذين معه لكثرة تلك العساكر وحسن ما عليهم وجمالهم وهم ينحدرون من الجبل، وقال لي: «يا صارم، هذا رنك[1] من؟ «قلت سنقر الرمي». ثم ظهرت سناحق صفر، قال: «هذا رنك من؟» قلت بلبان الرشيدي. ثم تتابعت الأطلاب أولاً فأول وانحدروا من سفح الجبل، ودقت

---

(١)رنك كلمة فارسية بمعنى لون وقد استعملت في أوروبا في العصور الوسطى كشعار للأشخاص والأسر بينما استعملت في المشرق كشعار للوظائف وكان من عادة كل أمير مملوكي كبير أو صغير أن يكون له رنك يخصه، والرنك شعار فيه رسوم تدل على الوظيفة التي شغلها الأمير وقت ترقيته إلى مرتبة الأمرة أو على الوظيفة التي يؤثر أن يعرف بها من بين الوظائف التي تقلب فيها وهو لا يختلف عن رنوك الأسرة الإقطاعية في أوروبا في العصور الوسطى إلا من حيث كونها شخصية ومن حيث دلالتها على الوظائف. فكان لوظيفة الدوادار رسم دواة، وللساقي رسم كأس وهو المعروف في العصر المملوكي باسم هناب، والجاشنكير (الذواق) وسم خوان وللسلاح دارسيف، وللبند قدار سيف، وللجمدار بقجة وهكذا وقد جعل الأمراء هذه الرنوك دهاناً على أبواب بيوتهم والأماكن المنسوبة إليهم كمطابخ السكر وشون الغلال التابعة لهم والأملاك والمراكب وغير ذلك، وعلى قماش خيولهم من جوخ ملون مقصوص ثم على قماش جمالهم من خيوط صوف ملونة، وربما جعلوها على السيوف والأقواس الخاصة بهم ومماليكهم أيضاً.

راجع (القلقشندي - صبح الأعشى - جـ ٤ ص ٦٣، المقريزي - السلوك جـ ١، ص ٦٧٣ جلشية رقم ٤، وكذلك Fox Davies: Acamplete Guide to Heraldry (p. 1-12.

الكوسات والطبلخانات، وامتلأ الوادي والبر من العياط وغابت الفلاحين وأهل القرية والبلدان من كل جانب، وكنت غراً بمعرفة رنوك المسلمين، فصار كتبغا يسألني «هذا رنك من؟» فصرت أي شيء طلع على لساني قلته، ثم أن التتار انحازوا إلى الجبل، وفتح الله ونصر هذه الملة المحمدية بالمماليك الترك البحرية، ولم يسلم من التتر من يرد الخبر إلى هلاوون(١)، ولكن قتل الجميع ولم يرد خبرهم إلا من كان مقيماً بدمشق أو حلب».

وتزيد المصادر العربية المعاصرة في تفاصيل هذه الوقعة على رواية صارم الدين، فتقول بأن المغول انقضوا على المصريين في بادىء الأمر وتمكنوا من تشتيت شمل جناحهم الأيسر، فاضطرب المصريون وتزلزلوا زلزالاً شديداً، وبانت الكسرة عليهم، وعند ذلك ألقى السلطان قطز خوذته عن رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته «واإسلاماه» وقاد الهجوم بنفسه فضرب بذلك مثلاً من أمثلة الشجاعة النادرة إذ سرعان ما التفت حوله القوات المصرية وحملوا على المغول حملة صادقة، فاختل توازنهم وارتدوا إلى التلال المجاورة بعد أن تركوا قائدهم كتبغا صريعاً في الميدان وابنه أسيراً في أيدي المماليك، ولقد عاد المغول وانتظموا ثانية عند بيسان فاشتبك معهم المصريون في معركة ثانية، واشتدت وطأة القتال، وعاد السلطان قطز يصيح صيحة عظيمة سمعها معظم المعسكر وهو يقول «واإسلاماه» ثلاث مرات «يا الله، انصر عبدك قطز على التتار». عند ذلك مالت كفة النصر إلى جانب الجيوش المصرية، وانتهى أمر هذه الواقعة الدامية التي اهتز فيها ميزان النصر والهزيمة مرات إلى نصر المماليك وهزيمة المغول لأول مرة في تاريخهم.

---

(١)راجع المقريزي ـ السلوك جـ ١ ص ٤٣١، أبو المحاسن ـ النجوم الزاهرة ـ جـ ٧، ص ٧٩، أبو الفداء ـ جـ ٣، ص ٣٢٤، عبد الله بن أيبك ـ كنز الدرر ـ جـ ٨ ق ١، ص ٣٤ ـ ٤٣، ابن إياس ـ بدائع الزهور ـ جـ ١ ص ٩٧). وقال أبو شامة في هذا الصدد:

غلب التتار على البلاد فجاءهم ... من مصر تركي يجود بنفسه
بالشام أهلكهم وبدد شملهم ... ولكل شيء آفة من جنسه

عند ذلك نزل السلطان قطز عن فرسه ومرغ وجهه على الأرض وقبلها وصلى ركعتين شكراً لله ثم ركب لينظر عاقبة المغول(١) .

هذا وقد أورد القلقشندي (جـ ٧ ص ٣٦٠) رسالة فريدة على لسان الملك المظفر قطز إلى الملك المنصور نور الدين سلطان الدولة الرسولية باليمن يبشره فيها بهزيمة التتار، والرسالة قطعة أدبية في وصف المعركة من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر. ويعترف القلقشندي بأنه تلقفها من أفواه بعض الناس كان قد عثر عليها في بعض المجاميع فحفظها منه، وقد رأينا نقلها كضميمة في آخر الكتاب.

ولقد كانت وقعة عين جالوت الحلقة الأولى في سلسلة الوقائع بين التتار ودولة المماليك كما أنها تعتبر تجربة حربية بين أسلوبين وفنين من فنون الحرب في العصور الوسطى.

ومن الواضح أن هذه الواقعة التي انتهت بهزيمة المغول لأول مرة في تاريخهم، بددت عقدة المناعة الحربية التي كانت سر انتصاراتهم منذ أيام جنكيزخان، فانقشعت عن العالم خرافة الاعتقاد بأن المغول قوم لا ينهزمون(٢) ، على أن الأهمية الكبرى لهذه الواقعة هي أنها نصر لجيوش دولة لا زالت في دور التأسيس تتلمس مختلف الوسائل التي تدعم بها أركانها، فجاء انتصار المماليك في تلك الواقعة خدمة كبرى لهذه الدولة الناشئة، وعاملاً من العوامل المؤسسة لها إذ أخذ العالم الإسلامي ينظر إلى الدولة المملوكية نظرة كلها إجلال وعطف. وروايات المؤرخين عن هذه الحملة التي تجاوزت نتائجها الخاطفة كل آمال المسلمين، تشهد بفضل مصر ودولة الماليك، فيروي الخزرجي مثلاً أن المظفر نور الدين سلطان دولة بني رسول باليمن، حج بجيش كبير في العام التالي للموقعة أي في سنة ٦٥٩هـ (١٢٦١م). وهناك في الحجاز طلعت أعلامه الشريفة وأعلام سلطان مصر.

---

(١)انظر: (أبو شامة ـ الذيل على الروضتين ـ ص ٢٠٨).

(٢)راجع: Browne: Aliterary History of Persia III p. 6.6

فقال له أحد الأمراء: «هلا أطلعت أعلامك يا مولانا السلطان قبل أعلام المصريين؟ «فقال له سلطان اليمن: «أتراني أؤخر أعلام ملك كسر التتار بالأمس، وأقدم أعلامي لحضوري»، هذا التصريح الجميل يدل على أن دولة المماليك في مصر قد اكتسبت عطفاً ونفوذاً في العالم نتيجة لهذا النصر[١].

ويقول أبو الفداء في هذا المعنى أيضاً: «وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم، فإن القلوب قد يئست من النصرة على التتر، لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام، ولأنهم ما قصدوا إقليماً إلا فتحوه ولا عسكراً إلا هزموه»[٢].

ومما تجب ملاحظته كذلك، أن نصرة عين جالوت كانت قد سبقتها نصرة سلبية ليس للمماليك أنفسهم فيها فضل، وهي أن المقاومة الأيوبية التي ظلت تعارض قيام دولة المماليك، وتلح في المطالبة بعرش مصر دونها، قد انهارت أمام الغزو المغولي، وبدا على ملوك الأيوبيين ضعف وتخاذل في الوقت الذي أبدى فيه المماليك ثباتاً وصلاحية للبقاء.

وعلى الرغم من أنه ليس في مقدورنا أن نحكم على مصير مشروع فتح مصر بالنسبة لأوروبا المسيحية التي أخذت تبني آمالاً كبيرة على انتصار المغول على المسلمين[٣]، فإن بعض المؤرخين الأوروبيين ذهبوا في تقدير أهمية عين جالوت إلى أنها لم تنقذ مصر والشام أو بالأحرى دولة المماليك فحسب، بل إنها أنقذت العالم الأوروبي والمدنية الأوروبية من شر لم يكن لأحد من ملوك أوروبا وقتئذٍ قبل بدفعه[٤] هذا، ومن المعروف أن طريق

---

(١)انظر (الخزرجي: العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ص ٦٩).

(٢)أبو الفداء: المختصر في تاريخ البشر، جـ ٣ ص ٢١٤).

(٣)يشهد بذلك ما قاله أسقف مدينة ونشستر من أنه يأمل أن يفني المسلمون والمغول بعضهم بعضاً، وعندئذ يقيم المسيحيون على أشلائهم كنيسة كاثوليكية عالمية موحدة راجع:

(٤)راجع: Cambrige Med. History Vol. Iv p. 628, 643.
(Brown: A literary History of Persia, P. 6.

الصحراء الغربية هو الطريق الطبيعي المعروف لدى الغزاة والفاتحين الذين قاموا بغزو أوروبا من الجنوب في العصور المختلفة، فلا أقل من أن يسلكه هولاكو بجحافله أيضاً كما سلكه هانيبال وموسى بن نصير وطارق بن زياد والأغالبة والفاطميون وغيرهم من قبل وكما سلكه القائد الإنجليزي منتجومري من بعد في الحرب العالمية الثانية.

والواقع أننا إذا قارنا موقعة عين جالوت بالوقائع الحربية الحاسمة في العصور الحديثة مثل واقعة المارن في الحرب العالمية الأولى، ومعركة العلمين في الحرب العالمية الثانية، نجد أن عين جالوت كانت أقوى أثراً في تاريخ البشرية من كل تلك المعارك لأنها لم تكن حرباً بين شعوب راقية متحضرة، بل كانت حرباً أحد الطرفين فيها ـ وهم المغول ـ شعب بدائي بربري جبل على التخريب وسفك الدماء في كل مكان حل فيه. فانتصاره في تلك الواقعة كان معناه القضاء المبرم على الحضارة الشرقية والغربية معاً.

وكان نصر عين جالوت إشارة لخلاص الشام من أيدي المغول، إذ أسرع ولاة المغول بالهرب قبل أن يقعوا في أيدي الشاميين الذين هبوا للانتقام، وهذا بعض السر في استيلاء قطز في عدة أسابيع على البلاد الشامية كلها حيث أقيمت له الخطبة في المساجد حتى مدينة حلب ومدن الفرات. وقامت في مدينة دمشق ـ لما وصلتها أخبار عين جالوت ـ مذبحة كبرى في التتر ومن عاونهم على المسلمين من سكانها، ونخص بالذكر منهم النصارى الذين تهجموا على الإسلام، واعتدوا على المسلمين في خلال فترة الاحتلال المغولي للمدينة، ولم يستتب النظام والأمن في هذه المدينة إلا بعد أن دخلها قطز على رأس الجيوش المصرية والشامية الظافرة سبتمبر سنة ١٢٦٠م (٢٧ رمضان سنة ٦٥٨هـ).

أخذ قطز يعمل على إعادة الأمن إلى نصابه في جميع المدن الشامية، ومن سخرية الحوادث أنه أخذ يعيد بعض أمراء البيت الأيوبي إلى ممالكهم الصغيرة في الشام مثل الملك المنصور صاحب حماة، والملك الأشرف

موسى صاحب حمص، بعد أن أخذ عليهم المواثيق بالولاء، وبدفع الجزية. كما أنه أنعم على أعوانه أمراء المماليك، فأقطع الأمراء الصالحية والمعزية اقطاعات جليلة بالشام، ورتب الأمير شمس الدين أقوش البرلي[١] العزيزي أميراً بالساحل وغزة ومعه عدة من المماليك العزيزية[٢]، وأقام قطز الأمير علم الدين سنجر كنائب له في دمشق أما مدينة حلب التي أضحى صاحبها الملك الناصر الأيوبي أسيراً عند التتار، فقد منح قطز نيابتها إلى الملك السعيد علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ الذي فضل أن يترك بلاده ـ الموصل ـ عن الاعتراف بسيادة هولاكو[٣] وكان غرض قطز من تلك المنحة، أن يصبح الملك السعيد وسيلة لتتبع حركات المغول وأخبارهم عن طريق مكاتباته مع أخيه الصالح بن لؤلؤ صاحب الموصل[٤]، على أن تلك المنحة أدت إلى هلاك قطز، إذ أن الأمير بيبرس البند قداري ـ الذي أبدى شجاعة في عين جالوت لا تقل عن شجاعة السلطان نفسه ـ كان يطمع في نيابة حلب، وطلبها فعلاً من قطز، فلما رفض السلطان أن يجيبه إلى طلبه، تنكر له بيبرس، واتفق مع جماعة من الأمراء على قتله وظل يترقب الفرصة لتنفيذ غرضه. ثم واتته

(١)لفظ البرلي محرف عن الكلمة التركية برنولو ومعناها ذو الأنف الكبير أو الأحمر ـ (المقريزي: السلوك ـ جـ ١، ص ٤٢٣ حاشية رقم ٢).

(٢)سبق أن أشرنا إلى أن المماليك العزيزية هم مماليك الملك العزيز محمد صاحب حلب. وقد انتقلوا بعد وفاته إلى خدمة ابنه الملك الناصر يوسف، وفي أثناء واقعة العباسة التي دارت بين الناصر وأيبك في فبراير سنة ١٢٥٤م (رجب سنة ٦٤٨ هـ) خامر البرلي وجماعة من العزيزية على ابن أستاذهم وصاروا مع أيبك، ثم إنهم قصدوا بعد ذلك اغتيال أيبك، وعلم بهم «فقبض على بعضهم، وهرب البعض الآخر وكان البرلي من جملة من سلم وهرب إلى الشام، فلما وصل إلى الملك الناصر اعتقله بقلعة عجلون، وعندما اجتاح التتار الشام، أطلق الناصر سراحه قبل فراره من دمشق، فالتجأ البرلي وأصحابه إلى مصر. واشترك في واقعة عين جالوت وكافأه قطز بعد انتصاره فولاه الساحل وغزة وصار مقره نابلس».

(٣) Eney of Islam art Kituz

(٤)أبو الفداء ـ جـ ٣ وص ٢١٦.

الفرصة أثناء عودة السلطان إلى مصر وخروجه للصيد بالقرب من الصالحية، ففي أثناء رجوعه من صيده يريد الدهليز السلطاني، وثب عليه بيبرس في عدة من المماليك، وقتلوه بسيوفهم في ١٢ أكتوبر سنة ١٩٦٠م (١٥ ذي القعدة سنة ٦٥٨هـ)، واتفق الأمراء بعد ذلك على بيبرس فأقاموه سلطاناً ولقب بالملك الظاهر، ثم سار السلطان الجديد في الجيوش حتى دخل مدينة القاهرة بلا مقاومة وجلس في إيوان القلعة بدست المملكة في ٢٦ أكتوبر (١٩ ذي القعدة) من نفس السنة.

وهكذا اغتيل السلطان قطز، صاحب الفضل في تدعيم الدولة المملوكية من الناحية الخارجية ولم تستقبله مملكته استقبال الفاتح المنتصر، فحرم بذلك من لذة التمتع بثمرة انتصاره، ويروي أبو المحاسن أن قطز «بقي ملقى بالعراء، فدفنه بعض من كان في خدمته بالقصير، وكان قبره يقصد للزيارة دائماً. . . وكان كثير الترحم عليه والدعاء على من قتله، فلما بلغ بيبرس ذلك، أمر بنبشه، ونقله إلى غير ذلك المكان[١] ، وعفى أثره، ولم يعف خبره[٢] .

أما أسباب مصرع قطز فلا شك أنها أعمق بكثير من قصة رفضه نيابة حلب لبيبرس، وأن هذا الرفض لم يعد أن يكون سبباً مباشراً لمقتله عند الحدود المصرية. والواقع أن تلك الأسباب قديمة ترجع إلى أيام السلطان أيبك وتشريده معظم المماليك البحرية الصالحية، وقتله زعيمهم اقطاي، إذ صار مماليك أيبك وهم المعزية ومنهم قطز، أصحاب النفوذ والسلطان في مصر واستمر العداء بين المعزية والبحرية قائماً حتى أغار المغول على مصر، فاضطر المماليك جميعاً إلى الاتحاد بدليل قول العيني أن المماليك البحرية

(١)يروي المقريزي (السلوك ـ جـ ١ ص ٤٣٥) ـ وحمل قطز بعد ذلك إلى القاهرة فدفن بالقرب من زاوية الشيخ تقي الدين قبل أن تعمر، ثم نقله الحاج قطز الظاهري إلى القرافة ودفن قريباً من زاوية ابن عبود».

(٢)أبو المحاسن ـ النجوم الزاهرة ـ جـ ٧، ص ٨٦ ـ ٨٧، راجع أيضاً (الكتبي: فوات الوفيات ـ جـ ٢ ص ١٣٣).

انحازوا إلى قطز المعزي «لما تعذر عليهم المقام بالشام وللتناصر على صيانة الإسلام، لا لأنهم أخلصوا الولاء له»[1] فلما انتصر المماليك على المغول في عين جالوت، ولم تبق هناك ضرورة للاتحاد وظهر العداء القديم بين الطائفتين من جديد، وكان من نتائج ذلك مقتل قطز المعزي على يد بيبرس الصالحي، وهذا هو المعنى الحقيقي لما أورده ابن أبي الفضائل تعقيباً على مقتل قطز حين قال «. . . فلحق الناس خوف عظيم من عودة البحرية إلى ما كانوا عليه من الفساد»[2] .

وروى ابن أياس في هذا الصدد ـ «ولما تم أمر بيبرس في السلطنة، رسم بإحضار المماليك البحرية الذين كانوا منفيين في البلاد»، كما روى في موضع آخر وكذلك المقريزي، أن المماليك المعزية حاولوا اغتيال بيبرس عقب عودته إلى القاهرة، فقتل بعضهم، وسجن ونفي البعض الآخر[3] .

وهذه النصوص إن دلت على شيء فإنما تدل على أن مقتل قطز كان نتيجة لعداء قديم مستحكم بين المماليك البحرية الصالحية والمماليك المعزية.

---

(١)العيني ـ عقد الجمان ـ (الجزء الخاص بحوادث ٦٥٦ ـ ٦٧٣هـ)، ورقة ٤٣٨.

(٢)ابن أبي الفضائل ـ النهج السديد ص ٤٠٩ ـ ٤١٠ أنظر كذلك (المقريزي : السلوك ـ جـ ١، ص ٤٣٧.

(٣)ابن أياس ـ بدائع الزهور ـ جـ ١، ٩٩ ـ ١٠٠، المقريزي، السلوك جـ ١ ص ٤٤٧.

الفصل السادس

السلطان الظاهر بيبرس

(٦٥٨ ـ ٦٧٦هـ = ١٢٦٠ ـ ١٢٧٧م)

تدعيم أركان الدولة المملوكية الأولى في مصر والشام

تغلبت الدولة المملوكية الأولى على البدو في مصر، كما تغلبت على معظم أبناء البيت الأيوبي بالشام، ثم بينت للعالم مقدرتها الحربية بالانتصار على المغول في عين جالوت، وأحاطت نفسها منذ قيامها في مصر والشام بآيات الولاء للخلافة العباسية حتى اعترف الخلفاء بسلاطينها اعترافاً تاماً، فأكسبهم ذلك الاعتراف صفة شرعية للحكم وأحاطهم بحماية تحميهم ممن عسى أن يفكر في انتزاع السلطنة منهم، تلك عوامل البقاء التي نعمت بها الدولة المملوكية الأولى عندما صار الظاهر بيبرس سلطاناً على مصر (٦٥٨ ـ ٦٧٦هـ = ١٢٦٠ ـ ١٢٧٧م) ثم أضاف السلطان الجديد عوامل جديدة لا يستطيع القيام بها إلا حاكم بصير موهوب قوي الشكيمة شديد العزم. وبتلك العوامل أتم بيبرس بناء الدعائم التي أقام عليها سلاطين المماليك بعده تاريخهم.

١ ـ القضاء على الثورات الداخلية:

وأول ما قابل بيبرس أثر إعلانه سلطاناً، ثورتان داخليتان في وقت

واحد تقريباً أواخر سنة ١٢٦٠م (٦٥٨هـ) إحداهما بدمشق، والأخرى في القاهرة فاستغلهما بيبرس استغلالاً قوى دولة المماليك داخلياً وخارجياً في آن واحد.

أما الثورة الأولى، فمنبعها الاحتجاج على ما حدث من مقتل قطز والأنفه مما فعله بيبرس دون أن يستشير من تنبغي استشارته. وقام الأمير علم الدين سنجر الحلبي الذي استنابه قطز بدمشق، ونادى بنفسه سلطاناً على دمشق في نوفمبر سنة ١٢٦٠م (ذي الحجة سنة ٦٥٨هـ) وتلقب بالملك المجاهد، وركب بشعار السلطنة، وخطب له على المنابر وضربت السكة باسمه، وأخذ في تحصين قلعة دمشق استعداداً للقتال، ولم يكتف بذلك، بل أرسل إلى الأمير حسام الدين لاجين العزيزي نائب حلب، والملك المنصور الأيوبي صاحب حماة، والملك الأشرف موسى صاحب حمص، ليدخلوا في طاعته ويشدوا أزره، فرفضوا إجابة طلبه خشية بيبرس فيما يبدو. ولم تستطع رسل السلطان وكتبه إقناع الثائر بلزوم الطاعة، فقرر بيبرس أن يجرد جيشاً للقضاء على تلك الثورة قبل أن تستفحل، وعاد الجيش بنائب دمشق إلى القاهرة مقرناً في الأصفاد في يناير سنة ١٢٦١م (١٦ صفر سنة ٦٥٩هـ) حيث اعتقل بقلعة الجبل بعد شهر واحد من إعلانه الثورة، وولى بيبرس أستاذه علاء الدين البند قداري نيابة دمشق التي انضوت منذ ذلك الوقت تحت لوائه. وبذا قضى السلطان في سرعة وعزم على إحدى الحركات الانفصالية في تاريخ السلطنة المملوكية، مما برهن على سلامة دولة المماليك وصلاحيتها للبقاء.

أما الثورة الثانية فزعيمها رجل شيعي يعرف بالكوراني[١] ، أظهر الزهد والورع، وسكن قبة بجبل المقطم، وتودد إليه الغلمان والركابدارية[٢]

---

(١)نسبة إلى كوران من قرى اسفرايين. واسفرايين بلدة حصينة من نواحي نيسابور على منتصف الطريق من جرجان، راجع (ياقوت: معجم البلدان جـ ١ ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧، جـ ٤، ص ٣١٩.

(٢)الركابدارية هم الذين يحملون الغاشية بين يدي السلطان في المواكب وهم تابعون =

وجماعة من السودان، فأخذ يدعوهم ويحرضهم على قلب نظام الحكم المملوكي السني واستبداله بحكم شيعي، وأقطعهم الاقطاعات وكتب لهم الرقاع، وتمخضت تلك الدعوة أو الدعاية عن ثورة سنة ١٢٦٠م (أواخر سنة ٦٥٨هـ). فشق الثوار شوارع القاهرة ليلاً وهم ينادون: «يا آل علي» وفتحوا حوانيت السيوفيين بين القصرين، وأخذوا ما فيها من سلاح، واقتحموا اصطبلات الجنود، وأخذوا منها الخيول. وهنا برهن بيبرس على أنه لا يؤخذ بهذه الطريقة، فأرسل من الجند مما كفل الحوطة على الثوار والقبض على جميع زعمائهم، حتى إذا خمدت الثورة، أمر السلطان بصلب الكوراني وغيره من الزعماء على باب زويلة. وهكذا قضى بيبرس قضاء مبرماً على البقية الباقية من الحركة التي ظلت تعمل على هدم السنية في مصر وغيرها منذ عهد صلاح الدين بدليل خلو المراجع العربية من أخبار أية حركة مشابهة في مصر أو الشام طوال العهد المملوكي الأول والثاني سواء، وهذا الدليل بدوره يدل على مبلغ إمعان بيبرس في هدم الثورة، ما جعل توفيقه في إخمادها جديراً بأن يعتبر عاملاً من عوامل تدعيم دولة المماليك.

٢ ـ إحياء الخلافة العباسية في القاهرة وما ترتب عليه من أعمال دينية ومادية:

على أن بيبرس ليس صاحب فضل على السنة في إخماد تلك الحركة الشيعية فحسب، بل إنه جعل الدولة المملوكية تبدو كذلك صاحب فضل على العالم الإسلامي، ويظهر ذلك بوضوح في إظهار تعلقه بإحياء الخلافة العباسية السنية المنهارة، إذ نجم عن زوالها من بغداد مشكلة كبرى وهي في أي جهة تكون الخلافة، ولمن تكون الخلافة من أبناء البيت العباسي الذين تشتتوا في بوادي العراق والشرق الأدنى بعد هذه الكارثة؟.

= للركاب خاناه وهو بيت الركاب الذي تكون به السروج واللجم، وله موظف خاص يسمى مهتار الركاب خاناه القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٤ ص ٧، ١٢).

والمتواتر في الكتب أن السلطان بيبرس أول من فكر في إحياء الخلافة ليقيلها من عثرتها الدامية التي لحقتها على يد هولاكو وجنوده. وليظهر أمام العالم الإسلامي بمظهر الحامي للخلافة، وليجعل لنفسه شيئاً من النفوذ والزعامة على البلاد الإسلامية، كما يجعل من دولته الناشئة دولة شرعية يجب المحافظة عليها.

والواقع أن بيبرس ليس أول من فكر في ذلك المشروع، من الملوك والسلاطين الذين تداولوا حكم مصر والشام، وإنما هو الذي نجح في تحقيقه فقط، والأدلة على ذلك كثيرة، فقد حاول أحمد بن طولون اجتذاب الخليفة المعتمد إلى مصر سنة ٢٦٩هـ/ ٨٨٢م) حينما استبد بالخليفة أخوه وولى عهده الأمير أحمد الموفق، فأرسل إليه كتاباً يقول فيه «قد منعني الطعام والشراب والنوم خوفي على أمير المؤمنين من مكروه يلحقه مع ماله في عنقي من الإيمان المؤكدة. وقد اجتمع عندي مائة ألف عنان أنجاد، وأنا أرى لسيدي أمير المؤمنين الانجذاب إلى مصر فإن أمره يرجع بعد الامتهان إلى نهاية العز، ولا يتهيأ لأخيه (الموفق) فيه شيء مما يخاف عليه في كل لحظة»[(١)] . ولا شك أن أحمد بن طولون أراد بذلك أن يدعم دولته الجديدة التي أسسها في مصر والشام، وأن يمتنع عن إرسال الجزية السنوية إلى دار الخلافة، بالإضافة إلى تحطيم منافسيه في بغداد. غير أن مشروع ابن طولون لم يتحقق، إذ أن الموفق قبض على أخيه الخليفة في الموصل وأعاده إلى بغداد.

كذلك حاول محمد الإخشيد نفس المحاولة حينما ذهب إلى الشام سنة ٣٣٣هـ (٩٤٤م) لإغاثة الخليفة المتقي من جور الحمدانيين بحلب، ومن استبداد الأمراء الأتراك في بغداد فلقيه بالرقة في شمال الفرات، وترجل عن بعد وهو بسيفه ومنطقته وجعبته على سبيل الخدمة وقبل الأرض مراراً، ثم تقدم فقبل يده، وطلب منه أن يصحبه إلى مصر، ولكن الخليفة عز عليه آخر

(١)عبد الله البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص ٢٨١،

الأمر أن يترك عاصمته ومقر أسرته فرفض هذا العرض، وعاد الإخشيد إلى مصر، على حين عاد الخليفة إلى بغداد، ولا شك أن الإخشيد رأى أن في اجتذاب الخلافة العباسية إلى مصر ما يقوي دولته التي أسسها في مصر[1] . كذلك يقال إن الملك الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق فكر في إحياء الخلافة العباسية أوائل سنة ٦٥٨هـ، وأنه ما كاد يعلم من عيسى بن مهنا، أمير العربان بالأطراف الشرقية والشمالية المتاخمة للحدود العراقية، أن أميراً عباسياً واسمه أبو العباس أحمد يريد القدوم إلى دمشق، حتى أرسل يستدعيه إليه، لكن الناصر فوجىء بقدوم التتار إلى الشام، فانصرف عن أبـي العباس، وعاد الأمير العباسي ثانية إلى عيسى بن مهنا. ثم أن السلطان قطز فكر سنة ٦٥٨هـ في إعادة الخلافة إلى بغداد، بدليل أنه بعد واقعة عين جالوت استدعى الأمير أبا العباس أحمد المذكور إلى دمشق وبايعه بالخلافة، وقال للأمير عيسى بن مهنا: «إذا رجعنا إلى مصر أنفذه إلينا لنعيده إن شاء الله» ولكن السلطان قطز قتل قبل تحقيق غرضه، فسار أبو العباس إلى الحدود الفراتية حيث تمكن بمن معه من عرب وأتباع أن يحتل بعض المدن هناك مثل عانه والحديثة والانبار وأن ينتصر على سرية من عسكر التتار.

من هذا وذاك نرى أن ملوك المسلمين قبل بيبرس رغبوا في إحياء الخلافة العباسية، وأن تلك الرغبة ظلت قائمة حتى تولى بيبرس البندقداري سلطنة مصر، فشرع في إخراج المشروع إلى حيز التنفيذ، ولذا أرسل في طلب أبـي العباس أحمد وكان لا يزال بالعراق يحاول محاولته، فقدم أبو العباس إلى القاهرة. غير أن أبا العباس كان قليل الحظ، إذ سبقه إلى حضرة بيبرس زميل آخر من أبناء البيت العباسي واسمه أبو القاسم أحمد، ففضل هو الرجوع إلى الشام وقصد حلب حيث بايعه أميرها الثائر على بيبرس شمس الدين أقوش البرلي العزيزي[2] ، ولقبه الحاكم بأمر الله، ثم أمده بسبعمائة

(١)محمد مصطفى زيادة: ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد الرابع سنة ١٩٣٦ .

(٢)لم يستمر عصيان أقوش البرلي طويلاً إذ تمكنت الجيوش المصرية من إخماد ثورته =

فارس من التركمان. فسار بهم الخليفة إلى بلدة عانة على الحدود العراقية، لمناوشة التتار مرة أخرى.

أما أبو القاسم أحمد الذي اتفق له خط الوصول إلى القاهرة، فتلقاه السلطان بيبرس خارج العاصمة في يونيو سنة ١٢٦١م (رجب سنة ٦٥٩هـ) ومعه الوزير بهاء الدين بن حنا[١] . وقاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز[٢] والعلماء والأعيان والشهود والمؤذنون حتى اليهود بتوراتهم والنصارى بإنجيلهم، وكان يوماً مشهوداً بالغ فيه السلطان باحترام الخليفة وإكرامه وأنزله بقلعة الجبل. وبعد عدة أيام (في ١٣ رجب) عقد السلطان مجلساً عاماً بالديوان الكبير بالقلعة حضره القضاة والعلماء وجميع رجال الدولة وكبار التجار ووجوه الناس، وحضر أيضاً شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام، فمثلوا كلهم بحضرة الإمام العباسي، وجلس السلطان متأدباً بين يديه. ثم استدعى جماعة من العربان والبغاددة الذين قدموا مع الأمير العباسي من

= بحلب سنة ٦٦٠هـ فدخل في طاعة بيبرس الذي سرعان ما تغير عليه وقتله سنة ٦٦١هـ راجع (أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ ٣ ص ٢١٧ ـ ٢٢٠، ٢٢٣).

(١) بهاء الدين بن حنا بكسر الحاء، يؤثر عنه أنه استدعى العالم السكندري شرف الدين محمد البوصيري وسمع قصيدته المعروفة باسم: البردة النبوية في مدح خير البرية، وهو قائماً حافياً عاري الرأس. راجع (الكتبي: فوات جـ ٢ ص ٢٠٥).

(٢) هو تاج الدين عبد الوهاب بن خلف بن بدر العلامي المعروف بابن بنت الأعز والعلامي نسبة إلى علامة وهي قبيلة من لخم، أما الأعز فهو جده لأمه الصاحب الأعز فخر الدين وزير الملك الكامل الأيوبي. ولقد درس تاج الدين بالإسكندرية الحساب فمهر فيه وولاه السلطان شاهداً لبيت المال. وفي عهد الملك الصالح أيوب تولى نظر الدواوين ثم قضاء مصر سنة ٦٥٤هـ ثم ولي الوزارة سنة ٦٥٥هـ ثم عزله السلطان قطز في نفس السنة وظل بعيداً عن مناصب الدولة حتى أعاد بيبرس إلى منصب قاضي القضاة بالديار المصرية سنة ٦٥٩هـ وظل به حتى وفاته سنة ٦٦٥هـ راجع (السبكي: طبقات الشافعية جـ ٥ ص ١٣٣ ـ ١٣٦، ابن حجر العسقلاني: رفع الأصر عن قضاة مصر ص ١٧٦ ـ ١٧٨).

بغداد، فشهدوا أمام هذا الجمع أن الأمير أبا القاسم أحمد، ابن الخليفة الظاهر أمير المؤمنين، كما شهد بالاستفاضة من حضر من القضاة. عند ذلك أعلن قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز قبوله لشهادات القوم وسجل على نفسه بثبوت النسبة الشريفة إلى العباس بن عبد المطلب، وقام فبايع أبا القاسم بالخلافة، ثم تبعه السلطان بيبرس فبايعه على العمل بكتاب الله وسنة رسوله، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله، وأخذ أموال الله بحقها وصرفها في مستحقها. ثم بايعه بعد السلطان الشيخ عز الدين بن عبد السلام[1] وجميع من حضر المجلس من الأمراء والقضاة والفقهاء ورجال الدولة. ولقب الخليفة بالمستنصر بالله، وهو لقب أخيه الخليفة المستنصر (١٢٢٦ ـ ١٢٤٢م) باني المدرسة المستنصرية ببغداد[2] . ولما تمت البيعة، قلد الخليفة المستنصر السلطان بيبرس البلاد الإسلامية وما ينضاف إليها، وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار. وبعد ذلك قام جميع من حضر فبايعوا الخليفة على اختلاف طبقاتهم. ثم كتب السلطان بيبرس في نفس اليوم إلى الملوك والنواب بسائر الممالك أن يأخذوا البيعة من قبلهم للخليفة المستنصر بالله، وأن يدعى له على المنابر ثم يدعى للسلطان بعده، وأن تنقش السكة باسمهما.

وعلى الرغم من حرص السلطان بيبرس على إثبات نسب الخليفة الجديد في مجلس عام يفهم من عبارات بعض المؤرخين أن شيئاً من الشك في نسبة الخليفة الجديد إلى العباسيين قد ساور الكثيرين[3] ، فيروي أبو الفداء في تاريخه تحت عنوان «ذكر مبايعة شخص بالخلافة»، وأنه في رجب سنة ٦٥٩هـ «قدم إلى مصر جماعة من العرب ومعهم شخص أسود اللون اسمه

---

(١)ورد في بعض المصادر أن أول من بايع الخليفة المستنصر هو الشيخ عز الدين بن عبد السلام ثم تلاه السلطان في المبايعة. (السيوطي: حسن المحاضرة ص ٤٤، السبكي: المرجع جـ ٥ ص ٨٤).

(٢)أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ٢١٣، المقريزي: السلوك ـ جـ ١ ص ٤٥١.

(٣)زيادة: بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك في مصر.

أحمد، وزعموا أنه ابن الإمام الظاهر بالله، ابن الإمام الناصر، فيكون عم المستعصم. . .»[١] كذلك يسمي مفضل بن أبـي الفضائل هذا الخليفة باسم «المستنصر الأسود»[٢] ، بينما يروي أبو شامة وهو المؤرخ المعاصر المتوفى سنة ٦٦٥هـ عبارة لا تخلو من الشك والسخرية وهي «وفي تاسع عشر رجب قرىء بدمشق بالمدرسة العادلية كتاب ورد من مصر من السلطان الملك الظاهر بيبرس يتضمن أنه قدم عليهم بمصر أبو القاسم أحمد بن الظاهر محمد. . . أمير المنافقين»[٣] . ويظهر أن هذا الشك تسرب إلى العامة من الناس بالقاهرة وغيرها بدليل تلقيبهم للمستنصر بلقب الزراتيني أو الزرابيني وهو لقب غريب نسبه أبو الفداء إلى لفظ زربون المستعمل في مصر للدلالة على الشخص الأسود.

وكيفما كان الأمر في نسب الخليفة الجديد، فلا ريب أن بيبرس كان في حاجة ماسة إلى تدعيم سلطانه بتلك المظاهرة الدينية التي قام بها في صورة إحياء الخلافة العباسية متغاضياً عما يشاع عن الخليفة ونسبه. وتدل جميع النصوص الواردة في المراجع المعاصرة على أن السلطان بيبرس كان على استعداد بأن يمد الخلافة بكل ما يستطيع من جند ومال ومعونة حربية في سبيل إعادتها وإقامتها في بغداد. وشرع بيبرس فعلاً في تجهيز الخليفة بكل المعدات واللوازم من جند وسلاح ومال وكراع لاسترداد بغداد من التتر وإرجاع الخلافة إليها. ويقال أن مبلغ ما أنفق في هذا المشروع لا يقل عن

(١)أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر جـ ٤ ص ٨، ويلاحظ أن أبا الفداء ولد سنة ٦٧٢ هـ أي بعد مجيء المستنصر إلى القاهرة بثلاث عشرة سنة فقط فيكون قد سمع أشباه هذا الشك من المعاصرين له والمتقدمين عليه في السن.

(٢)ابن أبـي الفضائل: النهج السدي، ص ٥.

(٣)راجع النسخة الخطية من كتاب (أبو شامة: الذيل على الروضتين، ورقة ٢٣٥، بمكتبة البلدية بالإسكندرية، ودار الكتب المصرية بالقاهرة)، إذ أن النسخة المطبوعة التي نشرها عزت العطار الحسيني ص ٢١٣، حرفت لفظ أمير المنافقين إلى أمير المؤمنين.

ألف ألف دينار. ومما يدل على اهتمام بيبرس بمسألة الخلافة وإقامتها، أنه خرج مع الخليفة إلى دمشق. فوصلها في ذي القعدة سنة ٦٥٩هـ (١٢٦١م) وفي عزمه أن يضيف إلى ما تجمع لديه من جند مصر، أعداداً أخرى من جند الشام حتى يصبح عدد الجيش الخليفي عشرة آلاف فارس. غير أن أحد أمراء الموصل وسوس للسلطان وهو بدمشق قائلاً له: «أن الخليفة إذا استقر أمره ببغداد، نازعك وأخرجك من مصر»، فأوجس خيفة بيبرس وغير موقفه من الخليفة، واكتفى بأن جهزه بثلثمائة فارس كأنما أراد أن يلقي به إلى التهلكة. وسار الخليفة بهذا العدد الضئيل من الجند إلى العراق، وفي الطريق انضم إليه أربعمائة فارس من عرب العراق من خفاجة وعبادة الذين لجأ إليهم في أول أمره كما انضاف إليه ستون مملوكاً من مماليك الموصل، وثلاثون فارساً من عسكر حماة وتقدم الخليفة المستنصر بهذا الجيش غير المتجانس إلى الحدود العراقية. وهناك في موضع على نهر الفرات يسمى مشهد[1] على أو مقام على في لواء الدليم حالياً، التقى المستنصر بمنافسه في الخلافة أبي العباس أحمد ـ الحاكم بأمر الله ـ في سبعمائة فارس من التركمان. ويبدو أنهما اتفقا على العمل معاً لإعادة الخلافة العباسية، وفي ذلك يقول أبو شامة: «فانصاع الحاكم للمستنصر بسبب أنه الأصغر وذاك الأكبر (أي المستنصر) ووقع الاتفاق وزال الشقاق ولله الحمد»[2]. ثم سارا معاً إلى بلدة عانة ثم إلى الحديثة[3] يريدان بلدة هيت فلما وصل الخليفة إلى هيت أغلق أهلها أبوابها دونه، فحاصرها حتى فتحها آخر ذي الحجة سنة ٦٥٩هـ (أكتوبر ١٢٦١م) ثم رحل عنها وعسكر بالقرب من الأنبار. وهناك التقت جيوش

(١)مشهد على بلدة على نهر الفرات بجوار مدينة عانة في لواء الدليم وهي خلاف مدينة النجف التي بها مقام الإمام علي بن أبي طالب.

(٢)أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ٢١٥.

(٣)هناك عدة أماكن تحمل هذا الاسم فهناك حديثة الموصل على نهر دجلة، وحديثة الفرات على بعد عدة فراسخ من الأنبار وهي المراد بها هنا. ثم هناك حديثة أخرى في غوطة دمشق. راجع (ياقوت: معجم البلدان) جـ ٢ ص ٢١٢.

التتار بقيادة قرابغا وبهادر بجيوش الخليفة في ٢ محرم سنة ٦٦٠هـ، ودارت بين القوتين معركة غير متكافئة انتهت بأن أحاط التتار بمعسكر العباسيين وقتلوا معظمهم، ولم يفلت منهم سوى الأمير أبو العباس أحمد وبضعة من الأمراء في نحو الخمسين فارس فقط. أما الخليفة أبو القاسم فلم يعرف له خبر، فيقال أنه قتل في المعركة، ويقال أنه نجا مجروحاً في طائفة من العرب ومات عندهم.

وكيفما كان الأمر، هيأت هذه الحوادث الفرصة للأمير أبـي العباس أحمد، إذ أرسل إليه السلطان بيبرس يستدعيه إلى القاهرة فوصلها في مارس سنة ١٢٦٢م (١٧ ربيع الثاني سنة ٦٦٠هـ) واحتفل بيبرس بلقائه وأنزله في البرج الكبير بقلعة الجبل كما صنع بالمستنصر بالله. على أن المراجع كلها تدل على أن ثمة تغييراً حل برأس بيبرس إزاء الخلافة العباسية خلاصته أن تقام الخلافة العباسية بمصر، فتستفيد الدولة المملوكية من وجودها بالقاهرة، وتتجنب خطر إقامتها بعيداً في بغداد. ومما يدل على هذا التغيير أن جماعة من البغاددة وهم مماليك الخليفة المستعصم الذين فروا من وجه التتار بزعامة مقدمهم الأمير سيف الدين سلار[١] إلى الحجاز، وصلوا إلى القاهرة بعد وصول أبـي العباس أحمد بشهر واحد فقط، وكان حضورهم إلى مصر بناءً على طلب بيبرس وإلحاحه. كما حضر بعدهم بقليل عدة من شيوخ عشائر عبادة وخفاجة من عرب العراق[٢]. وأخذ بيبرس من بعد ذلك يعمل على

(١)أصل هذا المملوك من بلاد القيشاق، واشتراه الخليفة الظاهر العباسي ثم انتقل إلى خدمة المستعصم وترقى حتى أصبح والياً على واسط والكوفة والحلة. وبعد سقوط بغداد في يد هولاكو لجأ إلى الحجاز ثم جاء إلى مصر بناء على طلب بيبرس فدخلها وزملاؤه البغاددة في نصف رجب سنة ٦٦٠هـ فأكرمهم بيبرس وأعطى الأمير سلاة إمرة خمسين في الشام ونصف مدينة نابلس ثم نقل إلى إمرة طبلخانة بمصر. راجع (المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٤٦٨).

(٢)كان مقر هذه القبائل من هيت والأنبار إلى الحلة والكوفة. ويلاحظ أن هذه البلاد حتى مقتل الخليفة المستعصم كانت بيد الأمير سيف الدين سلار الذي كتب إلى من تأخر من خشداشيته وإلى أصحابه من خفاجة وأخبرهم بما ناله من الإحسان على يد =

مبايعة أبي العباس بالخلافة، فعقد له في ٨ محرم سنة ٦٦١هـ مجلساً عاماً بالإيوان الكبير بقلعة الجبل كما حدث للمستنصر من قبل. وجاء أبو العباس فقرىء نسبه على الناس بعد ما ثبت عند قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز ولقب بالحاكم بأمر الله، وبايعه السلطان على العمل بكتاب الله وسنة رسوله، فلما تمت البيعة، أقبل الخليفة على السلطان وقلده أمور العباد والبلاد ولقبه «قسيم أمير المؤمنين»(١) ، وأخذ الناس على اختلاف طبقاتهم مبايعة الخليفة الجديد، وخطب له على منابر مصر والشام.

وهكذا أحييت الخلافة العباسية للمرة الثانية بالقاهرة، غير أن بيبرس لم يفكر في إعداد هذا الخليفة الثاني لاسترجاع بغداد وإقامة الخلافة العباسية بها، بل عزم على أن يكون مقامه بالقاهرة حيث يكون على مقربة منه وتحت عينه. ولم يرد السلطان بذلك أن يخلق في عاصمته سلطة دينية أو سياسية بجانب سلطته، بل قصد أن تكون الخلافة سنداً للدولة المملوكية في أرجاء العالم الإسلامي، وأن يكون الخليفة شخصية نافعة لأغراض دولة المماليك وما تحتاجه من الحماية الروحية، ويدل على ذلك كله أن السلطان لم يأمر في تلك المرة أن يقرن اسم الخليفة باسمه على السكة كما فعل سابقاً بالمستنصر بالله وأنه أسكنه أحد أبراج القلعة محترزاً عليه، ولم يترك له غير الدعاء في الخطبة فقط. وعلى هذا الأساس لم تكسب الخلافة العباسية في إحيائها إلا كسباً زائفاً، إذ صار الخلفاء منذ ذلك الوقت في وضع مهان تقريباً: يعملون

= السلطان بيبرس فلحقوا به كما في الفتن. راجع (ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٠٠، المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٤٧٦).

(١)يعتبر بيبرس أول من لقيته الخلافة بهذا اللقب، إذ كان الملوك المسلمون قديماً يلقبون بألقاب تقل عن هذا اللقب مكانة مثل مولى أمير المؤمنين أي عتيقه، أو خادم أمير المؤمنين فإن زيد في تعظيمه لقب ولي أمير المؤمنين ثم صاحب أمير المؤمنين ثم خليل أمير المؤمنين وهو أعلى ما قلب به ملوك بني أيوب. وأما لقب بيبرس «قسيم أمير المؤمنين» فهو أجل من تلك الألقاب. راجع (السيوطي: حسن المحاضرة، جـ ٢ ص ٦٦).

في دوائرهم الضيقة ويحضرون حفلات السلطنة وولاية العهد ويزينون مجالس السلطان للوفود والسفراء. ولم تتدخل الخلافة في شؤون الدولة المملوكية إلا قليلاً، ولم يأمن لها سلاطين المماليك في يوم من الأيام، بل أبقوا الخلفاء سجناء تقريباً في دور أقيمت لهم خصيصاً في أبراج القلعة أو مناظر الكبش.

أما الذين استفادوا من ذلك الإحياء فسلاطين المماليك والقاهرة عاصمتهم، إذ صار سلاطين المماليك منذ ذلك الوقت إلى الفتح العثماني سنة ١٥١٧م يفرضون لأنفسهم مقاماً سامياً على ملوك العالم الإسلامي وينكرون عليهم حق التلقب بلقب سلطان، لأنهم وحدهم أصحاب هذا الحق شرعاً باعتبارهم حماة الخلافة والمتمتعين ببيعتها[(١)] وفي ذلك يقول ابن شاهين الظاهري: «... ولا يطلق لفظ سلطان إلا لصاحب مصر نصره الله، فإنه الآن أعلا الملوك وأشرفهم لرتبة سيد الأولين والآخرين، وتشرفه من أمير المؤمنين بتفويض السلطنة له على الوجه الشرعي بعقد الأئمة الأربعة»[(٢)].

---

(١) ابن شاهين: زبدة كشف الممالك ص ٨٩ ويلاحظ أن لفظ سلطان ظهر أول الأمر في أواسط آسيا واستخدمه الغزنويون والسلاجقة وغيرهم من الأتراك كرمز للسلطة الزمنية. ثم انتقل بعد ذلك إلى مصر أيام الأيوبيين. ومن العجيب أن صلاح الدين رغم انتصاراته الباهرة لم يحمل لقب سلطان حسب الوثائق التي لدينا وإن كان يبدو أن هذا اللقب قد أطلق عليه شفوياً على ألسنة العامة، فسمي بسلطان الإسلام والمسلمين. وبعد وفاة صلاح الدين شاع استخدام هذا اللقب بين خلفائه حتى عم أمراء الأسرة الأيوبية أيضاً إلى أن جاء سلاطين المماليك فقصروا هذا اللقب على أنفسهم وجعلوا من دونهم ملوكاً وأمراء. راجع:

Wiet: Histoire de la nation Egyptienne tome IV p. 335.

(٢) يقصد ابن شاهين بالأئمة الأربعة، قضاة المذاهب السنية الأربعة، إذ كان القضاء بمصر في العصر الفاطمي قائماً على المذهب الإسماعيلي إلى أن جاء الوزير أبو علي أحمد بن الأفضل في أواخر العصر الفاطمي فرتب في الحكم أربعة قضاة يحكم كل واحد بمذهبه: قاضي للشافعية وقاضي للمالكية وقاضي للإسماعيلية وقاضي =

أما القاهرة، فقد تمتعت نتيجة لذلك الإحياء بشهرة دينية وعلمية واسعة، إذ صارت مركز الخلافة العباسية، وفي ذلك يقول جلال الدين السيوطي جـ ٢ ص ٦٦: «الإيمان والعلم يكونان مع الخلافة أينما كانت، فحين صارت مصر دار خلافة، عظم أمرها، وكثرت شعائر الإسلام فيها، وصارت محل سكن العلماء ومحط رجال الفضلاء». وبالإضافة إلى شهرة القاهرة الدينية والعلمية، فهناك شهرتها التجارية التي جعلت هولاكو يسميها «كروان سراي» في إحدى رسائله، أي محط الرجال والمتاجر والمال، إذ أصبحت بفضل قيام الخلافة بها مركزاً لنشاط تجاري واسع فضلاً عن نشاطها القديم.

على أن الخليفة العباسي الثاني أبا العباس أحمد، لم يسلم كذلك من شك ببعض المؤرخين في نسبه، كشكهم السابق في نسب الخليفة المستنصر، فيوجد في تاريخ أبي الفداء تحت سنة ٦٦١هـ عبارة بشأن الخليفة الحاكم لم تخل من الغمز واللمز ونصها: «وفي أواخر ذي الحجة من هذه السنة، جلس

= للإمامية. وهو بهذه المحاولة أراد الحد من نفوذ المذهب الإسماعيلي. وفي العصر الأيوبي صار القضاء للشافعية فقط واستمر كذلك إلى أن جاء السلطان الظاهر بيبرس فأدخل تعديلاً جوهرياً على النظام القضائي سنة ٦٦٣هـ (١٢٦٥) إذ أنه لم يشأ أن يترك قاضي القضاة الشافعية يتحكم وحده في جميع الشؤون القضائية لما في ذلك من إجحاف ببقية المذاهب. لذلك جعل القضاء في يد أربعة قضاة يمثلون المذاهب السنية الأربعة، وأجاز لهم أن يولوا نواباً عنهم بأنحاء البلاد، على أن يحتفظ قاضي قضاة الشافعية بالإشراف على أحوال اليتامى والأوقاف والقضايا الخاصة ببيت المال. وهكذا ظل قاضي القضاة الشافعية أرفع درجة من زملائه ثم يليه الحنفي فالمالكي فالحنبلي. وفي عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون صار المالكي يلي الشافعي وتأخر الحنفي عن المالكي في الرتبة. راجع (السبكي: طبقات الشافعية جـ ٥ ص ١٣٣ ـ ١٣٦، النجوم الزاهرة، جـ ٧ ص ١٢١، ابن شاهين، زبدة كشف الممالك ص ٩٢، المقريزي السلوك جـ ١ ص ٥٣٩ ـ ٥٤٠، سعيد عاشور: دولة المماليك البحرية ص ١٥٢، محمد المناوي: الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي ص ١٦٩، المقريزي الخطط ص ٢٠٦، رحلة ابن بطوطة جـ ١ ص ٢٥).

السلطان الملك الظاهر مجلساً عاماً وأحضر شخصاً كان قد قدم إلى الديار المصرية في سنة تسع وخمسين وستمائة من نسل بني العباس يسمى أحمد بعد أن أثبت نسبه وبايعه بالخلافة، ولقب أحمد المذكور الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين».

على أن مسألة الخلافة العباسية لم تنته بمبايعة الحاكم بأمر الله سنة ٦٦١هـ (١٢٦٣م) إذ لم تمض ثلاث سنوات على هذا الحادث حتى قدم شخصان على السلطان بيبرس وهو بدمشق سنة ٦٦٤هـ (١٢٦٦م) ادعى أحدهما أنه مبارك بن الخليفة المستعصم، يريد بذلك أنه أحق بالخلافة من الحاكم بأمر الله. وذكر الثاني ـ وكان أسود اللون ـ أنه من أولاد الخلفاء. وقد تبين للسلطان كذب الاثنين، فسيرهما إلى مصر «تحت الاحتياط». ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل وفد على السلطان في نفس السنة أيضاً (٦٦٤هـ) علي بن الخليفة المستعصم وكان أسيراً عند التتار. ولم يعلق المؤرخون على هذه الحوادث بشيء، مما يرجح أن الشكوك التي انتشرت وقتذاك حول نسب الخليفتين، أدخلت في روع بعض الناس أنهم يستطيعون القيام بدور المستنصر والحاكم، أو لعل السلطان بيبرس أراد من وراء أولئك الأشخاص أن يهيمن على الخليفة الحاكم بتهديده بخلعه ومبايعة خليفة آخر كلما حدثته نفسه بالتدخل في شؤون الدولة أو لعله أراد أن يجمع أبناء البيت العباس بمصر ـ إن كانوا من أبناء البيت العباسي حقاً ـ ليتجنب خطر التجاء بعضهم إلى أحد ملوك المسلمين فيقيمه خليفة، مثلما فعل أقوش البرلي في حلب مع الخليفة الحاكم من قبل.

على أن موضع الأهمية هو أن بيبرس نجح في إقامة الخلافة العباسية بالقاهرة، وأضاف بذلك إلى مجموعة العوامل المساعدة في تأسيس الدولة المملوكية. يوضح ذلك أن دولاً وشخصيات أخرى إسلامية حاولت أن ترث الخلافة العباسية بعد زوالها من بغداد سنة ١٢٥٨م، ونعني بذلك الخلافة الحفصية بتونس.

والحفصيون فرع من الموحدين، وينتسبون إلى الشيخ أبـي حفص يحيـى بن عمر الهنتاني شيخ قبيلة هنتانة إحدى بطون مصمودة التي قامت على أكتافها دولة الموحدين، وكان هذا الشيخ الحفصي من كبار القائمين بدعوة المهدي بن تومرت، ومن كبار المشيدين لسلطان الموحدين في المغرب والأندلس، وقد ازدادت هذه الصلة ارتباطاً حينما تزوج ولده عبد الواحد أخت الخليفة المنصور الموحدي، وصار حاكماً على البلاد التونسية سنة ٦٠٣هـ (١٢٠٦م) ولما هزم الموحدون بالأندلس أمام الجيوش الصليبية المتحالفة في موقعة العقاب Las Navas de Tolosa سنة ٦٠٩هـ (١٢١٢م) وانهار نفوذهم في المغرب والأندلس بعد هذه الكارثة، أعلن الأمير أبو زكريا بن عبد الواحد الحفصي استقلاله بحكم إفريقية عن خلافة بني عبد المؤمن في مراكش سنة ٦٣٦هـ (١٢٢٩م) ولكنه مع ذلك اقتصر على لقب الأمير لدرجة أنه زجر الشاعر الذي مدحه بأمير المؤمنين[١] . على أن هذه الإمارة الحفصية لم تلبث أن تحولت إلى خلافة في عهد ولده أبـي عبد الله محمد الذي تسمى بالمستنصر بالله أمير المؤمنين[٢] (٦٤٧ ـ ٦٧٥هـ = ١٢٤٩ ـ ١٢٧٧م) ولقد استند الحفصيون في إعلان خلافتهم الجديدة إلى الأسس الشرعية اللازمة في هذا الصدد، كالأصل العربـي والنسب النبوي إلى جانب قرابتهم للموحدين، فزعموا أنهم من سلالة الخليفة أبـي حفص عمر بن الخطاب، وعمر كما هو معروف من أشراف قريش وكانت إليه

(١)راجع (ابن أبـي دينار: المونس في أخبار إفريقية وتونس ص ١١٨، محمد الباجي المسعودي: الخلاصة النقية في أمراء إفريقية، ص (٦١).

(٢)هناك خلاف حول تاريخ إعلان الخلافة الحفصية السنية بتونس: فالزركشي (تاريخ الدولتين الموحدة والحفصية ص ٣٦) يجعله في ٢٤ ذي الحجة سنة ٦٥٠هـ (١٣٥٣م) بينما يجعله محمد الرعيني القيرواني المعروف بابن أبـي دينار (المؤنس في أخبار تونس ص ١٢٠) في سنة ٦٥٧هـ (١٢٥٩) عقب سقوط خلافة بغداد في أيدي المغول، ويبدو أن رأي الزركشي هو الأصح نظراً لاتساع نفوذ الدولة الحفصية ومبايعة أهل المغرب والأندلس لسلطانها قبل سقوط الخلافة العباسية.

السفارة في الجاهلية، وقد تزوج النبي ابنته حفصة. فالحفصيون بحكم هذا الأصل القرشي، وهذا النسب النبوي، وبحكم قرابتهم للموحدين، وجدوا في أنفسهم الشرعية الكافية لأن يرثوا خلافة الموحدين المنهارة. وقد حرصوا على الاعتزاز بهذا الأصل، وإظهاره في كل مناسبة، ونجد ذلك واضحاً في أقوال كتابهم وشعرائهم التي أطلقت على دولتهم اسم العمرية والفاروقية أو كقول ابن خلدون في قصيدة مدحهم بها:

قوم أبو حفص أب لهم وما أدراك والفاروق جد أول

ولقد جاء إعلان الخلافة الحفصية في ظروف سياسية مناسبة، إذ لم تمض سنوات قليلة على قيامها حتى سقطت الخلافة العباسية في بغداد على أيدي المغول وقتل آخر خلفائها المستعصم بالله سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م). وعقب ذلك أرسل الأمير ادريس شريف مكة، وأهل الحجاز بيعتهم بالخلافة للخليفة الحفصي المستنصر بالله، واعتبروه وريثاً للخلافة العباسية المنهارة.

ولا شك أن هذه المبايعة قد دعمت أركان الخلافة الحفصية لأنها أكسبتها أساساً شرعياً وهو الاشراف على الحجاز، «أصل العرب والملة، ومقر الحرمين الشريفين» وفي ذلك يقول المستشرق السويسري ماكس فان برشم: «إن الحفصيين قد ورثوا خلافة الموحدين في الوقت الذي اكتسبوا فيه من سقوط بغداد شيئاً من هيبة الخلافة العباسية».

ولقد شعرت مصر بخطورة أهداف الخلافة الجديدة التي تقع على حدودها الغربية لأن السياسة المصرية كانت تهدف دائماً إلى مد سلطانها على الحجاز لأسباب دينية وسياسية واقتصادية أهمها السيطرة على البحر الأحمر وتجارته، فجميع الحكام الذين استقلوا بمصر كالطولونيين والأخشيديين والفاطميين، قد حرصوا على مد سلطانهم على الحجاز، ثم سار الأيوبيون على نفس هذه السياسة الحجازية حتى لقبوا أنفسهم بلقب «خدام الحرمين» وبقي هذا اللقب للمماليك والعثمانيين من بعدهم[1].

---

(١)راجع Wiet: Precis de l'Histoire d'Egypte tome II P. 250.

وسار السلطان بيبرس في هذا السبيل أيضاً وأظهر فيه نشاطاً كبيراً، إذ رأى أن سياسة الدولة الحفصية تتعارض مع سياسة مصر التقليدية نحو الحجاز، ولهذا عمد إلى احياء الخلافة العباسية في القاهرة سنة ٦٥٩هـ (١٢٦١م) وكان هدفه من ذلك انتزاع الحرمين من نفوذ الحفصيين، ومد سلطانه باسم الخلافة العباسية على الحجاز والبحر الأحمر[١] .

على أن الشيء الذي يدعو إلى الالتفات في هذا الصدد هو أن اللقب الذي اتخذه الخليفة العباسي الأول في القاهرة وهو «المستنصر بالله»، هو نفس اللقب الذي اتخذه الخليفة الحفصي بتونس، وما أظن أن تطابق اللقبين كان مجرد مصادفة أو توارد خواطر بقدر ما كان نوعاً من التحدي والمنافسة. وقد يؤيد ذلك أن بعض الأمراء الطامحين استغلوا هذا التنافس بين خلافة القاهرة وخلافة تونس لتحقيق مآربهم الشخصية، فيروي ابن خلدون مثلاً أنه في سنة ٦٦٣هـ (١٢٦٥م) ثار والي طنجة المدعو ابن الأمير، وخطب للخليفة الحفصي صاحب إفريقية، ثم خطب للخليفة العباسي في القاهرة، ثم خطب لنفسه وانتهى الأمر بقتله سنة ٦٦٥هـ (١٢٦٧م)[٢] .

وكيفما كان الأمر، فالمهم هنا أن السلطان بيبرس أخذ في تنفيذ سياسته الحجازية عملياً، فقام أولاً بعدة إصلاحات بالحرم النبوي الشريف وأرسل الكسوة إلى الكعبة، كما أرسل الصدقات والزيت والشموع والطيب. . الخ. وأخيراً أدى بيبرس فريضة الحج سنة ٦٦٧هـ ـ ١٢٦٩م، فأظهر خشوعاً وكرماً لا ينتهي، ولكنه لم ينس مصالحه السياسية إذ أزال أنصار الحفصيين وجعل الخطبة في الحجاز للخليفة العباسي ثم لسلطان مصر من بعده. كما أقام الأمير شمس الدين مروان مندوباً له إلى جانب شريف مكة. وجملة القول قوي نفوذ سلطان مصر في الأراضي الحجازية، وصار يرمز لذلك النفوذ

---

(١) راجع Wiet: Precis de l'Histoire d'Egypte tome II P. 250.

(٢) ابن خلدون: العبر جـ ٧ ص ١٩٦. السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى جـ ١ ص ١٧.

بالخطبة والسكة وإرسال الكسوة إلى الكعبة في كل عام. وكان كل ذلك من عمل بيبرس، وهو في مجموعة من عناصر تدعيم الدولة المملوكية داخلياً وخارجياً(١) .

هذا، ولم يكتف بيبرس بالعناية بالحرمين الشريفين، بل أمر سنة ١٢٦١م بإرسال الصناع والآلات لعمارة قبة الصخرة بالقدس وجدد مسجد إبراهيم الخليل عليه السلام(٢) ، وأخرج ما كان في إقطاعات الأمراء من أوقافه، كما أمر سنة ١٢٦١م ببناء مشهد على عين جالوت عرف بمشهد النصر(٣) ، تخليداً لذكرى ذلك الانتصار العظيم الذي حققه المسلمون هناك.

ولم يقتصر بيبرس على ذلك بل أخذ في بناء المساجد وتأسيس المدارس، ففي ربيع الآخر سنة ٦٦٠ (١٢٦١م) بدأ في بناء مدرسته المشهورة على انقاض إحدى قطاعات القصر الكبير الفاطمي، وتم بناء هذه المدرسة سنة ٦٦٢هـ(٤) . وبالرغم من تهدم تلك المدرسة في عهد المقريزي نفسه (ت ٨٤٥هـ = ١٤٤٣م)، فإن الجزء الأكبر منها ظل باقياً حتى سنة ١٨٧٤م عندما اخترقها الشارع الممتد من ميدان بيت القاضي إلى سوق النحاسين المقابل لضريح السلطان قلاوون. وتهدمت منارة تلك المدرسة سنة ١٨٨٢م ولم يبق منها اليوم إلا كتلة مساحتها ٥/ ١١ مترا(٥) .

وتقرب بيبرس إلى العلماء ورجال الدين، ويؤثر عنه أنه زار الإسكندرية أربع مرات، وأنه كان يترك بها في كل زيارة أثراً يدل على اهتمامه بها مثل تحصين أسوارها، وتقوية اسطولها، وتطهير خليجها من

---

(١)المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٥٠٢ ـ ٥٠٧٩ .

(٢)قبر إبراهيم الخليل ومسجده في بلدة الخليل بفلسطين واسمها الأصلي حبرون وهي قرب بيت المقدس. راجع (ياقوت: معجم البلدان جـ ٢ ص ٤٣٨).

(٣)المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٤٤٦ ، العيني: عقد الجمان، الجزء الخاص بحوادث سنة ٦٥٦ ـ ٦٧٣هـ ورقة ٤٥٨ .

(٤)المقريزي: الخطط جـ٢ ص٣٧٨، علي مبارك: الخطط التوفيقية جـ١ ص٢٩، جـ٦ ص٩ .

(٥)راجع: Creswell: The Madrasa of Baibars, op. cit, p. 131

الرمال الذي طمرته، وزيارة كبار المتصوفة من علمائها أمثال الشيخ القباري[1] ، والشيخ الشاطبي[2] وبتلك الوسائل وغيرها تزعم بيبرس العالم الإسلامي شرعاً وعرفاً، وقدم ملوك المسلمين إلى القاهرة ودمشق للقيام بخدمته وتقديم فروض الطاعة والتبعية لشخصه، مما ضمن قيام دولة المماليك على أسس ثابتة.

٣ ـ التخلص من العناصر الأيوبية المناوئة:

لم يبق بعد ذلك من المشاكل التي واجهت بيبرس وهددت دولة

---

(١)هو الشيخ أبو القاسم محمد بن منصور المالكي الإسكندراني المعروف بالقباري نسبة إلى صناعة القبار أي حفر القبور ودفن الموتى، وتطلق كلمة القبار أيضاً على مساعدة صائد السمك (السلوك جـ ١ ص ٤٤٩) أخذ القباري عن الشيخ الحسن الشاذلي مؤسس الطائفة الشاذلية، وأقام بمزرعة صغيرة يزرعها ويعسل فيها بيده ويقتات منها. وكان يكلم الناس من طاقة منزله. ويقال إن السلطان بيبرس عندما زاره لم يتمكن من الطلوع إليه ولم يكلمه إلا وهو في البستان والشيخ في عليته وقد نصحه بتحصين أسوار الإسكندرية وتوفي القباري بظاهر الإسكند ية سنة ٦٦٢هـ (١٢٦٤م) ولا يزال يطلق اسمه على الحي الذي كان يعيش فيه هناك، ارجع (أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ٢٣١، المقريزي: السلك جـ ١ ص ٥٢٣ السندوبي: أبو العباس المرسي ومسجده، ص ٢٠).

(٢)هو الشيخ الزاهد أبو عبد الله محمد بن سليمان المعافري الشاطبي الإسكندري، وأصل هذا الشيخ من مدينة شاطبة Jatiba في شرق الأندلس ثم هاجر إلى الإسكندرية وعاش فيها أيام السلطان الظاهر بيبرس، وقد اشتهر بالعبادة والتقوى ومات ودفن بها سنة ٦٧٢هـ (١٢٧٣م) وقبره بزاز بالقرب من مبنى إدارة جامعة الإسكندرية في الحي المعروف باسمه. وهو غير الشيخ أبي القاسم الرعيني الشاطبي الذي عاش في القاهرة في عهد صلاح الدين الأيوبي، وعين استاذاً في المدرسة الفاضلية وألف كتباً كثيرة في تفسير القرآن وقراءاته السبع، ونخص بالذكر قصيدته المشهورة بالشاطبية في القراءات وهي في ١٧٣ بيتاً. وتوفي بالقاهرة ودفن بقرافتها سنة ٥٩٠هـ راجع (ابن خلكان وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٢٣٤، المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ٢٢٩، السندوبي، أبو العباس المرسي، ص ١٢٨.

المماليك سوى بقايا الأيوبيين على الرغم من إعلان المنصور صاحب حماة، والأشرف موسى صاحب حمص ولاءهما لبيبرس. ذلك أن الملك المغيث عمر بن العادل بن الكامل صاحب حصن الكرك[1] ، لم يقلع يوماً عن مناوأة سلاطين المماليك منذ عهد أيبك التركماني، اعتقاداً منه أنه أحق منهم في ملك مصر والشام. فلما جاء بيبرس إلى السلطنة عزم على القضاء على المغيث عمر وإزالته[2] وأعد حملة كافية لتحقيق ذلك المشروع لولا أن المغيث بعث برسالة إلى الخليفة الحاكم بأمر الله بالقاهرة يسأله الشفاعة، فكتب الخليفة إلى بيبرس يدفع فيه فقبل الشفاعة، وأبقى على المغيث والكرك معاً[3] غير أنه يبدو أن المغيث ظل على نيته القديمة نحو المماليك وسلطنتهم، فكتب إلى هولاكو سراً يحضه على فتح الشام، ويطلب إليه أن يقيمه عليها ملكاً تابعاً[4] ولكن بيبرس علم بأمر هذه المكاتبات المتبادلة بين هولاكو والمغيث عمر، ويقال إن هذه المكاتبات لم تحدث وأن بيبرس اختلق القصة كلها لغرض في نفسه وهو التخلص من أحد الورثة الشرعيين للعرش الأيوبي المناوئين لسلطانه[5] . ومهما يكن من شيء فقد عمد بيبرس إلى السياسة والمداراة فأرسل إلى عمر رسالة أكد له فيها الأيمان والمواثيق،

(١)يروي ياقوت (معجم البلدان جـ ٤ ص ٢٦٢) أن هناك ثلاثة أمكنة تسمى بالكرك: الأولى قرية في جنوب لبنان، والثانية قلعة حصينة في البلقاء وسط الجبال بين بحر القلزم (الأحمر) وبيت المقدس وهي المقصودة هنا، والثالثة قرية بالقرب من بعلبك.

(٢)يعزو أبو الفداء (المختصر في أخبار البشر جـ ٣ ص ٢٦٦) هذا العداء إلى اعتداء وقع من المغيث على امرأة الظاهر بيبرس بالكرك.

(٣)ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٠٠ .

(٤)انظر: (Blachet: Op. cit. p. 382).

(٥)يقول ابن واصل في هذا الصدد (مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤١٤): وفيها (أي سنة ٦٦١هـ) استقبل الظاهر بيبرس الملك المغيث استقبالاً رائعاً ثم قبض عليه، وأخرج فتوى يبرر فيها عمله بأن الملك المغيث كان على اتصال بهلاوون الذي وعده بوعود حسنة منها: «قد أطعتك من بصرى إلى غزة» ثم يعده بإمداده بالجيوش والفرسان لكي يفتح بها مصر، وبهذه الكتب برز الملك الظاهر قبضه على المغيث.

عار عين جالوت، وأن الصليبيين سوف يعملون كذلك على إثارة ملوك أوروبا إلى مثل ما قام به لويس التاسع ملك فرنسا أواخر أيام الأيوبيين، وأن في هذين الخطرين أحدهما أو كلاهما ما يعرض الدولة المملوكية للزوال. ولهذا عمد إلى عقد المحالفات مع الدول الأوروبية وغيرها استعداداً لذلك الخطر المزدوج:

فحالف ميخائيل الثامن باليولوج Michael VIII Palaelogue إمبراطور الدولة البيزنطية سنة ١٢٦٢م (٦٦٠هـ)، وأرسل إليه ـ بناء على طلبه ـ بطريقا من الملكانية ليشرف على الملكانيين[١] في دولته، وكان صحبة هذا البطريق ـ واسمه الرشيد الكحال ـ الأمير فارس الدين أقوش المسعودي، وعدة من الأساقفة، فلما وصلوا القسطنطينية، احتفى بهم الإمبراطور وأكرمهم، واطلع الأمير أقوش على المسجد الذي جدد بناءه[٢] في عاصمته كي يصلي فيه المسلمون من التجار والصناع وغيرهم المقيمين أو المارين ببلاده، ولما علم بيبرس ما قام به الإمبراطور البيزنطي من التجديدات في بناء هذا المسجد، أمر بتأثيثه وتجهيزه بالحصر والسجاجيد والقناديل المذهبة والمباخر والمسك والعنبر والعود وماء الورد. . . الخ[٣].

كذلك حالف السلطان بيبرس إمبراطور الدولة الغربية وملك صقلية

---

(١)ملكانيون جمع ملكاني Malkaniy وهي كلمة سريانية، وتقابلها في العربية ملكيون وملكي Melkites وباليونانية Basilikai أي ملكي. وقد أطلق اسم ملكانية على المسيحيين العرب الذين انضموا إلى الكنيسة البزنطية متبعين مذهب الامبراطور الرسمي راجع: Concise Encyclopaedia Civilization p. 361.

(٢)بنى مسلمة بن عبد الملك هذا المسجد في سنة ٧١٤م (٩٦هـ) في خلافة الوليد بن عبد الملك على أثر صلح بين البيزنطيين والعرب ينص على بناء مسجد بالقسطنطينية. وقد هدمه الصليبيون أثناء غاراتهم على القسطنطينية. ويقال إن صلاح الدين حاول تجديد بنائه فلم يجبه البيزنطيون إلى ذلك. (ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٠٢، العيني: عقد الجمان ورقة ٤٨١).

(٣)ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٠٢، العيني: عقد الجمان ورقة ٤٨١).

عار عين جالوت، وأن الصليبيين سوف يعملون كذلك على إثارة ملوك أوروبا إلى مثل ما قام به لويس التاسع ملك فرنسا أواخر أيام الأيوبيين، وأن في هذين الخطرين أحدهما أو كلاهما ما يعرض الدولة المملوكية للزوال. ولهذا عمد إلى عقد المحالفات مع الدول الأوروبية وغيرها استعداداً لذلك الخطر المزدوج:

فحالف ميخائيل الثامن باليولوج Michael VIII Palaelogue إمبراطور الدولة البيزنطية سنة ١٢٦٢م (٦٦٠هـ)، وأرسل إليه ـ بناء على طلبه ـ بطريقا من الملكانية ليشرف على الملكانيين[١] في دولته، وكان صحبة هذا البطريق ـ واسمه الرشيد الكحال ـ الأمير فارس الدين أقوش المسعودي، وعدة من الأساقفة، فلما وصلوا القسطنطينية، احتفى بهم الإمبراطور وأكرمهم، واطلع الأمير أقوش على المسجد الذي جدد بناءه[٢] في عاصمته كي يصلي فيه المسلمون من التجار والصناع وغيرهم المقيمين أو المارين ببلاده، ولما علم بيبرس ما قام به الإمبراطور البيزنطي من التجديدات في بناء هذا المسجد، أمر بتأثيثه وتجهيزه بالحصر والسجاجيد والقناديل المذهبة والمباخر والمسك والعنبر والعود وماء الورد. . . الخ[٣].

كذلك حالف السلطان بيبرس إمبراطور الدولة الغربية وملك صقلية

---

(١) ملكانيون جمع ملكاني Malkaniy وهي كلمة سريانية، وتقابلها في العربية ملكيون وملكي Melkites وباليونانية Basilikai أي ملكي. وقد أطلق اسم ملكانية على المسيحيين العرب الذين انضموا إلى الكنيسة البزنطية متبعين مذهب الامبراطور الرسمي راجع: Concise Encyclopaedia Civilization p. 361.

(٢) بنى مسلمة بن عبد الملك هذا المسجد في سنة ٧١٤م (٩٦هـ) في خلافة الوليد بن عبد الملك على أثر صلح بين البيزنطيين والعرب ينص على بناء مسجد بالقسطنطينية. وقد هدمه الصليبيون أثناء غاراتهم على القسطنطينية. ويقال إن صلاح الدين حاول تجديد بنائه فلم يجبه البيزنطيون إلى ذلك. (ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٠٢، العيني: عقد الجمان ورقة ٤٨١).

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٠٢، العيني: عقد الجمان ورقة ٤٨١).

ونابولي منفرد بن فردريك الثاني هو هنشتاوفن، وأرسل له في أوائل حكمه سنة ٦٥٩هـ (١٢٦١م) هدية من جملتها عدد من الزراف وجماعة من أسرى عين جالوت من التتار بخيولهم التترية وعدتهم، فأعجب الإمبراطور بالهدية، وأحسن إلى الرسل وأكرمهم، وكان على رأس السفارة المصرية المؤرخ الحموي الكبير جمال الدين بن واصل الذي أمدنا ببعض أخبار تلك السفارة في كتابه «مفرج الكروب في أخبار بني أيوب» حيث يقول: «توجهت رسولاً إلى منفريد من السلطان الأعظم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ـ رحمه الله ـ في شهر رمضان سنة تسع وخمسين وستمائة، فأقمت عنده مكرماً بمدينة من مدائن ابنولية[1] يقال لها برلت Barletta، واجتمعت به فوجدته متميزاً محباً للعلوم العقلية، يحفظ عشر مقالات من كتاب اقليدس في الهندسة. وبالقرب من البلد التي كنت نازلاً بها مدينة تسمى لوجارة Lucera أهلها كلهم مسلمون من أهل جزيرة صقلية[2]، وتقام الجمعة فيها، ويعلن بشعائر الإسلام، وهي على هذه الصفة من عهد أبيه الإمبراطور[3]، وكان قد شرع في بناء دار علم بها ليشتغل فيها بجميع أنواع العلوم النظرية. وأكثر أصحابه الذين يتولون أموره الخاصة مسلمون، ويعلن في معسكره بالأذان، والصلاة ويضيف الصفدي في ترجمة لابن واصل أن منفرد قال لجمال الدين في مجلسه «يا قاضي أنا ما عندي ما أسألك عنه في الفقه والعربية ثم سأله ثلاثين سؤالاً في علم المناظر (البصريات)، فبات الليلة تلك وصبحه بالجواب عنها، فصلب الانبرور على وجهه وقال: «هكذا يكون قسيس المسلمين»، لأن القاضي لم يكن معه كتب في تلك السفرة وإنما أجابه عن ظهر قلب».

---

(١)ابن واصل: مفرج الكروب ٢ ص ٤٠٣ ـ ٤٠٣، المقريزي: السلوك جـ ١ص ٤٧١.

(٢)يريد بذلك مقاطعة أبوليا في جنوب إيطاليا.

(٣)يروي المؤرخون أن الإمبراطور فردريك الثاني نقل معظم عرب جزيرة صقلية إلى مدينة لوجارة في أبوليا جنوبي إيطاليا سنة ١٢٤٩م كان ذلك إثر مصادمات عنيفة وقعت بين العرب والمسيحيين في صقلية، فنقلهم الإمبراطور معه إلى مدينة لوجارة حيث كان يقضي أغلب أوقاته متخذاً إياهم حرساً أميناً له راجع (مارتينو ماريو مورينو: المسلمون في صقلية ص ٢٥).

«كذلك ألف ابن واصل أثناء إقامته في إيطاليا رسالة في المنطق سماها» «الرسالة الانبرورية» وأهداها إلى منفرد.

وتروي المصادر الإسبانية المعاصرة أن ملك قشتالة الفونسو العاشر المعروف بالعالم[1] El Sabio أرسل إلى السلطان بيبرس البندقداري ـ وتسميه Alvandexaverr ـ هدية من الخيول العربية الأصيلة، وذلك في سنة ٦٥٩هـ (١٢٦١م). وقد رد عليه بيبرس بهدية مماثلة من بينها زرافة، وسن فيل، وتمساح محنط لا يزال إلى اليوم معلقاً في مدخل الباب الشرقي لكتدرائية أشبيلية Puerta deI lagarto وتضيف الرواية أن السلطان بيبرس طلب الزواج من ابنة الملك الإسباني الفونسو العاشر ولكن طلبه لم يتحقق.

ولم تقتصر مساعي بيبرس على ملوك أوروبا فحسب، بل حالف أيضاً خان القبيلة الذهبية [2] Golden Hordeأو مغول القبشاق، واسمه بركة خان، وهو أول من اعتنق الإسلام من أولاد جنكيزخان، وكانت بلاده تمتد من تركستان شرقاً إلى شمال البحر الأسود غرباً، وتعرف ببلاد القبشاق أو القفجاق، وعاصمتها مدينة صراي في شمال غرب بحر قزوين.

فالسلطان بيبرس تحالف مع عاهل هذه الدولة الإسلامية المغولية بركة خان وتبادل معه البعوث والهدايا (١٢٦١ ـ ١٢٦٣م) كما تزوج ابنته، وأمر بالدعاء له على منابر القاهرة والقدس ومكة والمدينة[3] ولا شك أن هذا

---

(١)سمي بالعالم أو الحكيم لأنه أشرف على كتابة الحولية التاريخية الكبرى في تاريخ إسبانيا Primera Cronica General de Espane واستعان على تأليفها بعدد من العلماء المسلمين واليهود والمستعربين المسيحيين، واعتمد هؤلاء على عدد كبير من المصادر العربية والبيزنطية واللاتينية وعلى جميع الحوليات الأسبانية السابقة. كذلك نشطت حركة الترجمة في طليطلة في عهد هذا الملك الذي اشتهر بحبه للعلم والعلماء.

(٢)يقال إن هذه التسمية ترجع إلى لون مخيماتهم.

(٣)ابن واصل مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٠٩، مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، ص ٤٥٤ ـ ٤٦٢.

الحلف كان موجهاً بطبيعة الحال ضد عدوهما المشترك الممثل في دولة ايلخانات فارس التي يحكمها هولاكو وأولاده، وكانت تشمل فارس والعراق وعاصمتها تبريز أو مراغه[١]، فيروي المقريزي أن بيبرس أخذ يحرض بركة خان على قتال هولاكو ويرغبه في ذلك[٢].

ولم يكتف بيبرس بذلك، بل حالف في سنة ٦٦٠هـ (١٢٦٢م) سلطان السلاجقة الروم عز الدين كيكاوس بن كيخسرو، ووعده بالمساعدة ضد أخيه ركن الدين قلج أرسلان وضد هولاكو وأطماعه في آسيا الصغرى. وأرسل بيبرس جنوده، إلى دمشق وحلب استعداداً لتأييد السلطان عز الدين ضد أخيه ركن الدين وضد المغول[٣].

ومن الواضح أن المعاهدات التي أبرمت والسفارات التي تبودلت بين سلطان مصر المملوكي وبين ملوك الدول المحيطة به شرقاً وغرباً، جعلت دولة المماليك في شيء من الأمن مما يهدد كيانها من ناحية المغول والصليبيين، وإن كان من المعروف أن خلو عهد بيبرس من حملة صليبية على مصر إنما يرجع لانصراف الدول الأوروبية إلى شؤونها ومشاكلها في الغرب، كما أن قلة الغارات المغولية في عهده، إنما يرجع إلى ما طرأ على المغول من حالة سكون مؤقت بعد عاصفة جنكيز خان وهولاكو في البلاد الشرقية على الأقل..

٥ ـ تحصين الأطراف والثغور والعناية بالبريد:

لم يعوز الدولة المملوكية بعد ذلك دعامة من دعامات القوة والبقاء سوى تأمين حدودها ضد الغزو الخارجي، وتنظيم جيوشها وتقوية أسطولها

---

(١)راجع: Barthold: Histoire de tures D'asie Centrale p. 138.

(٢)المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٤٦٥.

(٣)راجع تفاصيل النزاع بين هذين الأخوين وتدخل هولاكو في آسيا الصغرى (ابن أبي الفضائل: النهج السديد ص ٤٥٥ وكذلك مقدمة ناشر الكتاب بلوشي Blochet.

لما يتطلبه مركز الزعامة في العالم الإسلامي من هجوم أو دفاع، ولذا كان ما قام به بيبرس في هذا المضمار من أهم ما تحتاجه الدولة للقيام على أساس متين، وأول ذلك أن السلطان جند العشائر العربية سنة ١٢٦١م، (٦٥٩هـ) وهي العشائر المقيمة على الحدود الفراتية مثل عرب خفاجة وحثهم على قتال هولاكو بعد أن غمرهم بالخلع والهدايا والأموال(١) ويقال إن هؤلاء العربان قاموا بمهمتهم خير قيام حتى وصلت إغاراتهم أبواب مدينة بغداد.

ولم يكتف بيبرس بذلك، بل أمر نوابه بحلب سنة ١٢٦٢م (٦٦٠هـ) بإحراق المروج والأعشاب التي جرت عادة هولاكو أن يعسكر على مقربة منها أثناء هجومه على الشام، فجهزت القداحات والصوفات وآلات النار سراً وأحرقت تلك المروج جميعها، وهي مسيرة عشرة أيام من آمد إلى خلاط، وبذا قطع بيبرس على هولاكو وجنوده السبل والطرق المؤدية إلى الشام(٢). وقد شرح لنا العمري والقلقشندي طريقة هذا الإحراق بقوله: «كان من عادة التتر أنهم لا يكلفون علوفة لخيولهم بل يكلونها إلى ما تنبت الأرض، فإذا كانت تلك الأرض مخصبة سلكوها، وإذا كانت مجدبة تجنبوها، وكانت أرض هذه البلاد مخصبة تقوم بكفاية خيل القوم إذا قصدوا بلادنا، فإذا أحرقوا زرعها ونباتها ضعفوا عن قصد بلادنا وحصل بذلك الدفع عن مباغتة الأطراف ومهاجمة الثغور، وكان طريقهم في إحراقها أن يجهزوا إليهم الرجال ومعهم الثعالب الوحشية وكلاب الصيد. فيكمنون عند أمناء النصاح في كهوف الجبال وبطون الأودية ويرتقبون يوماً تكون ريحه عاصفة وهواؤه زعزع، تعلق النار موثقة في أذناب تلك الثعالب والكلاب، ثم تطلق الثعالب، والكلاب في أثرها وقد جوعت، لتجد الثعالب في العدو، والكلاب في الطلب، فتحرق ما مرت به من الزرع والنبات، وتعلق الريح النار منه فيما جاوره، مع ما يلقيه الرجالة بأيديهم في الليالي المظلمة، وعشاء الأيام

(١) المقريزي: السلوك جـ١ ص ٤٦٥، ٤٨٠، ٥٠١ ـ ٥٠٣ ـ ٥١٢.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٢ ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦.

المعتمة[1].

ثم أمر بيبرس سنة ١٢٦٣م بعمارة القلاع التي خربها المغول من حمص إلى حوران وزودها بالمؤن والذخيرة، فأقام بذلك خطاً حصيناً من شرق الأردن إلى نهر العاصي، فضلاً عن أبراج المراقبة التي أقامها على طول الأطراف الصليبية لحفظ الطرقات من اعتداءات الفرنج[2].

كذلك اهتم بيبرس بعمارة سلسلة المنائر أو المناور التي تربط أطراف الدولة بالعاصمة وهي عبارة عن أبراج للمراقبة يرابط فيها الحراس والمرابطون ليل نهار، فإذا كشفوا عدواً مقبلاً من البر كالمغول، أو من البحر كالصليبيين، أشعلوا النار على قمم هذه المناور إذا كان الوقت ليلاً، أو أثاروا فيها الدخان إذا كان الوقت نهاراً، ثم سرعان ما تنتقل هذه الإشارات النارية أو الدخانية من منارة إلى أخرى تحذر الأهالي إلى أن تصل إلى العاصمة. فهي تشبه صفارات الإنذار في وقتنا الحاضر، وكثيراً ما استعمل المنورون إشارات نارية أو دخانية بطرق أو حركات معينة للإخبار عن حالة العدو أو عدده أو جنسيته أو غير ذلك، وإن كانت المراجع للأسف لم تشرح لنا طريقة إرسال هذه الإشارات.

ولعل الوصف الذي أورده، المقدسي (ق ٤هـ)، والعمري (ق ٨هـ) عن دور هذه المناور في مقاومة الصليبيين والمغول، يعطينا فكرة عن أهميتها الدفاعية في الشرق العربي. فيقول المقدسي: «وكفر سلام من قرى قيسارية كبيرة آهلة، بها جامع على الجادة، ولهذه القصبة رباطات على البحر، يقع بها النفير، وتقلع إليها شلنديات الروم وشوانيهم ومعهم أسارى المسلمين للبيع كل ثلاثة بمائة دينار، وفي كل رباط قوم يعرفون لسانهم، ويذهبون في الرسالات، ويعمل إليهم أصناف الأطعمة، وقد ضج بالنفير لما تراءت

(١) راجع: (العمري التعريف ص ٢٠١، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ١٤ ص ٤٠١).

(٢) انظر Wiet: Precis de l'Histoire d'Egypte II p. 25.

مراكبهم فإن كان ليلاً أوقدت منارة ذلك الرباط، وإن كان نهاراً دخنوا، ومن كل رباط إلى القصبة عدة منائر شاهقة، قد رتب فيها أقوام، فتوقد المنارة التي للرباط التي تليها ثم الأخرى فلا يكون ساعة إلا وقد انفر من بالقصبة وضرب الطبل على المنارة، ونودي إلى ذلك الرباط وخرج الناس بالسلاح والقوة»[1] .

أما العمري فيصف مناور الجبهة الشرقية المواجهة للمغول بقوله:

«والمناور هي مواضع رفع النار في الليل، والدخان في النهار. وذلك أن مملكة إيران لما كانت بيد هولاكو من التتار، وكانت الحروب بينهم وبين هذه المملكة، أن جعلوا أماكن مرتفعة من رؤوس الجبال توقد فيها النار ليلاً، ويثار الدخان نهاراً، للاعلام بحركة التتار إذا قصدوا دخول البلاد لحرب أو اغارة. وهذه المناور تكون على رؤوس الجبال، وتارة تكون على أبنية عالية معروفة[2] من أقصى ثغور الإسلام كالبيرة والرحبة إلى حضرة السلطان بقلعة الجبل، حتى إن المتجدد بالفرات أن كان بكرة علم به عشاء، وأن كان عشاء علم به بكرة، ولما يرفع من هذه النيران أو يدخن من هذا الدخان أدلة يعرف بها اختلاف حالات رؤية العدو والمخبر به باختلاف حالاتها، تارة في العدد، وتارة في غير ذلك، وقد أرصد في كل منور الديادب والنظارة، لرؤية ما وراءهم وإيراء ما أمامهم، ولهم على ذلك جوامك مقررة كانت لا تزال دارة[3] .

ولم يقتصر بيبرس على ذلك بل أمر في سنة ١٢٦٤م بتجديد بناء القلاع التي على الحدود الفراتية ولا سيما قلعة البيرة التي أرسل إليها آلات القتال

---

(١)المقدسي: كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٧٧، نشر دي خوية (ليدن ١٩٠٦).

(٢)أورد العمري والقلقشندي أسماء تلك المواضع، راجع (العمري: التعريف ص ٢٠٠ ـ ٢٠١، القلقشندي: صبح الأعشى جـ ١٤ ص ٣٣٩).

(٣)العمري: نفس المرجع والصفحة، القلقشندي: نفس المرجع، ص ٣٩٨.

والأسلحة من مصر والشام، وعبأ فيها كل ما يحتاج إليه أهلها في الحصار لمدة عشر سنين كي تظل شوكة في جنب المغول.

أما في مصر فإن السلطان أمر بردم مصب النيل عند دمياط ورمى فيه صخوراً عظيمة ليحول دون مرور سفن الصليبيين وتتكرر مأساة دمياط من جديد، كما شيد برجاً للمراقبة في رشيد، وعمر أسوار الإسكندرية وجدد بناء المنار الذي بها.

على أن بيبرس لم يكتف بتلك الاستعدادات الدفاعية لضرورة ما تتطلبه الظروف الحربية من سرعة في تلقي الأخبار وإصدار الأوامر، ولهذا وضع للبريد[١] نظاماً ربط به جميع أنحاء مملكته بشبكة من خطوط البريد البرية والجوية، وكان مركز هذه الشبكة قلعة الجبل بالقاهرة، ومنها تتفرع سائر الخطوط وتصدر المراسيم السلطانية إلى أنحاء المملكة، وإليها ترد الرسائل من الحكام، والتقارير من ولاة الأعمال والنيابات في سرعة وانتظام[٢] ، حتى

(١)البريد نظام يتعلق بأمن الدولة مثل نظام المخابرات اليوم، مهمته التجسس على عمال الدولة وأعدائها وإبلاغ العاصمة كل ما يقع في الولايات من أحداث، فهو إذن بريد الدولة وليس بريد الجمهور مثل البوستة اليوم. ويقال إن أصل كلمة بريد لاتيني بيزنطي Veridus ثم انتقل هذا النظام إلى الدولة الإسلامية في عهد معاوية بن أبي سفيان نقلاً عن الروم في الشام وأطلق لفظ البريد في أول الدابة التي تركب لمهمة رسمية ثم أطلق على الراكب نفسه ثم على المسافة التي يقطعها الراكب وهذه على حسب تقدير علماء المسالك والفقهاء أربعة فراسخ، ولما كان الفرسخ ثلاثة أميال فإن مسافة البريد تكون ١٢ ميلاً على هذا الأساس.

وعامل البريد كان يسمى أيضاً بصاحب البريد كما كان يسمى في الهند بمالك البريد على حد قول ابن بطوطة، أما في المغرب والأندلس فكان يطلق عليه اسم الرقاص، ولا شك أن إدارة البريد بما فيه من سجلات وقوائم بأسماء المحطات وتقدير المسافات، قد أعطت الرحالة والجغرافيين العرب مادة خصبة في كتاباتهم الجغرافية المعروفة باسم المسالك والممالك.

(٢)كان يتفرع من قلعة الجبل أربعة طرق بريدة يمتد أحدها جنوباً إلى قوص بالوجه القبلي وما يلي ذلك من بلاد النوبة، وآخر شرقاً إلى عيذاب وسواكن على البحر =

صار البريد يصل من دمشق إلى القاهرة ومن القاهرة إلى دمشق في ثلاثة أيام[1] ، ولم يتأت ذلك إلا بعد أن أنفق بيبرس أموالاً ضخمة في سبيل ترتيبة، وزود بيبرس مراكز البريد بكل ما يحتاج إليه عمال البريد من زاد وعلف، كما راعى فيها توفر المياه أو وجود قرية بجوارها كي يستأنسوا بها، وأعد في كل مركز منها خيولاً لا يسمح بركوبها إلا بمرسوم سلطاني، وكان البريديون ينتخبون عادة من خدم السلطان ذوي الكفايات والذكاء لإبلاغ الرسائل الشفوية عند الاقتضاء، وكانت لهم مكانة محترمة ويشرف على إدارة البريد صاحب ديوان الإنشاء إذ عهد إليه حفظ ألواح[2] البريد بالديوان، فإذا خرج بريدي إلى جهة من الجهات، أعطى لوحاً من تلك الألواح ليعلقه بعنقه في ذهابه وإيابه.

ولم يقتصر الأمر على البريد البري، فهناك أيضاً ما نستطيع أن نسميه بالبريد الجوي ونعني بذلك الحمام الزاجل الذي كان يستخدم في الحالات المتعجلة. وكان لهذا الحمام أبراج خاصة بالقلعة ومراكز معينة في سائر أنحاء المملكة مثل مراكز البريد البري، لكنها، تزيد عنها في المسافة. فإذا نزل الحمام في مركز منها، نقل البراج الرسالة التي بجناحه إلى طائر آخر ليوصلها إلى المرحلة التي تليها وهكذا، وكان الإيجاز والتركيز من أهم مميزات الرسائل التي ينقلها الحمام الزاجل، إذ يستغنى فيها عن البسملة والمقدمات والألقاب الكثيرة ويكتفى بذكر التاريخ والساعة وإيراد المطلوب

= الأحمر، وثالث غرباً إلى الإسكندرية وبرقة، وراجع شمالاً دمياط ومنها إلى غزة حيث يتفرع البريد إلى سائر البلاد الشامية، راجع (القلقشندي: صبح الأعشى جـ ١٤ ص ٣٧٢ ـ ٣٨٣).

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة بيبرس الأول.

(٢) كانت هذه الألواح من الفضة وقد نقش على أحد وجهي كل لوح منها عبارة: لا إله إلا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ـ ضرب بالقاهرة المحروسة. على الوجه الآخر: «عز لمولانا السلطان... سلطان الإسلام والمسلمين، راجع (القلقشندي: صبح الأعشى جـ ١٤ ص ٣٧١).

في صيغة مختصرة[1] . وكان الخط المستعمل في هذه الرسائل هو المعروف باسم «الغبار» لأنه دقيق صغير يشبه ذرات الغبار لهذا كان حجم الرسالة في بعض الأحيان لا يزيد طولها عن سلامية الأصبع.

مما تقدم نرى أن النظام الدقيق الذي وضعه بيبرس للبريد كان من الضروريات الحربية اللازمة للوقوف على كل ما يتحدد في أنحاء مملكته فيأخذ حذره ويستعد للطوارىء.

٦ ـ تقوية الأسطول والجيش:

ولم تقف مجهودات بيبرس الحربية عند هذا الحد، بل عمل على إنشاء قوة بحرية يستعين بها في صد أعدائه الذين يغيرون على بلاده من جهة البحر، ويعتبر بيبرس في الواقع هو مؤسس أسطول المماليك، إذ يشير المقريزي إلى كثرة ركوب هذا السلطان في بحر النيل، وإلى اهتمامه بدور صناعة السفن التي في الفسطاط (مصر) وجزيرة الروضة، والإسكندرية ودمياط، لدرجة أنه كان يشرف بنفسه على بناء الشواني[2] ، وتجهيزها بالآلات، ولعبها في البحر[3] ، ويسوق المقريزي في هذا الصدد رواية طريفة تدل على مبلغ ـ عناية بيبرس بالأسطول، وهي أن رسل ملك قبرص جاءت إلى السلطان بيبرس سنة ٦٧٠هـ للشفاعة في صاحب عكا، فوجدته جالساً في الصناعة بين الأخشاب، والصناع والأمراء تحمل بأنفسها آلات الشواني وهي تمد، فراعهم

---

(١) القلقشندي: نفس المرجع جـ ١٤ ص ٣٨٩ ـ ٣١٤).

(٢) راجع (المقريزي ك الخطط جـ ٢ ص ١٨٠، ٢٩٧).

(٣) الشواني جمع شيني أو شوني أو شنة وهي من أهم القطع التي كان يتألف منها الأسطول، وهي مراكب حربية كبيرة كانوا يقيمون فيها أبراجاً وقلاعاً للدفاع والهجوم. وكانت هذه الأبراج مكونة من عدة طبقات، تقف في الطبقة العليا منها العساكر المسلحة بالقوس والسهام، وفي الطبقة السفلى الملاحون بالمجاديف، وتحتوي على مخازن الطعام، ومستودعات لخزن المياه.

ما شاهدوا[١] .

وقد حرص بيبرس على توفير أعواد الخشب التي تصلح لبناء السفن فمنع الناس من شرائها، ويفهم من كلام المؤرخين أمثال الأسعد بن مماتي (ت ١٣٠٩م) وعثمان بن إبراهيم النابلسي (ت ١٢٥٨م) والمقريزي (ت ١٤٤٢) أن حراج السنط التي كان خشبها يستخدم في بناء السفن، والتي كانت توجد بكثرة في جنوب الدلتا، وصعيد مصر، وشبه جزيرة سيناء على عهد الفاطميين والأيوبيين[٢] ، قد أخذت تقل تدريجياً منذ أواخر العصر الأيوبي، وأن العوام والخواص صاروا يقطعون منها ما يحتاجونه من السواقي وآلات المعاصر وغيرها، وما يوقدون به في بيوتهم ومعاصرهم بالجمل الكثيرة[٣] بحيث لم ينته القرن الثالث عشر الميلادي إلا وكانت حراج الدلتا حول القاهرة في المطرية وقليوب والجيزة قد اختفت تماماً، ثم تلتها حراج الصعيد في البهنساوية والأشمونين وأسيوط وأخميم وقوص، فاختفت هي الأخرى في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي وتحولت إلى أراضٍ زراعية، ثم يأتي المقريزي في القرن الخامس عشر الميلادي فيؤيد ذلك بقوله: «وقد بطل هذا جميعه، واستولت الأيدي على تلك الأشجار فلم يبق منها شيء البتة»[٤] .

من هذا نرى أن مصر حينما حكمها الظاهر بيبرس في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، لم يكن يوجد بها إلا بقايا مبعثرة من حراج السنط في الوجه القبلي، وحول مدينة السويس في صحراء

---

(١)المقريزي: الخطط جـ ١ ص ٦٠١.

(٢)الأسعد بن مماتي: قوانين الدواوين ص ٣٤٥ ـ ٣٤٧.

(٣)عثمان بن إبراهيم النابلسي كتاب لمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية ص ٤٥ ـ ٦٠ منشور في مجلة الدراسات الشرقية بدمشق العدد ١٦ سنة ١٩٥٨ ـ ١٩٦٠.

(٤)المقريزي: الخطط جـ ١ ص ١١٠، جـ ٢ ص ١٩٤. وكذلك: (Aly Bahgat: les Forets en Egypte, Bulletin de l'Institut Egyptien. Le Caire 1900).

سيناء[1] وهي في مجموعها لا تكفي حاجة الدولة، وقد يؤيد ذلك أن بيبرس احتكر الخشب المحلي الصالحي لبناء السفن ومنع الناس من بيعه أو شرائه.

كما أنه اضطر إلى قطع شجر الجمير Sycamore بجزيرة الروضة لاستخدام خشبه ـ رغم قلة جودته ـ في بناء أسطول جديد عوض الأسطول الذي كان قد سيره إلى جزيرة قبرص وتحطم هناك على سواحلها سنة ١٢٧١م. ولعل العبارة التي وجهها بيبرس إلى ملك قبرس في إحدى رسائله، ويقول فيها: «وأنتم خيلكم مراكب، ونحن مراكبنا الخيل»[2]، تدل على العجز الذي كانت تعانيه البحرية المملوكية في أهم خاماتها، وهو الخشب وكيفما كان الأمر، فإن بيبرس عمل على تلافي هذا العجز باستيراد الخشب والحديد من آسيا الصغرى[3] وإيطاليا وتمكن بذلك من إعداد أسطول من خمسين قطعة[4].

ولم يكن اهتمام بيبرس بتقوية جيشه أقل من اهتمامه بالمسائل الحربية السالفة الذكر ولذا أكثر من شراء المماليك من بني جنسه القفجاق[5] إذا

---

(١)سعيد عاشور: مدينة السويس منذ الفتح العربي إلى بداية العصر الحديث ص ٧٧، (الفصل الثاني من كتاب تاريخ السويس سلسلة بلادنا). (القاهرة ١٩٦٦).

(٢)المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٥٩٤ حاشية ٥، عبد المنعم ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ص ١٩١.

(٣)يروي ابن بطوطة (ق ١٤م) أن مدينة العلايا الواقعة على ساحل الأناضول كانت كثيرة الخشب ومنها يحمل إلى الإسكندرية ودمياط (رحلة ابن بطولة جـ ٣ ص ٢٥٧) كذلك يروي ابن إياس أنه جرت العادة أن يخرج جماعة من الأمراء والجند في عدد من المراكب إلى مكان يسمى الجون أو اللجون لإحضار الأخشاب على العادة، ومن المرجح أن المقصود بالجون هو مدينة بير Babar التركية الواقعة على ساحل الأناضول (آسيا الصغرى) راجع ابن إياس: صفات لم تنشر في بدائع الزهور ص ٣٧، حاشية، بدائع الزهور جـ ٢ ص ١٨٢.

(٤)المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٤٤٧.

(٥)المعروف أن بيبرس ولد ببلاد القفجاق أو القبشاق سنة ١٢٢٣م (٦٢٠هـ) وقضى بها شطراً من حياته الأولى إلى أن بيع لأحد النخاسين على أثر هجوم المغول على تلك=

«مالت الجنسية إلى الجنسية» على قول القلقشندي، ووقعت الرغبة في الاستكثار من القفجاق على عهد بيبرس «حتى أصبحت مصر بهم آهلة المعالم، محمية الجوانب، منهم زعماء جيوشها، وعظماء أرضها، وحمد الإسلام مواقفهم في حماية الدين حتى أنهم جاهدوا في الله أهليهم»[١] .

وبينما يروي القلقشندي أن معظم هؤلاء المماليك من أجلاب القبشاق وهو لفظ يدل على القبيلة الذهبية، يروي المقريزي أنهم أتوا بالأخص من بلاد تركستان. ونستطيع أن نوفق بين الروايتين في سهولة لأن القبيلة الذهبية تملكت على جزء من تركستان وهو شمال خوارزم وأراضي السهوب الشمالية، ولهذا سماها القلقشندي «مملكة توران خوارزم والقبشاق»[٢] . ، إذا سلمنا جدلاً بأن هؤلاء المماليك من أصل تركستاني، فإنهم في الواقع أتوا إلى مصر من بلاد القبشاق جنوبي الفلجا.

وكيفما كان الأمر فالراجح أن حسن العلاقة بين بيبرس وبركة خان سهلت الحصول على أولئك المماليك القفجاق دون غيرهم. غير أن الحصول على هؤلاء المماليك تتطلب الوصول إلى السواحل الشمالية للبحر الأسود في سهولة، واستطاع بيبرس بسفاراته وهداياه أن يحصل من الإمبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوج على إذن لمرور سفينتين مصريتين مشحونتين بالمماليك عبر البوسفور إلى البحر الأسود ذهاباً وإياباً مرة في السنة[٣] .

ثم إن بلاد القفجاق كانت أصلح البلاد للحصول على أعداد كثيرة من المماليك، إذ كانت شعوب تلك الجهات بدائية رحل يصيفون بأرض ويشتون

= البلاد سنة ١٢٤٢م (٦٤٠هـ). راجع (دائرة المعارف الإسلامية، مادة بيبرس الأول).

(١) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٤ ص ٤٥٨.

(٢) القلقشندي: نفس المرجع جـ ٤ ص ٤٦٩، وكذلك:

Peliak: la caractere Colonial de l'Etat mamelouk dans: ses rapports avec la Horde d'or R.E.O 1935, p. 231, Cahier III.

(٣) انظر: (Heyd: Histoire de Commerce du Levant au loyen age, tome II. p. 556.

بأخرى لقلة المراعي وقسوة المناخ. ويعانون ضيقاً في العيش ونقصاً في المواد الغذائية. وكان من الطبيعي أن يبيع بعض الأهالي أولادهم وبناتهم أو يستبدلونهم بالغلال لسد جوعهم. يضاف إلى ذلك أن القفجاق كانوا يغيرون على جيرانهم من الشراكسة والروس والمجر واللان، ويأسرون منهم ما استطاعوا للبيع في أسواق النخاسة البيضاء ومن ثم صارت قاعدة مملكتهم مدينة صراي[1] فرصة عظيمة للتجار ورقيق الترك والشراكسة والروس والمجر واللان، وهذا هو بعض السر في كثرة الأجناس التي تكونت منها الطبقة المملوكية في مصر، ومن هذه الأجناس التي كثر فيها عنصر القفجاق، ملأ بيبرس صفوف جيشه حتى بلغت عدته أربعين ألف فارس، فيحدثنا المؤرخون في هذا الصدد أن جماعات من مغول القفجاق وفدت مستأمنة إلى مصر في عهد بيبرس وانضمت إلى جيشه. وسميت تلك الجماعات بالوافدية والتتر المستأمنة. وصل منهم أول الأمر مائتا فارس سنة ١٢٦٢م ـ (أواخر سنة ٦٦٠هـ) ثم ما يزيد عن الألف وثلاثمائة فارس بعائلاتهم في سنة ١٢٦٣م هذا بخلاف أعداد أخرى جاءت إلى مصر سنة ١٢٦٤م.

وقد رحب بيبرس بهؤلاء الجند، وخلع عليهم وأكرمهم وانزلهم في دور بنيت لهم خصيصاً بالقرب من اللوق بظاهر مدينة القاهرة وقتذاك، ثم أمر كبراءهم، وأنزل باقيهم في جملة بحريته ومماليكه. وجلب هؤلاء التتار معهم نظمهم وعاداتهم التي كان لها أثر كبير في النظم المملوكية بدليل قول

---

(١) كانت صراي تقع في شمال غرب بحر قزرين، وقد تم بناؤها في عهد بركة خان وتصفها الروايات العربية بأنها مدينة كبيرة ذات أسواق وحمامات ومساجد. وفيها طوائف مختلفة من الناس مثل الروس والمغول والروم و الشركس، كل طائفة منهم تسكن على حدة. كان التجار الغرباء من أهالي العراق ومصر والشام وغيرها يقيمون في مكان خاص محاط بسور حفظاً على أموالهم وبضائعهم، ولما انتشر الإسلام في تلك الجهات، صارت هذه المدينة مقصد العلماء والأدباء أمثال قطب الدين الرازي، وسعد الدين التفتازاني، وغيرهم. راجع (الرمزي: تلفيق الأخبار جـ ١ ص ٤١١ ـ ٤١٣، القلقشندي جـ ٤ ص ٤٥٧.

المقريزي: «ثم كثرت الوافدية أيام الملك الظاهر بيبرس، فغصت أرض مصر والشام بطوائف المغول وانتشرت عاداتهم وطرائقهم»[1] . وعلى هذا الأساس تكون جيش المماليك من عدة فئات من الغرباء يقودهم قائد منهم يعرف بأتابك العسكر. وكلمة أتابك، كما أسلفنا ـ معناها الأمير الأب ثم صارت تعني قائد الجيش على اعتبار أنه أبو العساكر، إذ أن هذا المعنى يتفق مع طابع دولة المماليك التي اعتمدت في المقام الأول على العلاقة بين الأستاذ ومماليكه، أما الفئات التي تكون منها الجيش فهي كالآتي:

المماليك السلطانية: وهم عبارة عن مماليك السلطان السابقين ثم مماليك السلطان القائم الذين يجلبهم لنفسه، ولهذا عرفوا باسم الأجلاب والجلبان، ومنهم طائفة الخاصكية أو الأحداث وتمتاز عن بقية المماليك السلطانية بانضواء أفرادها وهم صغار السن في خدمة السلطان، فهو الذي يتولى تربيتهم وعتقهم. وكانت المماليك السلطانية أعظم الجنود شأناً وأشدهم إلى السلطان قرباً وأوفرهم اقطاعاً، ومنهم تؤمر الأمراء.

جند الحلقة: وهم من محترفي الجندية من أولاد المماليك، وقد عرفوا أيضاً باسم «أولاد الناس»، فهم على هذا الوضع أحرار وليسوا من المماليك. وهم كثرة الجيش وعامته في حالة الحرب، وأصحاب حرف وصناعات في وقت السلم، ولكل أربعين نفساً مقدم منهم ليس له عليهم حكم إلا إذا خرج الجيش إلى الحرب، فهم أشبه باحتياطي الجيش، وبمضي الزمن صار معظم جند الحلقة من أهل مصر. كذلك كان يوجد جند حلقة في الشام، يؤخذون من أهل الشام، ويوزعون على نياباتها.

---

(١)المقريزي: الخطط جـ ٢ ص ٢٢١ ويضرب بولياك، مثلاً على ذلك بقوله: «أخذ المماليك المبادىء الأساسية الإقطاعية من الأمبراطورية المغولية. ومن ثم صارت قوانينهم الإقطاعية لا يبت فيها بواسطة القضاة ووفق أحكام الشريعة الإسلامية، وإنما بواسطة الحجاب وعلى أساس أحكام جنكيزخان ـ الياسة ـ راجع:

(Poliak: Some Notes on the Feudal system of the Mamlouks, j, R, A, S. 1937 p.97).

مماليك الأمراء: وهم يشبهون المماليك السلطانية غير أنهم تابعون مباشرة لأمرائهم ومنهم تتكون الوحدات الحربية التي يذهب بها الأمراء مع السلطان في حروبه.

وهكذا كان تحصين بيبرس للثغور والعواصم المملوكية بأطراف الدولة، وتنظيمه للجيش وفئاته، وعنايته بالأسطول والبريد، من أهم الدعائم اللازمة لإقامة الدولة المملوكية على أسس ثابتة، والدليل على ذلك أن بيبرس استطاع بفضل ذلك الجيش والأسطول والتحصينات، أن يقوم بالدور الذي حلا له أن يقوم به، وهو محاكاة صلاح الدين الأيوبي في الجهاد ضد الصليبيين وحلفائهم في الشام وفي النوبة فضلاً عن جهاد المغول.

٧ ـ جهود بيبرس في مكافحة الخطر الصليبي:

أولاً ـ الإمارات الصليبية في الشام:

سبقت الإشارة إلى أن إقامة الملك لويس التاسع في فلسطين كانت توافق الأيام الأولى لقيام دولة المماليك حينما كانت مطالبة الأيوبيين بعرش مصر على أشدها والحرب قائمة بينهم وبين المماليك. واستطاع لويس التاسع بدهائه أن يستغل هذا النزاع لصالحه وإن يصلح في هدوء ما أحدثته هزيمة المنصورة. وبفضل هذه السياسة المرنة تمكن لويس التاسع من إطلاق عدد كبير من أسرى جيشه، وإلغاء ما تبقى من أموال الفدية فضلاً عن حصوله على وعد من السلطان أيبك بتسليمه بيت المقدس إذا ما انضم إلى جانبه ضد الأيوبيين. ثم جاء تدخل الخليفة العباسي الذي حسم النزاع بين الطرفين المتنازعين مخيباً لآمال الصليبيين المستعمرين واضطر لويس التاسع أن يعود إلى بلاده خائب السعي ١٢٥٤م بعد أن فشل في تغيير الأوضاع السياسية في فلسطين وتدعيم مركز الصليبيين فيها، وإن كان قد استطاع بإقامته هناك أن يرفع الروح المعنوية بين الصليبيين في الشام بعد أن انقطعت عنهم سبل الإمدادات العسكرية من أوروبا. والفترة التي تلت رحيل لويس التاسع إلى أن

تولي بيبرس سلطنة مصر والشام (١٢٥٤م ـ ١٢٦٠م) كانت فترة هدوء ومسالمة بين الصليبيين والمسلمين بسبب انشغال كل فريق بمشاكله الداخلية التي فصلنا الكلام عنها في الفصول السابقة.

على أن هذا الموقف لم يلبث أن تغير تماماً في عهد بيبرس وخلفائه، إذ نجد أن السياسة المصرية نحو الصليبيين في الشام تتسم بطابع العنف والقسوة، والسبب في ذلك يرجع إلى أن الصليبيين أخذوا يتعاونون مع مغول فارس ضد دولة المماليك، ويعملون كأدلاء ومرشدين لجيوشهم المغيرة على الأراضي الشامية. وقد ساعدهم على ذلك موقعهم الجغرافي في الشام الذي أتاح لهم معرفة تحركات الجيوش المصرية والشامية وإحاطة المغول علماً بها مما سهل عليهم إحباط خطط المسلمين في كثير من الأحيان، ولم يقتصر الأمر على ذلك النحو، بل نجد أن بعض الإمارات الصليبية قد سمحت لعدد من الحاميات المغولية بالنزول في حصونها من باب التعاون العسكري أو الدفاع المشترك ضد المسلمين، ولكن لم تلبث هذه الحاميات المغولية أن فرضت إرادتها على الصليبيين في كثير من الأحيان، وصارت تملي عليهم إرادة الخان المغولي المقيم في تبريز أو مراغة أو بغداد.

ومهما يكن من شيء فإن هذه الحركة الماكرة من جانب الصليبيين في الشام، كانت بلا شك السبب الحقيقي لتلك السياسة العنيفة التي اتبعها بيبرس وخلفاؤه نحو الصليبيين إذ عز عليهم أن يكونوا مراقبين من الفرنج لحساب المغول، فصمموا على طردهم من الشام.

بدأت الحرب بين بيبرس والصليبيين على شكل مناوشات محلية، ويفهم من كلام المقريزي أن بيبرس ذهب بنفسه إلى الشام سنة ١٢٦٣م، وكانت حركاته وقتئذٍ تدل على أنه كان يتفقد قواته ويوزعها توزيعاً استراتيجياً خاصاً، وعندما سارعت إليه وفود الإمارات الصليبية تطلب منه السلام والمهادنة، قابلها بمنتهى الجفوة مما يدل على تصميمه على القتال(١).

---

(١) قال بيبرس لرسل الصليبيين: «ردوا ما أخذتموه من البلاد وفكوا أسرى المسلمين =

وفي أوائل سنة ١٢٦٥م دخل بيبرس في عمليات حربية واسعة النطاق ضد الإمارات الصليبية الساحلية، فاستولى على مدينة قيسارية ثم على مدينة أرسوف في جنوبها، وفي السنة التالية ١٢٦٦م هاجم بيبرس قاعدة استراتيجية صليبية خطيرة في الشام وهي قلعة صفد التي كانت قاعدة لفرسان الداوية وبعد قتال عنيف تمكن بيبرس من الاستيلاء عليها، ويقال إن بيبرس استولى على صفد بعد تأمينها ثم نكث بوعده وأمر بقتل حماتها لأسباب غامضة، مما جعل المصادر الصليبية تتهمه بالخيانة والغدر، ولا مجال للحكم هنا عن الخيانة والغدر مع أناس مثل الصليبيين كان الغدر هو شيمتهم طوال تاريخهم الطويل وحسبنا أن نتصفح أخبارهم لنجد أمثلة مشابهة كثيرة في هذا المجال.

وكيفما كان الأمر، فإن سقوط قلعة صفد في يد المسلمين قد أصاب الصليبيين بضربة قاسية، وحطم معنوياتهم إلى حد كبير بدليل أن بعض القوى الصليبية سارعت إلى عقد هدنة مع السلطان بيبرس على أساس مبدأ المناصفة أو المشاركة معه في غلات بلادهم ومنتجاتها ولعل من أطرفها تلك الهدنة التي أبرمت بين السلطان بيبرس وبين ملكة بيروت ازابيلا Isabella بنت الملك جون الثاني إبلين John II Ibelin، التي تطلق عليها المراجع العربية اسم الدبونة، وهو تعريب لاسم البيت الحاكم في بيروت D'Ibelin.

وقد خلفت إزابيلا أباها بعد وفاته سنة ١٢٦٤م على بيروت وجبالها (لبنان) باعتبارها ابنته الكبرى. وكانت هذه الملكة قد تزوجت وهي طفلة من الملك الطفل هيو الثاني ملك قبرص الذي مات قبل أن يعقد عليها، وحاول خليفته هيو الثالث الوصي على قبرص أن يستغلها كوريثة لعرش قبرص لتنفيذ مشاريعه الصليبية في الشرق ولكنه لم ينجح، وذلك لأن الملكة إزابيلا عقدت هدنة مع السلطان بيبرس سنة ٦٦٧هـ (١٢٦٨م) مدتها عشر سنوات. وصارت

= جميعهم فإني لا أقبل غير ذلك «ثم طردهم من مجلسه. راجع (المقريزي: السلوك جـ١ ص ٤٨٥ ـ ٤٨٦، سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية جـ٢ ص ١١٤).

كلما سافرت إلى قبرص، تذهب إلى لقاء السلطان بيبرس وتترك مملكتها وديعة بين يديه إلى حين عودتها[1].

وقد أورد القلقشندي نصوص هذه الهدنة، وهي في مجموعها مفيدة لأنها تبين لنا حدود مملكة بيروت ونواحيها في ذلك الوقت، وتلاحظ أن كثيراً من أسماء مدنها وأحيائها ما زالت باقية إلى اليوم، وفيما يلي نص هذه المعاهدة:

«استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، وبين الملكة الجليلة المصونة الفاخرة، فلانة بنت فلان، مالكة بيروت وجميع جبالها وبلادها التحتية مدة عشر سنين متوالية، أولها يوم الخميس سادس رمضان سنة سبع وستين، على بيروت وأعمالها المضافة إليها، الجاري عادتهم في التصرف فيها في أيام الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وأيام ولده الملك المعظم عيسى، وأيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز، والقاعدة المستقرة في زمنهم إلى آخر الأيام الظاهرية بمقتضى الهدنة الظاهرية، وذلك مدينة بيروت وأماكنها المضافة إليها: من حد جبيل شمالاً، إلى حد صيدا جنوباً وهي المواضع الآتي ذكرها: جونية

(١)تزوجت هذه الملكة سنة ١٢٧٢م (٦٧٠هـ) رجلاً انجليزيا يدعى هامو الغريب Hamoe L'Estrange: كان من اتباع الأمير الإنجليزي إدوارد (آدوار الأول ملك انجلترا فيما بعد) على أن هذا الزوج لم يلبث أن مات في العام التالي، ويبدو أنه كان لا يثق في نوايا هيو الثالث ملك قبرص، فأوصى قبيل وفاته بوضع زوجته ومملكة بيروت تحت حماية السلطان بيبرس، ولما علم هيو الثالث بذلك أقدم على محاولة جريئة وهي خطف الملكة إزابيلا كي يزوجها في قبرص من الشخص الذي يختاره لها، ولكن السلطان بيبرس احتج على هذا العمل وهدد بضرورة تنفيذ وصية هامو وإعادة الملكة إزابيلا إلى بيروت في الحال واضطر الملك هيو أن يعيد إزابيلا إلى بيروت حيث اتخذت لنفسها حرساً من المماليك. وعاشت هذه الملكة بعد وفاة بيبرس وتزوجت مرتين ثم ماتت سنة ١٢٧٢م تاركة حكم بيروت إلى أختها أشيفا، واستمرت بيروت في حكم أسرة إيليسن إلى أن سقطت نهائياً في يد السلطان الأشرف خليل ابن قلاوون عقب سقوط عكا ١٢٨١م.

بحدودها، والعصفورية بحدودها، والرواوق بحدودها، وسن الفيل بحدودها، والريح والشويف بحدودها، وانطلياس بحدودها، والجديدة بحدودها، وحسوس بحدودها، والبشرية بحدودها، والدكوانة وبرج كراجار بحدودها، وقوينة بحدودها، والنصرانية بحدودها، وخلدا بحدودها، والناعمة بحدودها، ورأس الفقيه، والوطاء المعروف بمدينة بيروت وجميع ما في هذه الأماكن من الرعايا والتجار، ومن سائر أصناف الناس أجمعين، والصادرين منها، والواردين إليها، من جميع أجناس الناس والمترددين إلى بلاد السلطان بيبرس وهي:

«الحميرة وأعمالها وقلاعها وبلادها وكل ما هو مختص بها، والمملكة الأنطاكية وقلاعها وبلادها، وجبلة واللاذقية وقلاعها وبلادها، وحمص المحروسة وقلاعها وبلادها وما هو مختص بها، ومملكة حصن عكا وما هو منسوب إليه، والمملكة الحموية وقلاعها وبلادها وما هو مختص بها، والمملكة الرحبية وما هو مختص بها من قلاعها وبلادها، والمملكة البعلبكية وما هو مختص بها من قلاعها وبلادها، والمملكة الدمشقية وما هو مختص بها من قلاعها وبلادها ورعاياها، والمملكة الشقيفية وما يختص بها من قلاعها وبلادها ورعاياها، والمملكة القدسية وما يختص بها، والمملكة الحلبية وما يختص بها، والمملكة الكركية والشوبكية وما يختص بها من القلاع والبلاد والرعايا، والمملكة النابلسية، والمملكة الصرخدية، ومملكة الديار المصرية جميعها بثغورها وحصونها وممالكها وبلادها وسواحلها وبرها ورعاياها وما يختص بها، والساكنين في جميع هذه الممالك المذكورة، وما لم يذكر من ممالك السلطان وبلاده. وما سيفتحه الله تعالى على يده ويد نوابه وغلمانه، يكون داخلاً في هذه الهدنة المباركة، ومنتظماً في جملة شروطها، ويكون جميع المترددين من هذه البلاد وإليها آمنين مطمئنين، على نفوسهم وأموالهم وبضائعهم، من الملكة فلانة وغلمانها، وجميع من هو في حكمها وطاعتها، بحراً وبراً، ليلاً ونهاراً، ومن مراكبها وشوانيها، وكذلك رعية الملكة فلانة وغلمانها يكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم وبضائعهم من

السلطان ومن جميع نوابه وغلمانه ومن هو تحت حكمه وطاعته: براً وبحراً، ليلاً ونهاراً، في جبلة واللاذقية، وجميع بلاد السلطان ومن مراكبه وشوانيه.

وعلى أن لا يجدد على أحد من التجار المترددين رسم لم تجريه عادة، بل يجرون على العوائد المستمرة، والقواعد المستقرة من الجهتين، وإن عدم لأحد من الجانبين مال أو أخذت أخيذة، وصحت في الجهة الأخرى، ردت إن كانت موجودة، أو قيمتها إن كانت مفقودة. وإن خفي أمرها كانت المدة للكشف أربعين يوماً، فإن وجدت ردت، وإن لم توجد حلف والي تلك الولاية المدعى عليه، وحلف ثلاثة نفر ممن يختارهم المدعي، وبرئت جهته من تلك الدعوى، فإن أبى المدعى عليه عن اليمين، حلف الوالي المدعي وأخذ ما يدعيه. وإن قتل أحد من الجانبين خطأ كان أو عمداً، كان على القاتل في جهته العوض عنه نظيره، فارس بفارس، وراجل براجل، وفلاح بفلاح. وإن هرب أحد من الجانبين إلى الجانب الآخر بمال لغيره، رد من الجهتين هو والمال، ولا يعتذر بعذر.

وعلى أنه إن صدر فرنجي من بيروت إلى بلاد السلطان، يكون داخلاً في الهدنة، وإن عاد إلى غيرها لا يكون داخلاً في هذه الهدنة.

وعلى أن الملكة فلانة لا تمكن أحداً من الفرنج على اختلافهم من قصد بلاد السلطان من جهة بيروت وبلادها، وتمنع من ذلك وتدفع كل متطرق بسوء، وتكون البلاد من الجهتين محفوظة من المتجرمين المفسدين.

وبذلك انعقدت الهدنة للسلطان، وتقرر العمل بهذه الهدنة والالتزام بعهودها والوفاء بها إلى آخر مدتها من الجهتين، لا ينقصها مرور زمان، ولا يغير شروطها حين ولا أوان، ولا تنقض بموت أحد الجانبين.

وعند انقضاء الهدنة تكون التجار آمنين من الجهتين مدة أربعين يوماً ولا يمنع أحد منهم من العود إلى مستقره، وبذلك شمل هذه الهدنة المباركة

الخط الشريف حجة فيها، والله الموفق في تاريخ كذا[1] .

وفي سنة ١٢٦٨م (٦٦٦هـ) استولى بيبرس على مدينة يافا في الجنوب، ثم وجه ضربة حاسمة في نفس السنة إلى أهم إمارة صليبية وهي انطاكية في أقصى الشمال، فيروي المؤرخون أنه هاجمها بثلاث فرق: إحداهما اتجهت إلى ميناء السويدية لقطع الصلة بين انطاكية والبحر خوفاً من أساطيل العدو، والثانية سدت الممرات بين قليقية والشام لمنع وصول إمدادات من أرمينيا الصغرى، والثالثة وهي القوة الرئيسية بقيادة بيبرس هاجمت المدينة نفسها واستولت عليها سنة ١٢٦٨م. ويفهم من كلام النويري أن بيبرس استخدم الحيلة قبل التوجه بجيوشه إلى إمارة انطاكية إذ تظاهر بأنه يريد مدينة طرابلس وحاصرها فعلاً، فهرع صاحب انطاكية بوهمند السادس بأسطوله لنجدتها، وعندئذٍ ترك بيبرس خيامه ومتاعه عند طرابلس متظاهراً بالخوف والهزيمة واتجه من فوره إلى انطاكية واحتلها بالطريقة التي ذكرناها، بينما كان أهل طرابلس يلهون ويقولون: «الظاهر بيبرس خاف منا»[2] ، ويفهم من هذه النصوص أن بيبرس لم يحاول استخدام أسطوله عند الهجوم على انطاكية بل اعتمد في ذلك على قوته البرية فقط، بدليل أنه عمد إلى استبعاد أسطول انطاكية من المعركة أولاً، ثم وضع فرقة عسكرية بين المدينة والبحر لتمنع عنها أي مدد من هذه الناحية، وبذلك تم له احتلال المدينة[3] .

وكيفما كان الأمر فإن سقوط إمارة انطاكية كان في الواقع كارثة كبرى على القوى الصليبية لأنها كانت بحكم موقعها الجغرافي سنداً قوياً للدولة الصليبية منذ أوائل الحروب الصليبية وتشير المراجع إلى الرسالة التي كتبها

---

(١)القلقشندي: صبح الأعشى جـ ص ٣٩ ـ ٤٢.

(٢)النويري: كتاب الإلمام فيما جرت به الأحكام المقضية في وقعة الإسكندرية ورقة ١٦٩.

(٣)غنم بيبرس من انطاكية غنائم كثيرة حتى قيل إن النقود قسمت بين الجنود بالطاسات، كما بلغ من كثرة الأسرى أن لم يبق غلام إلا وله غلام وبيع الصغير باثني عشر درهماً، والجارية بخمسة دراهم، المقريزي: السلوك جـ ١ ص ١٤٧.

بيبرس إلى أميرها بوهمند السادس الذي كان مقيماً وقتئذٍ في إمارته الثانية طرابلس في جنوب انطاكية. وكانت هذه الرسالة مليئة بعبارات السخرية والتهكم، وليس الذي يعنينا هنا هو السخرية أو التهكم وإنما استنتاج ما وصلت إليه أحوال الصليبيين من ضعف حتى استطاع بيبرس أن يوجه أمثال تلك العبارات إلى صاحب أكبر إمارة صليبية في الشام في ذلك الوقت.

ثم أخذ بيبرس بعد ذلك في مهاجمة إمارة طرابلس سنة ١٣٧٠ (٦٦٩هـ) فاستولى على المنافذ المؤدية إلى المدينة المحيطة بها ومن أهمها حصن الأكراد Crac de Chevallier وحصن عكار، فأصبح في مقدوره بذلك حصار مدينة طرابلس نفسها، ولكن الأنباء الواردة بوصول الحملة الصليبية الثامنة من فرنسا بقيادة لويس التاسع، أنقذت طرابلس من هذا المصير ذلك لأن السلطان بيبرس عاد أدراجه مسرعاً إلى مصر، إذ كان يخشى أن يعيد ملك فرنسا قصة المنصورة مرة أخرى، ولذا اهتم بتتبع أخبار تلك الحملة، وأعلن حالة التعبئة والاستعداد في الموانىء والثغور المصرية.

ويبدو أن ملك فرنسا كان يريد فعلاً أن يكون اتجاه هذه الحملة الصليبية نحو المعاقل الإسلامية في الشرق العربي، لولا أن أخاه شارل دي انجو الذي كان ملكاً على جزيرة صقلية، أراد استخدام تلك الحملة في تدعيم ملكه، وذلك بالاستيلاء على مملكة تونس التي كانت تحت حكم الحفصيين في ذلك الوقت، والمراجع التونسية ترجع أسباب تلك الحملة إلى عامل الانتقام الشخصي، فيقول أبو القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار: «وسبب نزول الفرنسيس تونس قيل أنه ذكر اسمه يوماً بحضرة الخليفة المستنصر بالله الحفصي، فهضم من جانبه، وقال هو الذي أسره هؤلاء وأطلقوه (يشير إلى المماليك)، فبلغت هذه المقالة الفرنسيس (أي لويس التاسع) فحقد لها وعزم على غزو تونس[1]. والواقع أن هذه الرواية ـ إن صحت ـ لا تعدو أن تكون سبباً مباشراً فقط، أما السبب الحقيقي فيرجع إلى

(١) المرجع (١٢٩).

أهمية موقع تونس بالنسبة لصقلية التي كان يحكمها شارل أخو الملك لويس كما هو معروف، ويكفي أن ننبه الأذهان في هذا الصدد إلى أن غزو المسلمين لصقلية قد تم من تونس في عهد الأغالبة وعلى يد قاضي القيروان أسد بن الفرات سنة ٢١٢هـ (٨٢٧هـ). وكل هذا يفسر مدى خطورة موقع تونس بالنسبة لصقلية ولهذا نجح شارل في إقناع أخيه لويس بتحويل تلك الحملة إلى تونس.

ولم تكد مراكب الفرنسيين تصل إلى الشواطىء التونسية حتى أصيب الملك لويس التاسع بحمى شديدة مات على أثرها، وتولى أخوه شارل قيادة الحملة، فأخذ يسيرها وفق أغراضه حتى أزال عنها صفتها الصليبية، وانتهى أمر هذه الحملة بإجراء مفاوضات مع الخليفة المستنصر الحفصي الذي تعهد بدفع مبلغ من المال مقابل انسحاب الفرنسيين، وهكذا عادت الحملة تجر أذيال الخيبة بتلك النتيجة الضعيفة التي أغضبت معظم الذين اشتركوا فيها(١) .

أما السلطان بيبرس فإنه بعد أن اطمأن على نتائج تلك الحملة الصليبية، غادر مصر وعاد إلى مقاتلة الصليبيين في طرابلس من جديد سنة ١٢٧١م فأرسل إليه أميرها بوهمند السادس بطلب الصالح والمسالمة، هذا في الوقت الذي وصلت فيه حملة صليبية انجليزية بقيادة الأمير ادوارد إلى عكا، فاضطر السلطان بيبرس أن يجيب صاحب طرابلس إلى طلبه ويعقد معه صلحاً لمدة عشر سنوات(٢) . ومن الطريف ما يحكى في هذا الصدد من أنه في أثناء

---

(١)يقول في ذلك أحد الشعراء التونسيين:

يا فرنسيس هذه اخت مصر ... فتهيا لما إليه تصير

لك فيها دار ابن لقمان قبر ... وطواشيك منكر ونكير

والمقصود بالطواشي هنا صبيح المعظمي ـ نسبة إلى المعظم تورانشاه ـ الذي تكفل بالملك لويس التاسع في دار ابن لقمان بمدينة المنصورة، راجع: (جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على مصر ص ٦٠).

(٢)هذا الأمير إدوارد هو إدوارد الأول ملك انجلترا فيما بعد، وكان قد أتى إلى الشام على رأس قوة صغيرة من ألف محارب على أمل التعاون مع خان مغول فارس أبغا بن =

المفاوضات التي دارت بين رسل بيبرس وبوهمند السادس، كان بيبرس نفسه مندساً بين أعضاء الوفد الذي يمثل بلاده، ومتنكراً في زي خادم كي تتاح له حرية التنقل بين حصون طرابلس ومعرفة مواضع القوة والضعف فيها تمهيداً لفتحها فيما بعد.

هذه الجرأة التي اتصف بها بيبرس جعلته يقوم بمحاولة أخرى جريئة قبيل هذا الوقت بقليل حينما أرسل أسطولاً لغزو جزيرة قبرص سنة ١٢٧٠م وكان يحكم هذه الجزيرة الملك هيو الثالث لوزجنان الذي اشتهر بأطماعه الصليبية في الشام، وبعداوته الشديدة لدولة المماليك. غير أن معظم هذا الأسطول تحطم للأسف عند شاطىء الجزيرة على أثر عاصفة شديدة هبت عليه.

وعلى الرغم من أن ملك قبرص حاول أن يجعل من فشل هذه الحملة البحرية نصراً صليبياً كبيراً، إلا أنه يبدو بوضوح أن هذه الهزيمة لم تؤثر في قوة بيبرس تجاه الصليبيين كما أنها لم ترفع من روح الصليبيين المعنوية في الشام بدليل أنهم أصروا على مفاوضة بيبرس ومصالحته، وأخيراً تم الصلح بين بيبرس والإمارات الصليبية بوجه عام ١٢٧١م، وكانت شروط الصلح تدل على أن كلا الطرفين كان في حاجة إلى هدنة، إذ اشترط كل منها على أن موت أحد الطرفين المتعاقدين ينقض ما أبرم من صلح بينهما، واستمر الوضع على هذا الحال إلى وفاة بيبرس سنة ١٢٧٧م.

ثانياً ـ أرمينية الصغرى:

سميت بأرمينية الصغرى للتميز بينها وبين أرمينية القديمة، وكانت

= هولاكو على غزو مصر والشام، ولكن هذا المشروع لم يتحقق نتيجة لانشغال أبغا بمحاربة مغول التركستان، ولم يلبث إدوارد نفسه أن طعنه أحد الحشيشية بخنجره ولكن الطعنة لم تكن قاتلة فاضطر إلى العودة إلى بلاده بعد أن عقد هدنة مع بيبرس مدتها عشر سنوات.

أرمينية قديماً تقع في المنطقة الجبلية الممتدة جنوب القوقاز والبحر الأسود أي بين بلاد فارس والعراق شرقاً وبلاد الروم غرباً. وقد أدر عليها هذا الموقع بأرباح طائلة نتيجة لمرور طريق التجارة بين الشرق والغرب بأراضيها، غير أن هذا الطريق لم يلبث أن تحول نحو الجنوب في القرن العاشر الميلادي وصار يمر بحلب وانطاكية في شمال الشام نظراً لصعوبة الطريق القديم الذي كان يمر بجبال أرمينيا إلى البحر الأسود.

ولا شك أن هذا التحول الجديد قد أفقد أرمينية أهميتها الاقتصادية فأخذت تضعف تدريجياً إلى أن استولت عليها الدولة البيزنطية في القرن الحادي عشر الميلادي.

غير أن الأرمن وهم عنصر اقتصادي مكافح لم يستسلموا لهذا الوضع، بل غادروا بلادهم وانتقلوا جنوباً مع انتقال الطرق التجارية من ناحية، وتحت ضغط هجرات السلاجقة والمغول من ناحية أخرى، واستقروا في جنوب الأناضول وقليقية أي في المنطقة الممتدة من الرها شرقاً إلى أطنة غرباً، وهناك في جنوب آسيا الصغرى أسسوا مملكة أرمينية الصغرى المعروفة زمن الحروب الصليبية والمماليك، واتخذوا مدينة سيس عاصمة لهم.

ولقد لعبت هذه المملكة المسيحية دوراً خطيراً ضد دولة المماليك في مصر والشام، إذ أنها لم تكتف بمساعدة الإمارات الصليبية في الشام، بل تحالفت مع مغول فارس وأخذت تحرض هولاكو وابنه أبغا أو باقا على غزو الشام ومصر، وهذا إلى جانب الحصار الاقتصادي الذي فرضته على دولة المماليك بمنع تصدير الخشب والحديد من آسيا الصغرى إلى مصر.

واضطر السلطان بيبرس أن يتبع مع مملكة أرمينية الصغرى نفس سياسة العنف والقسوة التي اتبعها مع الإمارات الصليبية في الشام، فأرسل إليها سنة ١٢٦٦م حملة تأديبية بقيادة الأمير قلاوون، أغارت على مدنها الرئيسية مثل سيس وأطنه وطرسوس والمصيصة، وعاثت فيها فساداً وتخريباً مدة عشرين يوماً ثم عادت بغنائم كثيرة، وعدد كبير من الأسرى من بينهم ابن هيثوم الأول

ملك أرمينية الصغرى[1] ، واضطر الملك هيثوم لكي يطلق سراح ولده أن يتنازل للمماليك عن عدة مواقع استراتيجية هامة تتحكم في طرق المواصلات التي تربط أرمينية بحلفائها المغول في الجزيرة شمالي العراق من ناحية، وبالصليبيين في انطاكية من ناحية أخرى. كذلك تعهد هذا الملك بدفع جزية سنوية لسلطان مصر والشام في مقابل مسالمته، وظلت أرمينيا الصغرى بعد ذلك محدودة القوى ضعيفة التأثير في مجرى أحداث الشرق العربي إلى أن قامت بحركة عصيان أخرى في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون (ق ١٤م) انتهت بخضوعها واعترافها بسيادة سلطان مصر والشام[2] .

ثالثاً ـ مملكة النوبة:

كانت مملكة مسيحية في أعالي النيل تدين بالطاعة لسلطان مصر، تؤدي له الجزية السنوية المعروفة بالبقط[3] منذ الاتفاقية التي عقدها معها القائد العربي عبد الله بن أبي سرح سنة ٦٥٠م، غير أن هذه التبعية كانت اسمية في غالب الأحيان، إذ أن هذه الدولة كانت كثيراً ما تجنح إلى العصيان وعدم دفع الجزية، وتغير على الأراضي المصرية الجنوبية. وقد اهتمت

(١)يقول أحد الشعراء في تحطيم مدينة سيس قاعدة أرمينيا الصغرى:

يا ملك الأرض الذي عزمه ... كم عالم للكفر منه خرب
قلبت سيس فوقها تحتها ... والناس قالوا سيس لا تنقلب

(تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٣١).

(٢)المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٥٥٢، سعيد عاشور: المرجع السابق جـ ٢ ص ١١٤٨. ويلاحظ أن أرمينيا في الوقت الحاضر مقسمة إلى منطقتين: منطقة روسية باسم جمهورية أرمينيا الاشتراكية، ومنطقة تركية من عدة ولايات أهمها ولاية أرضروم.

(٣)هذه الكلمة بقط إما مأخوذة من الكلمة المصرية القديمة باق Bak بمعنى عبد، أو من الكلمة اللاتينية Pactum ومعناها عقد أو اتفاق، أو انها عربية الأصل بمعنى قطعة أو فرقة. راجع (السيدة الكاشف: مصر في فجر الإسلام، ص ١٥).

السياسة المصرية بوضع هذه المملكة المسيحية إبان الحروب الصليبية بصفة خاصة، عندما صارت قوافل الحجاج والتجار تتجه جنوباً عن طريق النيل إلى مدينة قوص، ومنها إلى عيذاب وجدة في البحر الأحمر بدلاً من طريق السويس ـ العقبة في سيناء الذي صار محفوفاً بالمخاطر بسبب الحركات الصليبية على سواحل الشام وفلسطين وقيام الإمارات الصليبية(١) .

ويبدو أن صلاح الدين الأيوبي قد خشي من أن تكون هناك صلة بين غارات النوبيين على أسوان وبلاد الصعيد، وبين غارات الصليبيين على سواحل بحر القلزم (الأحمر) حتى بلغت عيذاب وتوغلت إلى قوص لهذا أرسل صلاح الدين أخاه تورانشاه على رأس حملة تأديبية توغلت في بلاد النوبة حتى دنقلة ثم استقر قسم منها في قلعة ابريم(٢) لحماية قوافل الحجاج والتجارة في هذه الأطراف المصرية الجنوبية.

وعند قيام دولة المماليك تكررت اعتداءات النوبيين على الأراضي المصرية، وانتهز ملك النوبة المدعو داود فرصة انشغال الظاهر بيبرس بحروبه ضد المغول والصليبيين ومملكة أرمينية الصغرى، وهاجم ثغر أسوان سنة ١٢٧٢م. ويبدو أن داود قام بهذه الأعمال الاستفزازية مدفوعاً بروح صليبية وكراهية دينية. بدليل أنه هاجم أيضاً ميناء عيذاب لا بقصد تهديد التجارة المملوكية في البحر الأحمر فحسب بل لقطع طريق الحج في هذه المنطقة.

وقد رد بيبرس على ذلك بإرسال حملتين متتاليتين إلى بلاد النوبة في سنتي ١٢٧٣م، ١٢٧٥م بقيادة الأميرين آقسنقر الفارقاني وعز الدين الأفرم، وشاركت البحرية النيلية في هذه الحملات بنقل الجنود والآلات والأقوات حتى مدينة أسوان. وتمكن الأمير عز الدين الأفرم من اختراق الجنادل بمراكبه قرب الشلال الثاني، والانتصار على الملك داود وأسره وإقامة عمه شكنده

---

(١)راجع: مصطفى مسعد، الإسلام والنوبة في العصور الوسطى ص ١٤٢.

(٢)أبريم بلدة قديمة على الضفة الشرقية للنيل في منطقة النوبة المصرية التي عرفت في العصر الروماني باسم nubatai وفي المراجع القديمة باسم مريس.

الذي تعهد بدفع الجزية في كل عام. هذا وكان السلطان بيبرس قد احتل مدينة سواكن المنفذ البحري لمملكة النوبة على البحر الأحمر سنة ١٢٦٥م مما أدى إلى تهديد المعاقل المسيحية في بلاد النوبة فضلاً عن أحكام السيطرة المصرية على البحر الأحمر وتجارته. وقد أنشأ السلطان بيبرس عقب هذه الانتصارات ديواناً خاصاً للنوبة في القاهرة تحت إشراف الوزير بهاء الدين بن حنا لمراقبة وصول الجزية من النوبة بانتظام.

يلاحظ أن الحملات المستمرة على بلاد النوبة قد شجعت القبائل العربية على مصاحبتها بغية الاستقرار إلى جوار النوبيين والاختلاط بهم وخاصة في منطقة شمال النوبة أو أرض المريس. ونذكر على سبيل المثال عرب ربيعة الذين تزوجوا بنات رؤساء النوبيين فأصبحت لهم مصالح مادية لانتفاعهم بنظام الوراثة المعروف عند النوبيين وهو توريث ابن البنت أو ابن الأخت(١) .

وهكذا أخذت هذه المَملكة المسيحية تصطبغ بالصبغة العربية الإسلامية وتفقد طابعها المسيحي تدريجياً بحيث لم يكد يمر على وفاة بيبرس نصف قرن تقريباً (ق ١٤م) حتى كان النوبيون قد اعتنقوا الإسلام، وانتقل الملك فيهم إلى بني كنز(٢) ، فسقطت عنهم الجزية لأن بني كنز عرب مسلمون من ربيعة وهم الكنوز الحاليون.

---

(١)مصطفى محمد مسعد الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، ص ١٣٤، تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٥١.

(٢)أصل هذه التسمية ترجع إلى أيام الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله حينما استعان بأمير ربيعة أبـي المكارم هبة الله في القبض على أبـي ركوة الذي فر بعد هزيمته إلى جنوب مصر، ونجح أبو المكارم في القبض على أبـي ركوة الذي فر بعد هزيمته إلى نوب مصر، ونجح أبو المكارم في القبض عليه سنة ١٠٠٦م فكافأه الخليفة الحاكم بلقب كنز الدولة وتوارث أبناؤه هذا اللقب وعرف بنو ربيعة ببني كنز، انظر (مصطفى مسعد: نفس المرجع ص ١٣٥).

٨ ـ حروب بيبرس ضد المغول:

كانت المشكلة الكبرى التي واجهت السلطان بيبرس منذ بداية حكمه هي مواجهة مغول فارس، ذلك لأن خطرهم كان واضحاً تماماً خصوصاً بعد واقعة عين جالوت التي تعد بداية لا نهاية لعلاقات دولة إيلخانات فارس بالمماليك. ولعل بيبرس لم ينس الكلمات التي تفوه بها كتبغا نوين قائد المغول في عين جالوت قبيل مصرعه على يد قطز وهي: «إني إن هلكت على يدك، فإني أعلم أن الله لا أنت هو الذي أراد قتلي، فلا تنخدع بهذا النصر المؤقت، لأنه لا يكاد يصل إلى هولاكوخان خبر موتي، حتى يغلي غضبه كالبحر المضطرب فتطأ أرجل الخيل المغولية أرض البلاد ابتداءً من أذربيجان إلى أبواب مصر»[1] .

فمثل هذه الكلمات الجريئة القوية تصور مدى الخطر الذي كان ينتظر دولة المماليك من هولاكو بعد أن هزم جيشه وقتل قائده، وصهره كتبغا. ثم ازداد هذا الموقف خطورة عندما ارتبط الخطر المغولي بخطر الصليبيين الذين حاولوا استمالة المغول ومحالفتهم طمعاً في نشر المسيحية بينهم والاستعانة بهم في غزو مصر والشام.

ولمجابهة هذا الموقف تحالف بيبرس مع مغول القفجاق وتزوج ابنة زعيمهم بركة خان الذي اعتنق الإسلام وصار حرباً على بني جنسه مغول فارس. ويظهر ذلك بوضوح في الرسالة التي بعث بها إلى السلطان بيبرس سنة ١٢٦٣م يقول فيها: «فليعلم السلطان أنني حاربت هولاكو الذي من لحمي ودمي لإعلاء كلمة الله العليا تعصباً لدين الإسلام»[2] .

على أن بيبرس لم يعتمد فقط على هذا التحالف، بل أخذ يحصن

---

(١)راجع فؤاد عبد المعطي الصياد: مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمذاني، ص ٥٥.

(٢)العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (الجزء الخاص بحوادث ٦٥٦ = ٦٧٣هـ) ص ٤٩٤، سعيد عاشور: مصر في عصر دولة المماليك البحرية، ص ٤٠.

أطراف دولته المواجهة لدولة مغول فارس على نهر الفرات، لا سيما قلعة البيرة التي زودها بمعدات تكفيها لمقاومة الحصار مدة عشر سنوات كي تظل شوكة في جنب المغول في هذه الجبهة الشرقية. كذلك عمل على إفساد الطرق والوديان المؤدية إلى الشام كي لا يجد المغول أثناء زحفهم ما يحتاجون إليه من أقوات أو أعشاب لدوابهم.

وفي عام سنة ١٢٦٥م (٦٦٣هـ) مات هولاكوخان، غير أن وفاة الأشخاص في دولة فتية مثل الدولة المغولية، لم يؤثر مطلقاً في عزم التتار على تحقيق ما بدأه هولاكو من التقدم نحو غزو دولة المماليك في مصر والشام، بل إن الخان الجديد لدولة ايلخانات فارس واسمه أباقا أو أبغا (١٢٦٥ ـ ١٢٨٢ ـ ٦٦٣ ـ ٦٨٠هـ) زاد على سياسة أبيه هولاكو بأن اهتم بمسألة الحلف مع الصليبيين، فكان يعطف على المسيحيين ويتبادل السفارات والهدايا مع البابوات وملوك أوروبا. وكان الهدف المشترك من تلك المفاوضات هو تنظيم حملة مشتركة للقضاء على دولة المماليك والاستيلاء على بيت المقدس. وقد ظهر أثر ذلك التحالف واضحاً عندما انتهز أباقا خان فرصة انشغال بيبرس بمحاربة الصليبيين للإغارة على الحدود الإسلامية، مثال ذلك ما حدث سنة ١٢٦٦م حينما أغارت الجيوش المغولية على مدينة الرحبة على الحدود الفراتية في الوقت الذي كانت فيه جيوش بيبرس تهاجم مدينة صفد الصليبية.

ولكن على الرغم من هذا الجو العدائي، فإنه يبدو أن باقا خان حاول أن يجري الصلح مع بيبرس على شروط تلائم المغول أو بمعنى آخر حاول أن يستخدم الأساليب الدبلوماسية في بسط سيطرته على دولة المماليك فأرسل إلى الظاهر بيبرس رسالة سنة ١٢٦٨م يعرض عليه الصلح ويطلب منه الخضوع والرضوخ، مثل قوله: «فأنت لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت منا، فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحاً» غير أن هذه اللهجة المغولية الآمرة في طلب الصلح لم تعجب بيبرس فرد على الرسول المغولي بقوله: «اعلم أني وراءه بالمطالبة، ولا أزال أنتزع من يده جميع البلاد التي

استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض».

وفي سنة ١٢٧٢م توجه بيبرس لملاقاة التتر على أرضهم، فحمل معه عدة مراكب مفصلة أجزاء على ظهور الجمال، وأنزلها في نهر الفرات لتعبر بها جيوشه، واستطاع بيبرس وجنوده عبور النهر والانتصار على الجيوش المغولية ومطاردة فلولها في الأراضي العراقية سنة ١٢٧٣م. ويبدو أن نجاح بيبرس في هذه الحملة مكنه من جذب عدد من كبار رجال الدولة المغولية إلى جانبه، إذ يروي مؤرخ المغول رشيد الدين أن أباقا خان نكب أسرة الجوينيين الذين كانوا يحكمون العراق في عهده بتهمة الاتصال بملك مصر الظاهر بيبرس، والاتفاق معه على تسليم العراق له، ومن بين هؤلاء المؤرخ عطا ملك الجويني حاكم العراق وأخوه الخراجة شمس الدين محمد وزيره، وأبناؤهما. وكلهم أهل فضل وأدب، وأرباب جود وكرم، وكانت مجالسهم محط رجال الأدباء والكتاب والشعراء ومناط آمالهم، بذلوا كل ما في وسعهم لتعمير ما خربه المغول ولم يتأخروا عن تنفيذ كل ما هو نافع وصالح[1] .

هذه الحادثة التي تذكرنا بنكبة البرامكة أيام هارون الرشيد، تدل بوضوح على أن بيبرس استطاع أن ينتصر على أعدائه في هذه الجبهة، وأن يؤمن بذلك حدوده الشرقية من الخطر المغولي.

على أن الصراع بين دولتي المغول والمماليك لم يقف عند هذا الحد إذ سرعان ما انتقل إلى ميدان آخر وهو بلاد آسيا الصغرى في الشمال والسبب في هذا التحول هو أن بيبرس بعد أن أمن حدوده الشرقية أراد تأمين حدوده الشمالية المتاخمة لبلاد السلاجقة الروم في آسيا الصغرى وكانت هذه البلاد تابعة للمغول منذ أن انحاز ملوكها إلى هولاكو وكانت مقاليد الحكم في يد الوزير معين الدين سليمان البرواناه، والبرواناه، لفظ فارسي معناه الحاجب.

وكان هذا البرواناه يعمل إلى جانب أصحاب السيادة في البلاد وهم المغول، فلما تغلب بيبرس على المغول، مال البرواناه إلى جانب المنتصر

(١)فؤاد عبد المعطي الصياد: مؤرخ المغول رشيد الدين، ص ٥٨ ـ ٥٩.

وأخذ يراسل بيبرس معلناً انضمامه إليه، فتقدم بيبرس بجيوشه إلى آسيا الصغرى، وانتصر على الجيوش المغولية انتصاراً ساحقاً عند بلدة أبلستين أو أبلستان[1] سنة ١٢٧٧م (٦٧٥هـ)، إذ فقد من المغول في تلك المعركة ما يقرب من ٧٠٠٠ نفس. ثم دخل بيبرس مدينة قيصرية عاصمة سلاجقة الروم حيث نزل بدار السلطنة وجلس على عرش سلاجقة الروم وخطب له على المنابر واستقبله الأهالي استقبالاً رائعاً، ثم عاد بيبرس إلى الشام[2].

ولما علم أباقا خان بما حل بجيشه في الأناضول، سارع إلى ميدان المعركة في ابلستين ويقال أنه بكى عندما شاهد أشلاء القتلى من جنوده، ثم صب جام غضبه على أهالي البلاد فقتل منهم عدداً كبيراً لترحيبهم بسلطان مصر، كما أمر بقتل البرواناه أيضاً بعد أن قام نساء القتلى من المغول بثورة كبيرة مطالبين بدمه لأنه كان السبب في هذه الكارثة.

ويأخذ بعض المؤرخين على بيبرس أنه لم يعد إلى بلاد سلاجقة الروم لحمايتها وطرد المغول منها بحكم أنها صارت تابعة لدولة المماليك رسمياً، ولكن ربما كان السبب في ذلك أن بيبرس في ذلك الوقت تولاه التعب أو المرض بدليل أنه مات في نفس تلك السنة[3] بعد مقتل البرواناه بوقت قصير سنة ١٢٧٧م (٦٧٦هـ) ودفن بدمشق.

وهكذا تنتهي حياة السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس البند قداري الصالحي الذي تصفه المراجع بأنه كان طويل القامة، أسمر اللون، أزرق

---

(١)تقع ابلستين في شرق مدينة قيصرية أو قيساوية الروم.

(٢)يقال في هذا الصدد أن أول ما فتحه بيبرس قيسارية الشام وآخر ما فتحه قيسارية الروم (تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٨٤ هذا وقد أورد القلقشندي نصر الرسالة التي من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر إلى الوزير بهاء الدين ابن حنا يصف فيها فتح قيسارية الروم من أيدي التتاري واستيلاء بيبرس على ملكها وجلوسه على تخت بني سلجوق. (صبح الأعشى جـ ١٤، ص ١٣٩ ـ ١٦٥).

(٣)تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٨٥ ـ ٨٧ حيث ترد روايات المؤرخين حول أسباب وفاته ويعتقد البعض أنه مات مسموماً.

العينين، جهوري الصوت، شجاعاً بطلاً هماماً، عسوفاً عجولاً، في عينه أثر بياض بقدر خرم إبرة، وكان هذا من أسباب عدم الإقبال على شرائه. ثم اشتراه الأمير ايدكين البند قداري فبقي في خدمته إلى أن أخذه منه الملك الصالح نجم الدين أيوب.

كذلك يؤثر عن السلطان بيبرس أنه كان خفيف الركاب يقضي طول أيامه راكباً على الهجن وخيول البريد دايرا على الممالك والقلاع حتى أنه كان يلعب الكرة (البولو) في الجمعة يومين، يوم بمصر ويوم بدمشق، وفي ذلك يقول سيف الدولة المهمندار يمدحه:

يوماً بمصر ويوماً بالحجاز ويو ماً بالشام ويوماً في قرى حلب

ولا شك أن هذا السلطان العظيم استطاع بأعماله وإصلاحاته الواسعة النطاق أن يحول دولة المماليك، من دولة ناشئة إلى دولة قوية مدعمة الأركان، وأن يمهد الطريق لخلفائه من بعده كي يتموا رسالته، ويصلوا إلى الهدف المنشود وهو القضاء على المغول والصليبيين.

لهذا بعد صيته، واشتهرت سيرته دوناً عن سائر السلاطين لدرجة أن أخباره، امتزجت فيها حقائق التاريخ بخيال القصص، ونذكر على سبيل المثال تلك الملاحم الشعبية المعروفة بالسيرة الظاهرية أو سيرة الظاهر بيبرس[1] التي تصور شخصية بيبرس وكأنها شخصية عصر أكثر مما هي شخصية إنسان، إذ تنعكس فيها صورة هذا الوضع الجديد أو هذه النقلة الجديدة التي تحولت فيها دولة المماليك في مصر والشام إلى دولة قوية راسخة الأقدام.

---

(١) للظاهر بيبرس سيرتان أحدهما للقاضي محيي الدين بن عبد الظاهر، والأخرى لمحمد بن شداد، وقد أورد ابن الفرات نماذج منها في تاريخه. راجع (تاريخ ابن الفرات جـ٧ ص ٨٤ ـ ٨٨ نشر قسطنطين زريق) وتجدر الإشارة هنا إلى السيرة الظاهرية التي كتبها حديثاً المرحوم بيبرس التونسي.

أبناء الظاهر بيبرس:

انتهت الحوادث التي تلت وفاة بيبرس انتهاء مملوكياً عادياً إذ أقيم في السلطنة على التوالي ابنان له وهما الملك السعيد محمد المدعو بركة خان ثم الملك العادل سلامش. وفي خلال ذلك وقعت أحداث مختلفة أدت إلى عزلهما وتولية أقوى أمير مملوكي في ذلك الوقت وهو الأمير سيف الدين قلاوون الصالحي الألفي سلطاناً على مصر والشام.

كان الابن الأول لبيبرس وهو الملك السعيد محمد في سن تؤهله لأن يملأ منصب السلطنة إذ يبلغ من العمر ١٧ سنة. وتشيد المراجع المعاصرة بدماثة خلقه وحسن طباعه وعدم ميله إلى سفك الدماء. ولكن يبدو أن هذه الصفات كانت سبباً في عزله لأنها لم تكن تلائم روح هذا العصر، فالملك السعيد لم تكن له دراية بمؤامرات المماليك ودسائسهم، مما اضطره إلى أن يحيط نفسه بحرس خاص من مماليكه وهو ما يعرف في المصطلح الرسمي المملوكي باسم الخاصكية (حرس خاص). وبطبيعة الحال تحيز الملك السعيد لمماليكه فأغدق عليهم الأموال وأطلق أيديهم في إدارة شؤون الدولة. وقد أثار هذا العمل استياء كبار المماليك ولا سيما الأمراء الصالحية الذين كانوا يرون أنهم أحق بالملك منه، فكتبوا إليه قائلين:

«إنك أفسدت الخواطر وتعرضت إلى أكابر الأمراء، فإما أن ترجع عما أنت عليه، وإلا كان لنا ولك شأن آخر»[١].

وانتهى هذا النزاع بخلع المماليك للملك السعيد بعد حكم دام سنتين، وأجلسوا مكانه أخاه بدر الدين سلامش الذي كان طفلاً في السابعة من عمره.

وتنبغي الإشارة هنا إلى أن بعض أمراء المماليك عرضوا على الأمير سيف الدين قلاوون أقوى شخصية مملوكية في ذلك الوقت، أن يتولى السلطنة بدلاً من سلامش، ولكن قلاوون رفض هذا العرض وقال:

---

(١)المقريزي: السلوك جـ ١ القسم الثاني ص ٦٤٥.

«أنا لم أخلع الملك السعيد طمعاً في السلطنة، ولكن حفظاً للنظام وأنفة لجيوش الإسلام أن يتقدم عليها الأصاغر، والأولى ألا يخرج الأمر من ذرية الملك الظاهر بيبرس»[1] .

وقد يبدو من عبارة الأمير قلاوون أنه حريص على وجوب تطبيق المبدأ الوراثي للعرش وذلك بإبقاء منصب السلطنة في بيت بيبرس، ولكن الحقيقة غير ذلك بالمرة، فإن الأمير قلاوون أراد بهذه العبارة المعسولة أن يخفي مطامعه ومشاريعه حتى يمكن لنفسه أولاً، ولا أدل على ذلك من أن قلاوون نفسه هو الذي خلع الابن الثاني لبيبرس وهو سلامش بعد أن تخلص من مناوئيه وصفا له الجو ثم تسلطن من بعده عام ١٢٧٩م، وفي ذلك يقول أبو المحاسن وخاف قلاوون من ثورة المماليك الظاهرية عليه لأنهم كانوا يوم ذاك هم معظم عسكر الديار المصرية. . . فلما مهد أمره تسلطن.

ومن الغريب أننا نلاحظ أن قلاوون بالرغم من عدم احترامه لمبدأ الوراثة إلا أنه وأبناءه من بعده قد نجحوا في تطبيق المبدأ الوراثي مدة طويلة فقد ولي بعده ابنان له وهما الأشرف خليل والناصر محمد ثم تداول أبناء الناصر محمد وأحفاده عرش السلطنة المملوكية حتى نهاية دولة المماليك الأولى في مصر.

ولكن ليس معنى هذا أن مبدأ التوريث قد لقي قبولاً من أمراء المماليك وإنما الواقع هو أن قلاوون وأولاده من بعده قد استطاعوا أن يقاوموا جميع مؤامرات المماليك، وأن يتغلبوا على محاولاتهم في انتزاع السلطنة منهم.

ولما كان عصر الناصر محمد بن قلاوون هو أطول عهد عرف بين سلاطين المماليك، فإن شخصيته قد توطدت وتأثلت في الدولة وفي عقلية الناس، فكان من السهل على أبنائه من بعده أن يتداولوا السلطنة فيما بينهم طيلة القرن الرابع عشر الميلادي.

---

(١)المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٦٥٧.

الفصل السابع

دولة بني قلاوون حتى نهاية دولة المماليك الأولى

السلطان المنصور سيف الدين قلاوون

(١٢٧٩ ـ ١٢٩٠م = ٦٧٨ ـ ٦٨٩هـ)

واسمه بالكامل المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي الألفي، ويعتبر من أعظم سلاطين المماليك بعد الظاهر بيبرس، كما أنه يشابهه من حيث الأصل، فهو رقيق من بلاد القفجاق، جيء به إلى مصر منذ صغره وبيع للملك الصالح أيوب ولهذا لقب بالصالحي، أما تسميته بالألفي فإشارة إلى حادثة شرائه بألف دينار وفي ذلك ما يدل على أن هؤلاء السلاطين لم يخجلوا أو يأنفوا من أصلهم الوضيع. وقد تدرج قلاوون في الرقي حتى بلغ مرتبة الأتابك أو نائب السلطنة في عهد بيبرس ثم في أيام ولديه السعيد وسلامش.

وفي بداية حكم السلطان قلاوون حدثت بعض الأحداث المعتادة كالتي تحدث دائماً في أوائل عهود معظم سلاطين المماليك، وهي معارضة الأمراء لسلطنته. وقد جرت العادة أن يتخذ أولئك الأمراء المعارضون من حادثة خلع ابن السلطان ذريعة للمعارضة والاحتجاج والدفاع عن مبدأ الوراثة وواجبات الولاء نحو السلطان المتوفى ونحو العهود والمواثيق التي قطعت له بصدد تولية ابنه من بعده. والواقع أن هذه الحركة التي يقوم بها بعض الأمراء كانت

لا تخرج عن مجرد الرغبة في المعارضة واستغلال الظروف لمصالحهم الشخصية، فلو أن واحداً من هؤلاء الأمراء المعارضين تمكن من خلع قلاوون والوصول إلى السلطنة لما احترم مبدأ الوراثة الشرعية ولما راعى حقوق الولاء لابن السلطان المتوفى فالمعارضة هنا مسألة شكلية لتغطية ما بنفوسهم من أطماع وطموح نحو العرش.

والذي حدث فعلاً في أوائل أيام السلطان قلاوون، أن الأمير شمس الدين سنقر الأشقر نائب السلطان في دمشق أعلن نفسه سلطاناً على الشام بمجرد سماعه بسلطنة قلاوون وعزل سلامش وتلقب بالملك الكامل، وانضم إليه عدد كبير من المماليك الظاهرية كما قام إلى جانبه سليل أيوبي وهو صاحب حماة، كذلك شيوخ القبائل العربية المقيمة على حدود الشام والعراق.

ولقد استطاع قلاوون القضاء على هذا الحلف في واقعة الجسورة بالقرب من دمشق في يوليو سنة ١٢٨٠م وفر سنقر إلى قلعة بالحدود الشامية تسمى صهيون بينما استولى السلطان قلاوون على دمشق وعفا عن أهلها الذين كانوا قد انضموا إلى سنقر ونذكر من بينهم قاضي المدينة شمس الدين بن خلكان صاحب كتاب وفيات الأعيان وكان قد أفتى بصحة سلطنة سنقر[١].

أخذ السلطان قلاوون بعد ذلك يسير على سياسة بيبرس نحو الخطرين الرئيسيين المحيطين بدولة المماليك وهما المغول والصليبيون.

وكان الخطر المغولي هو الخطر الأكبر، فإنه مهما قيل عن الصليبيين وقوتهم فلا يجب أن ننسى أن الصليبيين قد تضاءلت قوتهم منذ أن تضاءلت الإمدادات الواردة إليهم من أوروبا.

ورأى قلاوون مهادنة الصليبيين مؤقتاً وتركيز قواه ضد المغول فالفترة

---

(١)المقريزي: السلوك جـ١ ص ٦٧٦ ـ ٦٨٧.

التي بين ١٢٨١ إلى ١٢٨٢ كانت فترة معاهدات مع القوى الصليبية الباقية في الشام وهي:

١ ـ مملكة بيت المقدس الوهمية ومركزها عكا (وملكها في ذلك الوقت شارل أنجو Anjou وتولى نائبه Odo مفاوضة السلطان في الهدنة).

٢ ـ هيئة الفرسان الاسبتارية ومركزها حصن المرقب جنوب اللاذقية.

٣ ـ هيئة الفرسان الدواية ومركزها في طرسوس.

٤ ـ إمارة طرابلس وبها الباقية للأمراء النورمان وأميرها في ذلك الوقت بوهمند السابع.

وبمقتضى هذه المعاهدات تقررت الهدنة بين الفريقين لمدة عشر سنوات[١].

وعلى الرغم من أن قلاوون كان هو الساعي بعقد تلك المهادنات فإن معظم شروطها كان في صالحه وفي صالح الدولة المملوكية ومثال ذلك تعهد القوى الصليبية بعدم بناء أسوار وقلاع جديدة والسماح للسفن الإسلامية بالحرية التامة في الموانىء الصليبية. وهذا يدل على أن الصليبيين كانوا يأملون من وراء تلك المعاهدات المحافظة على كيانهم فقط.

حروب قلاوون مع ايلخانات فارس:

قلنا أن مغول فارس استمرت أنظارهم متجهة نحو احتلال مصر والشام والانتقام لهزيمة عين جالوت (لا تزال هذه القرية موجودة باسم جالود من قضاء نابلس ولا يتجاوز عدد سكانها عن مائة وخمسين نفساً ـ النجوم جـ ٨ ص ٥٦ حاشية).

ولقد انتهز ملكهم أباقا أو أبغا بن هولاكو ما حدث في الدولة المملوكية من انقسام واضطراب بسبب ثورة نائب دمشق سنقر الأشقر ضد قلاوون، فأخذ يعد العدة من جديد لغزو الأراضي الشامية والمصرية معتقداً

---

(١) محمد جمال الدين سرور: دولة بني قلاوون في مصر ص ٢٢٢.

بأن سنقر سوف يعمل على مساعدته وتأييده في هذا الغزو. وكان سنقر قد راسل المغول ووعدهم بالمساعدة ضد سلطان مصر ولكنه عاد أخيراً وعدل عن موقفه حينما راسله إخوانه مماليك مصر قائلين:

«وهذا العدو قد دهمنا وما سببه إلا الخلف بيننا وما ينبغي هلاك الإسلام».

وكانت النتيجة أن انضم سنقر إلى قلاوون وعادت وحدة المماليك من جديد، وهذه شيمتهم دائماً إبان الأخطار والأزمات.

عبرت الجيوش المغولية نهر الفرات بقيادة منكوتمر بن هولاكو (أخو أباقا) واستولت على حلب، وتقدم قلاوون بجيوشه حتى التقى بالمغول بالقرب من مدينة حمص عند قبر خالد بن الوليد وهناك دارت موقعة كبيرة سنة ١٢٨١ انتهت بهزيمة التتار وانسحابهم إلى نواحي الفرات، وأراد قلاوون أن يقضي عليهم قضاءً مبرماً فأرسل بطريق الحمام الزاجل إلى عماله وقواده عند الحدود الفراتية للوقوف في وجه التتر الهاربين، كما أمر بأن تضرم النار بالأجمة والحشائش التي على الفرات فاحترق من المغول خلق كبير، وعاد منكوتمر جريحاً حزيناً إلى بغداد حيث وبخه أخوه أباقا بقوله، لم لامت أنت والجيش ولا انهزمت[(١)] .

والواقع أن واقعة حمص هذه كان لها أثر كبير في تاريخ العلاقات بين المغول والمماليك إذ نجم عنها هدنة طويلة الأمد وأيقن المغول أنه لا قبل لهم بالمماليك ولو إلى حين.

هذا وقد جاء هذا النصر في وقت كانت فيه حركة الاتصال بين المغول والصليبيين لتكوين جبهة متحدة ضد مصر، تسير سيراً حسناً، فلما قضى قلاوون على الخطر المغولي في وقعة حمص زالت معه قيمة ذلك الحلف الصليبي المغولي.

---

(١)المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٦٩٠.

ثم حدث أن توفي أباقا خان سنة ١٢٨٢م، أي في العام التالي للهزيمة، وخلفه على السلطنة المغولية أخوه تكودار الذي كان قد اعتنق الإسلام قبل سلطنته وسمى نفسه تكودار أحمد سلطان. ويستنتج من هذا أن المحاولات التي قام بها المسيحيون لتنصير المغول والتحالف معهم، كان يصاحبها أيضاً حركة تبشيرية من جانب المسلمين لنشر الإسلام بين المغول.

على أن انتشار الإسلام بين مغول فارس ولو بصفة مبدئية لم يكن معناه زوال ما بين الدولتين المغولية والمملوكية من عداء ومشاكل سياسية. كما أن وجود سلطان مسلم على العرش المغولي لم يحل دون الاستمرار في السياسة العدائية نحو مصر على اعتبار أن هذه السياسة كانت تعد أساساً تقليدياً للمحافظة على مصالح وأطماع دولة مغول فارس، والرسائل العدائية التي أرسلها تكودار أحمد إلى السلطان قلاوون تدل على ذلك (القلقشندي جـ ٨ ص ٦٥ ـ ٦٨).

على أن السلطان أحمد لم يستطع القيام بأي نشاط عسكري في خارج مملكته بسبب الاضطرابات الداخلية التي عمت بلاده، ولهذا كانت سياسته نحو مصر سياسة سلمية هادئة.

غير أن هذه السياسة السلمية التي سلكها السلطان أحمد مع المصريين والشاميين جعلت أمراء المغول يتهمونه بالتهاون مع المسلمين بسبب إسلامه فثاروا وانتهى الأمر بقتله وتولية ابن أخيه المسمى أرغون بن أباقا سنة ١٢٨٤م. على أن أرغون لم يستطع هو الآخر القيام بأي عمل خطير ضد مصر والشام طوال عهد قلاوون.

هذا من ناحية مغول فارس، أما من ناحية مغول القفجاق أو القبيلة الذهبية، فإن السلطان قلاوون حافظ على العلاقات والصلات الودية القديمة التي تربط بلاده بهذه الدولة المغولية الشمالية.

حروب قلاوون مع الصليبيين:

بعد أن انتهى السلطان قلاوون من الخطر المغولي بانتصاره المعروف في واقعة حمص، انقلب إلى حرب الصليبيين، ولم يلتفت إلى المعاهدات والمهادنات التي أبرمها معهم، بل شن هجوماً فجائياً على مركز الفرسان الاسبتارية وهي قلعة المرقب جنوبي اللاذقية وذلك في عام ١٢٨٥م. ولم يستطع الفرسان الاسبتارية مقاومة هذا الهجوم فسلموا حصنهم بعد حصار دام شهراً وانتقلت فلولهم إلى عكا وطرابلس.

وخافت الإمارات الصليبية الأخرى أن يكون مصيرها مماثلاً فهرع بوهمند السابع صاحب إمارة طرابلس إلى مهادنة قلاوون مقدماً له بعض الحصون والأموال لترضيته، وفعلت مثله إمارة صور ودولة أرمينيا الصغرى وكل هذا إن دل على شيء فإنما يدل على مقدار ما شعرت به تلك الإمارات الصليبية من خطر تجاه قلاوون.

وفي عام ١٢٨٧م أي بعد سنتين من سقوط حصن المرقب، استولى قلاوون على مدينة اللاذقية التابعة لإمارة طرابلس. وقد برر قلاوون هجومه هذا بوفاة بوهمند السابع على اعتبار أن هذه الوفاة تعفيه من التمسك بشروط الهدنة. كما تنص على ذلك المعاهدة التي أبرمت بينهما.

ولم يقتصر قلاوون على ذلك بل حاصر مدينة طرابلس نفسها واستولى عليها سنة ١٢٨٩م (٦٨٨هـ) فيروي المؤرخون أنه أطبق عليها بجيوشه ومجانيقه من جهة البر لدرجة أن الكثيرين من سكانها الصليبيين فروا من ناحية البحر على ظهر السفن إلى جزيرة قريبة من الساحل تعرف بجزيرة القديس نيقولا، ولكن المماليك لحقوا بهم وقتلوهم عن آخرهم. ويذكر المؤرخ المعاصر أبو الفداء أنه ركب سفينة من طرابلس إلى هذه الجزيرة بعد أن فرغ الناس من نهبها، ولكنه لم يستطيع البقاء فيها من رائحة جيف القتلى[1] . كذلك يلاحظ أن السلطان قلاوون أمر بهدم مدينة طرابلس وأقام

(١)أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر جـ ٣ ص ٣٠.

مكانها عدداً من الأبراج على طول الساحل حول الميناء ونقل مدينة طرابلس إلى سفح الجبل في الداخل بعيداً عن الشاطىء حول قلعة صنجيل (سان جيل) خوفاً من تهديد الأساطيل الصليبية[1] هذا وفي الوقت نفسه رفع قلاوون من شأن طرابلس فجعلها نيابة سلطانية يحكمها نائب للسلطان بمرسوم سلطاني. وكان من أهم اختصاصاته شد البحر وشد الشواني (أي الإشراف على البحر وإعداد السفن) بمواني نيابته وهي طرابلس واللاذقية وانطرطوس وجبيل (جوبلة).

ويبدو أن إمارة عكا قد أحست بيأس موقفها تجاه التوسع المصري وخصوصاً بعد أن فقدت الأمل في مجيء حملة صليبية تساعدها على البقاء، ولهذا رأت أن تلجأ إلى خطة دفاعية يائسة وجريئة في نفس الوقت وهي أن تبدأ هي بالهجوم وتنقض ما بينها وبين قلاوون من هدنة، معتمدة في ذلك على مناعة حصونها وكثرة ما لديها من مال وسلاح وقد بدأت فعلاً في تنفيذ خطتها بالاعتداء على تجار المسلمين وقوافلهم المارة من هناك. وقد رأى قلاوون من هذه الحركة مبرراً كافياً لإعلان الحرب على عكا وشرع في إعداد العدة للزحف عليها ولكنه مات قبل أن يحقق مشروعه في أواخر عام ١٢٩٠م (٦٨٩هـ) وهو في سن السبعين.

مما تقدم نرى أن سياسة قلاوون الخارجية كانت استمراراً لسياسة سلفه بيبرس نحو المغول والصليبيين وقد عرف قلاوون كيف يملأ هذا الفراغ الذي تركه بيبرس بكل جدارة واستحقاق.

سياسة قلاوون الداخلية:

بخصوص سياسة قلاوون الداخلية نرى أنه اهتم مثل سلفه بيبرس بتنظيم الجيش المملوكي فيستكثر من شراء صغار المماليك من أهالي البلاد الشمالية مثل أرمينيا والقوقاز، وشبه جزيرة القرم والقفجاق ويقال إن عددهم بلغ ما يقرب من الأربعة آلاف مملوك.

---

(١)الأمير صالح بن يحيى: تاريخ بيروت ص ٢٢.

وخصص قلاوون لهذه الفرقة المملوكية الجديدة أبراج القلعة ولذا سموا بالبرجية واعتنى قلاوون بتربيتهم وإعدادهم إعداداً عسكرياً إسلامياً كما اعتنى بملابسهم وهندامهم ويقال إنه أحدث تغييراً في شكل بعض ملابسهم بحيث صار مختلفاً عن شكل ملابس المماليك البحرية، كذلك أحدث تغييراً في طريقة حركاتهم العسكرية ولا سيما في طريقة اللعب بالرمح فصار المماليك يقومون بحركات متنوعة في هذا الفن تختلف عن ذي قبل.

ويروي المقريزي أن قلاوون كان يخرج دائماً في ميعاد حضور الطعام للمماليك ويأمر بعرض هذا الطعام عليه ليختبره بنفسه فإذا رأى فيه عيباً اشتد على الأستادار (وهو المشرف على القصور السلطانية كلها) وأنزل به العقاب الرادع.

وكان يقول: كل الملوك عملوا أشياء يذكرون بها ما بين مـال وعقار وأنا عمرت أسواراً وعملت حصوناً مانعة لي ولأولادي وللمسلمين وهم المماليك (خطط جـ ٢ ص ٢١٣ بولاق).

ولقد بقيت هذه الفئة المملوكية الجديدة وحدة متماسكة حتى بعد وفاة قلاوون، وكان لها أثر كبير في توجيه سياسة الدولة حتى نهاية الدولة المملوكية الأولى حينما استطاع أولئك البرجية أنفسهم انتزاع السلطنة من أسرة قلاوون وتأسيس دولة مملوكية جديدة في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي على يد الظاهر برقوق.

الأعمال الإنشائية أو العمرانية التي قام بها الملك المنصور قلاوون عديدة ولا تزال بقاياها موجودة إلى يومنا هذا بشارع النحاسين (المعز لدين الله) بالقاهرة ومن أهم تلك المنشآت قبة قلاوون المدفون بها ومدرسته ثم البيمارستان المنصوري الذي يعرف الآن بمستشفى قلاوون. والأبنية الثلاثة ملحقات في بناء واحد، والبيمارستان لفظ فارسي مركب من بيمار أي مريض وستان يعني مكان أي المكان الذي يحل به المرضى على اختلاف أنواعهم ثم تطورت هذه الكلمة واقتصرت على المكان المعد لإقامة المجانين

فقط ومنها الكلمة العامية المورستان (راجع كتاب تاريخ البيمارستانا في الإسلام لأحمد عيسى ص ٩٣).

ولم يكن مستشفى قلاوون هو أول مستشفى بني في مصر فقد شاهدت مصر أنواعاً من المارستانات أيام الطولونيين والأخشديين والفاطميين والأيوبيين، فمن المعروف أن أحمد بن طولون بنى مارستانا لمعالجة المرضى وألحق به صيدلية لصرف الأدوية وقد سمي فيما بعد بالمارستان العتيق تمييزاً له عن المارستانات الأخرى التي بنيت بعد ذلك.

ثم هناك المارستان المنسوب لكافور الأخشيدي، وفي أيام الخلافة الفاطمية نسمع عن خزانة الأشرية وكانت كالعيادة الخارجية في المستشفيات الحديثة وقد حولها صلاح الدين مارستانا للمرضى ويروي الرحالة ابن جبير الأندلسي أنه رأى بمصر مارستانين لصلاح الدين أحدهما بالقاهرة والثاني بالإسكندرية.

هذا وينبغي أن نشير كذلك إلى المارستان النوري بدمشق الذي بناه السلطان نور الدين محمود زنكي الذي نشأ صلاح الدين في بلاطه.

ويقال إن هذا المستشفى النوري نزل فيه قلاوون بقصد العلاج أثناء حروبه بالشام وأنه نذر بأن ينشىء مثله في القاهرة إذا أبل من مرضه وكانت النتيجة أنه بنى مارستانه الذي تم في ١٢٨٤م (٦٨٣هـ). والواقع أن مستشفى قلاوون بلغ القمة في أنظمته الدقيقة كالتي نراها في مستشفيات الوقت الحاضر فقد كان مقسماً إلى عدة أقسام خصص كل قسم منها لنوع من الأمراض مثل الحميات والرمد وأمراض النساء والدوسنتاريا والمسرورين (المجانين) وهكذا. وكانت به قاعة للمحاضرات يحاضر فيها الأساتذة في فنون الطب المعروفة في ذلك الوقت. كما ألحق به معمل كيمائي معد بكافة الأنواع للأجهزة الطبية المعروفة في ذلك الوقت. فهو لهذا يعتبر النواة الأولى لدراسة الطب في مصر، هذا ولم يكن لهذا المستشفى أي صبغة دينية أو طبقية خاصة فقد كانت أبوابه مفتوحة لجميع المذاهب والطبقات.

ولدينا وصف لهذا المارستان كتبه مؤرخ معاصر بل وموظف من موظفي ذلك المارستان، وهو المؤرخ المعروف النوري المتوفى سنة ١٣٣٢م ولهذا جاء وصفه على جانب كبير من الأهمية فضلاً عن أنه يلقي ضوءاً على بعض النواحي الإجتماعية في ذلك العصر. (هذا الوصف جاء في كتابه نهاية الأرب في فنون الأدب وقد نقله الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة في نهاية الجزء الأول من كتاب السلوك للمقريزي (جـ ١ ص ٩٩٧).

أما الناحية الاقتصادية فقد اهتم بها قلاوون اهتماماً كبيراً إذ عمل على توسيع نطاق الأفق التجاري للدولة المملوكية، وقد ساعده على ذلك موقع مصر الجغرافي بين الشرق والغرب مما جعلها تلعب دوراً هاماً في الحركة الدولية التجارية، وفي هذا المجال عقد قلاوون المحالفات مع الدول الأوروبية مثل الإمبراطورية البيزنطية وفرنسا ومملكتي قشتالة وأراجون باسبانيا ومملكة صقلية وكانت تابعة لأراجون والجمهوريات الإيطالية مثل جنوا وبيزا والبندقية. وكانت مصر تفرض على البضائع المارة بثغورها ضريبة تقدر عادة بخمس قيمتها وتعرف بضريبة الخمس.

كذلك استغل قلاوون فرصة أمن الملاحة في البحر الأحمر بعد أن زال عنها الخطر الصليبي وعمل جاهداً على اجتذاب التجار من البلاد الآسيوية إلى مصر، ويشهد على ذلك المنشور الرسمي الذي أذاعه السلطان قلاوون على التجار الوافدين على بلاده من الصين والهند والسند واليمن والعراق، يؤكد لهم فيه الحماية والرعاية على أنفسهم وأموالهم عندما يقيمون في بلاده وهو مرسوم جميل يذكرنا بالدعاية السياحية في الوقت الحاضر، إذ يقول فيه:

«ومن يؤثر الورود إلى بلادنا الفسيحة أرجاؤها، الظليلة أفياؤها، فليعزم عزم من قدر الله له في ذلك الخير والخيرة. ويحضر إلى بلاد لا يحتاج ساكنها إلى مسيرة ولا ذخيرة، لأنها في الدنيا جنة عدن لمن قطن، ومسلاة امن تغرب عن الوطن، ونزهة لا يملها بصر. والمقيم بها في ربيع دائم، وخير ملازم، ويكفيها أن من بعض أوصافها أنها شامة الله في أرضه. . . فمن وقف

على مرسومنا هذا من التجار المقيمين باليمن والهند والصين والسند وغيرهم، فليأخذ الأهبة في الارتحال إليها، والقدوم عليها، ليجد الفعال من المقال أكبر، ويرى إحساناً يقابل في الوفاء بهذه العهود بالأكثر، ويحل منها في بلدة طيبة، وفي سلامة في النفس والمال، وسعادة تمول الآمال، ولهم منا كل ما يؤثرونه. . . (القلقشندي: صبح الأعشى ج ١٣ ص ٣٤٠ ـ ٣٤٢).

السلطان الأشرف صلاح الدين خليل (١٢٩٠ـ١٢٩٢م) (٦٨٩ـ٦٩٢هـ):

حاول قلاوون كما حاول بيبرس من قبل إقامة أحد أبنائه في ولاية العهد أثناء حياته فاختار ابنه الأكبر علاء الدين ولقبه بالملك الصالح ١٢٨٠م وأنابه عنه في حكم مصر أثناء غيابه في حروب المغول والصليبيين، غير أن ولي العهد هذا توفي في حياة أبيه سنة ١٢٨٨ ويقال إن أخاه الأشرف خليل وهو الابن الثاني للسلطان قلاوون هو الذي قتله بأن دس له السم لكي تؤول إليه ولاية العهد من بعده. وكيفما كان الأمر في صحة الرواية فالمهم هنا أن السلطان قلاوون كان يشك في كفاية ابنه خليل هذا وأهليته للحكم ويقال أنه ظل ممتنعاً عن التوقيع على التقليد الخاص بمبايعة خليل بولاية العهد إلى أن مات ويؤثر عنه أنه قال في هذا الصدد: أنا ما أولي خليلاً على المسلمين[1].

على أن خليل رغم ذلك تسلطن بعد وفاة أبيه في أواخر سنة ١٢٩٠ وكان أول عمل قام به هو الانتقام من رجال أبيه ومصادرة أموالهم وقد أبدى من صنوف القسوة ما حقق مخاوف أبيه غير أنه إلى جانب عيوبه هذه كان رجلاً شجاعاً ومحارباً ممتازاً وقد سار منذ أول حكمه على سياسة أسلافه نحو الصليبيين، تلك السياسة التقليدية التي كانت تهدف دائماً إلى إخراج الصليبيين من الشام. وكانت إمارة عكا في ذلك الوقت هي البقية الباقية من دولة الصليبيين بالشام.

حاصر السلطان خليل مدينة عكا في ربيع عام ١٢٩١ وهنا تشيد

(١)المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٧٥٠.

المراجع المعاصرة بقوة استعداده وكفاية آلات الحصار التي أقامها حول أسوارها والتي بلغت على ما يقال نحو ٩٢ منجنيقاً.

والواقع أن مدينة عكا كانت تمتاز بسمعتها الدفاعية المشرفة منذ حروب صلاح الدين وقد اهتم الصليبيون منذ أيامهم الأولى بتحصين أسوارها حتى صار يضرب بها المثل في مناعة حصونها، والسبب في هذا الإهتمام يرجع إلى أن عكا كانت تعد منفذاً أساسياً من المنافذ الساحلية للدولة الصليبية لبيت المقدس.

ولما سقطت المدن الصليبية المختلفة في أيدي المصريين أيام بيبرس وقلاوون صارت عكا ملجأ لجميع العناصر الصليبية التي هاجرت إليها من تلك المدن سواء أكانوا من الاسبتارية أو الداوية أو من امارة طرابلس وغيرها.

وكان من المنتظر أن يكون ذلك التركيز للعناصر الصليبية سبباً في أن تزداد مدينة عكا قوة فوق قوة حصونها ولكن الحقيقة جاءت على عكس ذلك لأن هذه العناصر المختلفة عملت على أن تعيش كجاليات مستقلة بشؤونها ولها حكوماتها الخاصة بها، وعلى هذا الأساس صارت عكا في أواخر أيامها أي في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي عبارة عن مجموعة من الدويلات الصغيرة المتناقضة المصالح بعضها يعمل باسم ملك فرنسا والبعض الآخر باسم ملك انجلترا والبعض الثالث باسم ملك بيت المقدس المقيم في قبرص هذا إلى جانب التنافس التقليدي القديم بين الاسبتارية والداوية الذي استعرت نيرانه من جديد في ميادين عكا. ولهذا كان من العسير جداً أن توجد بعكا قيادة موحدة لتعمل على توحيد وتوجيه هذه القوى المتعددة نحو هدف واحد.

لهذا لم تستفد عكا من مناعة حصونها أو من النجدات التي وصلت إليها من قبرص (وكانت قبرص في ذلك الوقت يحكمها ملوك أسرة لوزجنان الذين سموا أنفسهم ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية).

وفي يوم الجمعة ١٨ مايو سنة ١٢٩١م (٦٩٠هـ) دخل المسلمون مدينة عكا عنوة بعد حصار دام ثلاثة وأربعين يوماً، فتحولت المقاومة إلى القلاع والأبراج وقد كان من المنتظر أن تستمر هذه القلاع في المقاومة مدة طويلة لولا أن بعض أهالي المدينة هرعوا إليها للاحتماء بها فتسبب عن ذلك حدوث هرج في تلك المناطق الدفاعية وصار من الصعب تنظيم مقاومة طويلة الأمد. هذا وفي الوقت نفسه شرع معظم الأهالي إلى ميناء المدينة وتكتلوا على ظهر السفن الراسية هناك بغية الهروب إلى قبرص أو إلى أي مكان آخر وقد تسبب عن ذلك الزحام الشديد غرق بعض المراكب وحدوث اضطراب في جميع أنحاء الميناء التي كان يجب أن تظل مفتوحة لامداد المدينة بوسائل المقاومة من معدات وأغذية وخلافه.

ويلاحظ أن من بين هؤلاء الهاربين كان الملك هنري الثاني ملك قبرص وبيت المقدس الذي أسرع إلى مملكته بجزيرة قبرص ولحق به عدد كبير من الزعماء وفرسان الاسبتارية.

على أنه رغم ذلك بقي بقلاع المدينة عدد كبير من المدافعين ولا سيما فرسان الداوية الذين ظلوا يقاومون الهجوم المصري حتى هلكوا عن آخرهم بعد أن أحرقت المدينة ودمرت تماماً سنة ١٢٩١م/ ٦٩٠هـ.

وهكذا سقطت آخر المعاقل الصليبية في الشرق وقد تلى ذلك سقوط المرافىء الصليبية القليلة الباقية مثل صور وصيدا وحيفا وبيروت وقد سلمت جميعها دون مقاومة ما عدا بيروت التي حاولت المقاومة فكان نصيبها التدمير وذبح سكانها[١] .

وهكذا ينتهي الفصل الختامي من تاريخ الحروب الصليبية في الشام وقد وصف المؤرخ الانجليزي إدوارد جبون Gibbon هذه الحالة بقوله: «وخيم السكون على امتداد الساحل الذي ظل زمناً طويلاً ميداناً نسمع فيه صليل

(١)أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ص ٨ ص ٨ وما بعدها.

سيوف النضال»[1] .

وهنا ينبغي أن نشير في هذا الصدد إلى أن مصر طوال هذه الحروب الصليبية قد قامت بدور إيجابي فعال كانت فيه محور المقاومة الإسلامية حتى تم على يديها أخيراً سقوط عكا وإخراج الصليبيين من الشام.

ولا شك أن هذا الانتصار الكبير قد أكسب السلطان خليل ودولة المماليك مجداً وعطفاً من جميع أنحاء العالم الإسلامي.

وقد انتهز السلطان خليل هذا الحماس المتدفق الذي أوجده سقوط عكا بين صفوف المسلمين وحاول أن يستغله في محاربة الخطر الثاني وهو الخطر المغولي، فأمر الخليفة (واسمه وقتئذ الحاكم بأمر الله) أن يعلن الجهاد العام على المنابر، ثم خرج السلطان بجيوشه نحو الحدود الفراتية فاستولى على قلعة الروم من أيدي التتار وغير اسمها بقلعة المسلمين ثم أعلن على الملأ عزمه على طرد المغول من العراق وإرجاعهم إلى مواطنهم الأصلية.

ويبدو أن سلطان مغول فارس أراد السخرية من هذه الدعايات التي يقوم بها الأشرف خليل ضد المغول فأرسل إليه خطاباً يطلب منه تسليم مدينة حلب للإقامة بها كما كان يفعل إيلخانات فارس من قبل. فرد عليه السلطان خليل بخطاب مثله مطالباً هو الآخر بتسليم بغداد للإقامة بها أيضاً ونقل الخلافة العباسية إليها.

على أن هذه المظاهرات الحربية التي قامت بين دولتي المغول والمماليك لم تنته إلى شيء إيجابي وذلك بسبب وفاة الأشرف خليل قتيلاً على يد نائب سلطنة الأمير بدر الدين بيدرا وذلك أثناء خروجه للصيد عام ١٢٩٣م وهذا يذكرنا بمأساة قطز مع بيبرس حينما قتله هذا الأخير سنة ١٢٦٠م ولكن مع فارق واحد هو أن بيبرس اعتلى عرش مصر بعد ذلك أما بيدرا فإنه وقع فريسة في أيدي مماليك الأشرف الذين قتلوه شر قتلة[2] .

(١) Gibbon: Decline and Fall of the Roman Empire.

(٢) المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٧٧٨.

السلطان الناصر محمد بن قلاوون
(٦٩٣ ـ ٧٤١ هـ ـ ١٢٩٣ ـ ١٣٤٠ م):

ولي السلطنة بعد وفاة أخيه الأشرف خليل، وكان لا يزال طفلاً في التاسعة من عمره، وقد لقب بالسلطان الناصر محمد.

ولا يفهم من هذا التعيين أن أمراء المماليك أقاموا ابن أستاذهم قلاوون احتراماً لمبدأ الوراثة، فالمماليك طوال تاريخهم لم يعترفوا بهذا المبدأ وإن كانوا في بعض الأحيان قد تظاهروا باحترامه تغطية لمطامعهم، وكل ما في الأمر أن أمراء المماليك بعد مقتل الأشرف خليل، لم يجدوا من بينهم أميراً قوياً يفرض شخصيته عليهم ويرتضون به سلطاناً. ولهذا أقاموا هذا الطفل مؤقتاً إلى أن استقر أمرهم على واحد منهم. وكانت نتيجة هذا العمل أن عزل السلطان الناصر محمد مرتين بواسطة هؤلاء الأمراء الطامعين.

سلطنة الناصر الأولى ١٢٩٣ ـ ١٢٩٤م (٦٩٣ ـ ٦٩٤هـ):

حكم فيها لمدة عام واحد ثم عزل ونفي إلى حصن الكرك جنوبي الأردن سنة ١٢٩٤م. وكان المغتصب هو نائب سلطنته واحد مماليك أبيه وهو الأمير حسام الدين لاجين المنصوري. وقد ظل السلطان لاجين يحكم مصرو والشام مدة أربع سنوات قام خلالها بعدة أعمال إصلاحية أهمها تجديد عمارة مسجد ابن طولون ومئذنته ورفع الكثير من المكوس (الضرائب) عن كاهل الشعب مما جعله محبوباً من الناس، غير أن لاجين مع ذلك لم يستطع إرضاء جميع أمراء المماليك خصوصاً بعد إعادة مسح وتوزيع الإقطاعات والأراضي الزراعية لتقدير الخراج المستحق عليها وهو مما يعرف بالروك الحسامي، كما انتشرت الوساطات والمحسوبيات على أيامه مما أثار حقد الأمراء عليه فقتلوه واستدعوا الناصر محمد ثانية سنة ١٢٩٨م.

سلطنة الناصر الثانية ١٢٩٨ ـ ١٣٠٨م (٦٩٨ ـ ٧٠٨هـ):

استمرت سلطنة الناصر الثانية مدة عشر سنوات تقريباً، ظل فيها نفوذ الأمراء قوياً، ولم يستطع السلطان الشاب أن يسيطر على الموقف لصغر سنه، فوقف حائراً أمام المنافسة الشديدة التي قامت بين اثنين من كبار الأمراء وهما الأمير بيبرس الجاشنكير[١] والأمير سلار. وقد لقي السلطان منها الكثير من أنواع الاساءة والتضييق المالي، فيروى على سبيل المثال أنه طلب من الأمير بيبرس الجاشنكير خروفاً مشويا وحلوى باللوز فرفض أن يجيبه إلى طلبه، واضطر الناصر آخر الأمر أن يعتزل العرش وأن يغادر البلاد إلى حصن الكرك بعيداً عن السياسة ومؤامرات المماليك. وتروي المصادر أن عدداً كبيراً من الأهالي خرجوا لوداعه وهم يبكون على فراقه.

وانتهز الجاشنكير فرصة رحيل السلطان واغتصب العرش لنفسه ملقباً نفسه بالسلطان المظفر ركن الدين بيبرس، أما الأمير سلار فإنه قبل بأن يظل نائباً للسلطنة واستمر الأمر على هذا الوضع سنة واحدة ثار بعدها الأهالي والأمراء، وصاروا يهتفون في الطريفان: «يا ناصر يا منصور، الله بيخون من يخون ابن قلاوون»[٢]. وانتهى الأمر بعودة الناصر محمد إلى عرشه في احتفال شعبي كبير سنة ١٣٠٩م. ولم يتردد الناصر في هذه المرة من الانتقام من كل من بيبرس وسلار، فأمات الأول جوعاً حتى إنه أكل أحد أصابعه، كما أعدم الثاني شنقاً.

سلطنة الناصر الثالثة ١٣٠٩ ـ ١٣٤٠م (٧٠٩ ـ ٧٤١هـ):

هذه الفترة الثالثة من حكم الناصر محمد تعتبر بحق سلطنته الحقيقية وقد امتدت حتى وفاته. وإذا نظرنا إلى مدة هذه الفترات الثلاث التي حكم

---

(١) الجا شنكير هو الأمير الذي يتذوق الطعام قبل السلطان خوفاً من أن يدس له فيه السم.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٧٣.

فيها الناصر محمد وجدنا أن عهده يعتبر أطول عهود سلاطين المماليك (حوالي ٤٣ سنة).

ولا شك أن السلطان الناصر محمد قد استفاد من الحوادث السابقة بتجارب متنوعة عرفته بأخلاق المماليك ومؤامراتهم وكيفية معاملتهم. كما أن سنه في ذلك على الوقت قد بلغ مرحلة النضج إذ بلغ الخامسة والعشرين وقد ساعده ذلك تثبيت قدمه في الحكم وتركيز الإدارة في يده.

ولقد سار السلطان الناصر محمد على سياسة أسلافه نحو المشاكل الرئيسية التي أحاطت بمملكته وهي مشاكل الصليبيين والمغول. ومن المعروف أن هذه المشاكل قد تطورت تطوراً كبيراً في صالح المسلمين في ذلك الوقت نظراً لجلاء الصليبيين عن الشام نهائياً وضعف الحماس الصليبي في أوروبا. كما أن دول المغول فارس قد أخذت في الضعف هي الأخرى نتيجة للحروب التي خاضتها مع المماليك من جهة ومع مغول القفجاق من جهة أخرى.

سياسة الناصر محمد مع المغول:

حينما دب النزاع بين أمراء المماليك في آخر أيام السلطان لاجين (الذي اغتصب عرش الناصر محمد) لجأ بعضهم إلى خان المغول واسمه غازان أو قازان محمد بن أرغون. وكان قد اعتنق الإسلام على المذهب الشيعي، فشرحوا له سوء الأحوال في مصر والشام وحرضوه على غزو تلك البلاد. وراق لغازان أن يقوم بالدور الذي قام به أجداده من قبل وأن يحقق المشروع الذي فشلوا في تحقيقه وهو القضاء على دولة المماليك والاستيلاء على مصر والشام.

ثم عبر غازان نهر الفرات متجهاً إلى الشام، فخرج السلطان الناصر محمد لملاقاته وكان قد عاد إلى ملكه في ولايته الثانية بعد مقتل لاجين. وجرت المعركة بين الفريقين عند وادي الخازندار بين حماة وحمص وذلك

في سبتمبر ١٢٩٩م (٦٩٨هـ) وفي هذه الموقعة هزم الجيش المصري وهرب كبار قواده وبقي السلطان الشاب يبكي في مكانه ولم ينقذه من الموت سوى توقف المغول من مطاردة المماليك خوفاً من أن يكونوا قد أعـدوا لهم كميناً جرياً على عاداتهم في الحروب.

وانسحب الناصر محمد إلى بعلبك ومنها إلى مصر، أما غازان فقد بسط نفوذه على شمال الشام ثم واصل زحفه إلى دمشق واستولى عليها[١].

غير أن أمراء المماليك لم يستسلموا لهذه الهزيمة بل عادوا إلى التكتل ثانية بالقاهرة ثم خرجت جموعهم إلى الشام لأخذ الثأر من المغول. ولما علم غازان باقتراب جيوشهم من دمشق انسحب منها بجنوده تاركاً المدينة في حماية من انضم إليه من أمراء المماليك. وقد ظن أنه بهذه الوسيلة يستطيع أن يشطر المماليك إلى حزبين متناوئين يضرب كل منهما الآخر.

غير أن الذي حدث كان على عكس ما توقعه غازان، إذ أن هؤلاء المماليك الذين سبق أن أعلنوا له الولاء من قبل عادوا ثانية وانضموا إلى جيوش إخوانهم المماليك القادمين إلى الشام. وهذه الظاهرة ـ ظاهرة التكتل ـ نلاحظها بكثرة في تاريخ المماليك إبان الأزمات التي هددت كيانهم. وهكذا زال سلطان المغول عن الشام وعادت الوحدة من جديد بين مصر والشام تحت سلطنة الناصر محمد.

ولقد فوجىء غازان بهذه النتيجة التي لم يكن يتوقعها، وفكر في إرسال حملة جديدة نحو الأراضي الشامية، غير أن قيام ثورات داخلية في بلاده أجبرته على تأجيل هذا المشروع بعضاً من الوقت. وقد حاول غازان أن يثبط عزائم المصريين بعقد صلح معهم، غير أن أمراء المماليك فطنوا لخديعته فرفضوا هذا الصلح وعملوا على الاستفادة من هذا التأجيل في تقوية صفوفهم وتوحيد كلمتهم.

---

(١)مفضل بن أبي الفضائل: كتاب النهج السدس ص ٦٣٥ ـ ٦٤ نشر بلوشيه.

وفي عام ١٣٠٣م (٧٠٢هـ) أرسل غازان جيوشه نحو البلاد الشامية بقيادة قائده قطلوشاه، فخرج السلطان الناصر محمد بجيوشه لملاقاته. وتقابل الفريقان عند مرج الصفر جنوبي دمشق في شهر رمضان، وكان النصر النهائي للمصريين، وارتدت فلول المغول إلى الفرات بعد أن فقدت ما يقرب من عشرة آلاف جندي بين قتيل وأسير[١].

وغضب غازان لهذه الهزيمة غضباً شديداً وأنزل بقواده عقوبات صارمة، ولم يلبث هو الآخر أن مات كمداً في السنة التالية ١٣٠٤م ولما يبلغ من العمر الثانية والثلاثين، وهذه هي المرة الرابعة على الأقل التي استطاع فيها المصريون الانتصار على أشد وأخطر عدو عرفوه منذ الفتح الإسلامي.

على أن المهم هنا هو أن هذا الانتصار الأخير على المغول يعتبر الحلقة الأخيرة في سلسلة الوقائع الكبرى التي دارت بين الدولتين الايلخانية المغولية والمملوكية، ذلك لأن العلاقات بين هاتين الدولتين قد أخذت تتحسن بعد ذلك، فعقد صلح بين الناصر محمد وايلخان مغول فارس الجديد أبي سعيد كما أخذ الإسلام ينتشر بين أفراد الدولة ملوكاً وشعباً. ويمكننا القول بأن الخطر المغولي بعد موقعة مرج الصفر قد زال نهائياً عن مصر والشام حتى أوائل القرن الخامس عشر الميلادي عندما عاود الظهور من جديد على يد القائد المغولي تيمورلنك.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الصلح الذي أبرم بين دولتي مغول فارس والمماليك لم يؤثر مطلقاً على الصداقة التقليدية القديمة التي تربط دولة المماليك بدولة مغول القفجاق أو القبيلة الذهبية في شمال البحر الأسود، وكان زعيمها في ذلك الوقت يدعى أوزبك خان.

ومن المعروف أن هذه الدولة المغولية الشمالية كانت على عداء مستحكم مع مغول فارس، وكثيراً ما قامت بينهما حروب طاحنة وقفت فيها

(١) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر جـ ٤ ص ٤٩ ويلاحظ أن أبا الفداء حضر هذه الموقعة بنفسه.

مصر بجانب خلفائها مغول القبيلة الذهبية، ولكن لما انتهى العداء بين مصر ومغول فارس، لم يستطع الناصر محمد مناصرة صديقه أوزبك خان زعيم القبيلة الذهبية ضد إيلخان فارس أبـي سعيد، وأوضح له موقفه الجديد من هذه الدولة، ولكنه عمل في نفس الوقت على إزالة ما بين دولتي المغول من عداء وقد كلل مسعاه بالنجاح إذ عقد صلح بين أبـي سعيد وأوزبك خان وانتهت بذلك هذه المشكلة[1] .

سياسة الناصر محمد مع الصليبيين:

الواقع أن الأعمال الحربية التي قام بها الناصر محمد ضد الصليبيين، وهي في الحقيقة أعمال بسيطة تعتبر من ذيول أو مخلفات المشكلة الصليبية التي انتهت منذ أيام أخيه الأشرف خليل.

فمن بقايا هذه المشاكل الصليبية مسألة عصيان أرمينيا وتحريضها لمغول فارس وملوك أوروبا على غزو مصر والشام. وكانت هذه الدولة المسيحية تدفع لمصر جزية سنوية منذ عهد السلطان الظاهر بيبرس في مقابل مسالمة دولة المماليك. وقد اضطر الناصر محمد أن يرسل إلى أرمينيا عدة حملات تأديبية انتهت بخضوع هذه الدولة واعترافها بسيادة سلطان مصر والشام.

ومن بقايا المشاكل الصليبية أيضاً مسألة فرسان الداوية أو المعبد وكانت بعض فلولهم بعد استيلاء الأشرف خليل على عكا قد انسحبت واستقرت في جزيرة أرواد الواقعة على بعد ثلاثة أميال في البحر أمام بلدة أنطرطوس شمالي طرابلس، واتخذتها قاعدة يشنون منها الغارات على الموانى الشامية ولا سيما مدينة طرابلس القريبة منها، ومن ثم قرر الناصر محمد احتلال تلك الجزيرة، فأعد الأسطول وشحنه بالمقاتلة والسلاح

---

(١)ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥، ص ٤٣١؛ المقريزي: السلوك جـ ٢ ص ٢٠٤ ـ ٢١١.

والنفط، وأسند قيادته إلى أمير البحر سيف الدين كهرداش الزراق المنصوري. ثم أبحر الأسطول سنة ١٣٠٢م (٧٠٢هـ) متجهاً إلى طرابلس حيث انضم إليه الأمير استدمر كرجي ببعض القطع البحرية، ثم أطبقت الحملة على جزيرة أرواد واستولت عليها عنوة بعد أن حطمت أسوارها وقتلت ألفاً من أهلها وأسرت نحواً من خمسمائة، وهكذا خلت السواحل من الصليبيين ولم يبق منهم أحد بالشام إلا من هو أسير أو نصراني ذمي[١] .

علاقات الناصر محمد الدبلوماسية:

من المعروف أن مشكلة الصليبيين كانت قد انتهت منذ عهد السلطان الأشرف خليل، غير أن فكرة الحروب الصليبية ظلت باقية في أذهان الكتاب والدعاة وبعض الملوك والبابوات في أوروبا وكانت أخبار تلك المشروعات الصليبية تصل إلى القاهرة مما جعل سلاطين المماليك يتخذون الاحتياطات الحربية والدبلوماسية اللازمة لدرء هذا الخطر.

فمن الناحية الدبلوماسية نجد أن السلطان الناصر محمد قد حرص على توطيد علاقاته مع ملوك الدول الأوروبية والإسلامية شرقاً وغرباً، فامتلأ بلاطه بسفراء تلك الدول بشكل لم يحدث من قبل ولا من بعد.

ومن هؤلاء نذكر خايمي الثاني JaimeII (جام في المصادر العربية) ملك مملكة أراجون في شمال شرق اسبانيا وكان هذا الملك يحرص على أن ينال شرف رعاية مصالح المسيحيين في الشرق الإسلامي وكانت هذه المصالح إما دينية مثل تأمين الحجاج واطلاق سراح الأسرى وحماية المسيحيين المقيمين بمصر والشام، وإما مصالح تجارية تتعلق بتأمين التجار المسيحيين على تجارتهم وأموالهم وأرواحهم أثناء إقامتهم بالثغور المصرية ولا سيما مدينة الإسكندرية، فسفارات ملك أراجون كانت تدور حول هذه المصالح، وفي مقابل ذلك كان هذا الملك الاسباني يتعهد

---

(١)أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٥٦ .

بحماية المسلمين المقيمين في مملكته وبعدم التدخل في شؤونهم الدينية. وقد أطلق على المسلمين الخاضعين للحكم الإسباني اسم المدجنين[1] Mude jares.

أما ملك فرنسا فيليب السادس، فقد كان من دعاة إحياء فكرة الحروب الصليبية بل أنه أبدى استعداده لقيادة حملة صليبية على مصر، ولكنه تبين له آخر الأمر استحالة هذا المشروع خصوصاً بعد أن شغل بحروب المائة عام التي قامت بين فرنسا وانجلترا.

ورأى ملك فرنسا أن يلجأ إلى سياسة المفاوضات في حل المسألة الصليبية، فأرسل إلى السلطان الناصر محمد سنة ١٣٣٠م سفارة ضخمة من مائة وعشرين سفيراً، وقد حاول هؤلاء السفراء إقناع السلطان بتسليم بيت المقدس للمسيحيين ولكن السلطان قابل هذا الطلب بالاستياء والإهمال[2].
أما سفارات امبراطور الدولة البيزنطية فكانت تدور حول عقد تحالف مع دولة المماليك ضد الدولة العثمانية الناشئة في آسيا الصغرى، وكانت هذه الدولة العثمانية قد أخذت توسع حدودها غرباً في الأراضي البلقانية التابعة للدولة البيزنطية كما أخذت في الوقت نفسه تهدد الحدود الشمالية للدولة المملوكية بالضغط على الدويلات التركمانية المنتشرة في جنوب آسيا الصغرى مثل القرمانية وذي القادرية التي كانت في حلف مع المماليك. ولهذا وجدت هذه السفارات البيزنطية تجاوباً من السلطان الناصر لوجود مصالح مشتركة بين الجانبين.

أما سفارات ملوك الدول الإسلامية فنذكر منها سفارة سلطان دولة الهند الإسلامية في دلهي في عهد محمد بن طلغق شاه سنة ١٣٢٥م/ ٧٢٦هـ وكان غرضها عقد حلف مع الناصر محمد ضد مغول فارس على أن تقوم مصر والهند بالهجوم عليهم من الشرق والغرب في وقت واحد. ولقد فشل هذا

---

(١) Atiya (A, S.): Egypt and Aragon p. 35.

(٢) محمد جمال الدين سرور: دولة بني قلاوون في مصر ص ٢٧٧.

المشروع بسبب تحسن العلاقات بين مصر ودولة ايلخانات فارس كما سبق أن بينا.

كذلك اهتم السلطان الناصر محمد بتوطيد علاقاته بدولة بني مرين أو بني عبد الحق في المغرب الأقصى. وكان سلطانها في ذلك الوقت هو السلطان أبو الحسن المريني فتشير المصادر إلى السفارات والمراسلات المتبادلة بين الدولتين ونخص بالذكر تلك السفارة التي أرسلها السلطان أبو الحسن المريني سنة ١٣٣٧م (٧٣٨هـ) وكان يصحب هذه السفارة ركب الحج المغربي وعلى رأسه السيدة الحرة إحدى زوجات أبيه، ويصفها المقريزي بابنة السلطان، وقد حملت الهدايا المرسلة من سلطان المغرب إلى سلطان مصر على ثلاثين قطاراً من بغال النقل سوى الجمال. وكان يوماً مشهوداً وصفه المقريزي في كتابه الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك (نشر المرحوم جمال الدين الشيال).

أعمال الناصر محمد الداخلية:

سار الناصر محمد على سياسة والده قلاوون العمرانية فبنى المدرسة الناصرية سنة ١٣٠٤م، التي لا تزال بقاياها موجودة إلى اليوم بالنحاسين بالقاهرة ومن مبانيه أيضاً القصر الأبلق بقلعة الجبل (المقطم) سنة ١٣١٣م ويسمى بالأبلق لأن أحجاره كانت بيضاء وسوداء (من هذه التسمية جاء اسم الطائر الأبلق والبلقاء في جنوب الشام) ثم هناك مسجده الذي بناه بالقلعة أيضاً سنة ١٣١٨م وزينه بمواد نقلها من كاتدرائية عكا. هذا إلى جانب الحمامات والمساجد والزوايا والروابط والقناطر والترع والقنوات بجميع أنحاء البلاد وأهمها تعمير المجرى الذي ينقل الماء عليه من النيل إلى القلعة على السور (مجرى العيون).

ولقد قام الناصر محمد بمسح الأراضي المصرية وتقسيمها تقسيماً جديداً عرف في التاريخ باسم الروك الناصري. والروك مصدر الفعل الثلاثي

راك ومعناه قاس أو مسح الأرض الزراعية لتقدير الضرائب أو الخراج المستحق عليها وهذه العملية عرفت أيضاً باسم فك الزمام.

والمعروف أن أرض مصر مسحت في العصور الوسطى الإسلامية ست مرات قبل عصر الناصر[1] محمد وهذا يدل على أن الناصر محمد لم يعمل عملاً جديداً بهذا الروك الجديد ولكن يبدو أنه كان يهدف من ورائه إضعاف قوة المماليك عن طريق الإقلال من إقطاعاتهم عند توزيعها من جديد. كذلك أعاد الناصر حفر خليج الإسكندرية سنة ٧١٠هـ فبادر الناس بالزراعة على جانبيه كما اهتم بعمارة طريق الحج من القاهرة إلى مكة والمدينة المنورة.

أما عن شخصية الناصر فيمكن أن نأخذ فكرة عنها من اللمحات القصيرة التي وردت في المراجع المختلفة نذكر منها أنه كان قصير القامة، أبيض اللون وفي عينيه حول وبرجله عرج فلا يمشي إلا متكئاً على عصا، أو خادم وذلك بسبب حادث وقع له في أيامه الأولى وهو منفي بحصن الكرك (دخلت شوكة في رجله) وكان ولوعاً بالصيد ومغرماً باقتناء الخيول الأصيلة والأحجار الكريمة وإن كان لم يلبس من هذه الأحجار شيئاً، إذ يؤثر عنه البساطة في مظهره وملبسه، كذلك اهتم الناصر بالعلم والعلماء، وكانت تربطه بالمؤرخ الملك المؤيد أبـي الفداء صاحب كتاب المختصر في أخبار البشر صداقة متينة. وأبو الفداء كما هو واضح من لقبه «الملك المؤيد» ينتمي إلى الملك شاهنشاه الأيوبـي أخو صلاح الدين. وقد عمل الناصر محمد على تكريمه فأعاد إليه ملك أجداده وهي ولاية حماه بالشام، وأمر الولاة بأن يعاملونه كذلك، وقد صحبه معه إلى الحجاز عند تأدية فريضة الحج، وكان لا يناديه إلا بأخي.

هذا، وكان السلطان الناصر محمد رجلاً شجاعاً حازماً إلا أنه كان كثير التخيل والظن والشك، ولهذا قتل عدداً من الأمراء لأنه اشتبه في إخلاصهم،

---

(١)علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية ص ٣٣٢.

بل إنه كان يغار على ملكه حتى من أبنائه، فلم يعين ولياً لعهده، وفي أواخر أيامه نفى ابنه الأكبر أحمد إلى حصن الكرك لسوء أخلاقه، ولم يكن ابنه الثاني آنوك أحسن حالاً من أخيه وتوفي في أواخر أيام والده، ولهذا اضطر الناصر قبل وفاته بيومين إلى تولية ابنه الثالث سيف الدين أبي بكر في السلطنة، وتوفي السلطان الناصر محمد عام ١٣٤٠م (٧٤١هـ) عن ثمان وخمسين سنة.

دولة المماليك الأولى بعد وفاة الناصر محمد حتى نهايتها: (١٣٤٠ ـ ١٣٨٢م) (٧٤١ ـ ٧٨٤هـ):

تركت وفاة الناصر محمد فراغاً كبيراً لم يستطع أحد من أولاده وأحفاده أن يملأه من بعده.

غير أنه يلاحظ أن البيت القلاووني كان قد تأصل تماماً في قلوب الناس بدليل أن أبناء الناصر وأحفاده هم الذين تداولوا العرش بعده حتى نهاية دولة المماليك الأولى (دولة المماليك البحرية) سنة ١٣٨٢م. أما أمراء المماليك فقد كان صراعهم في ذلك الوقت يدور حول الاستئثار بالنفوذ والأموال دون الالتفات إلى السلطنة وعرشها.

وفي هذه الفترة التي تلت وفاة الناصر محمد حتى نهاية الدولة المملوكية الأولى، وهي فترة تقدر بحوالي اثنتين وأربعين سنة (١٣٤٠ ـ ١٣٨٢م) تولى عرش مصر والشام اثنا عشر سلطاناً ثمانية من أبناء الناصر، واثنان من أحفاده، واثنان من أبناء هؤلاء الأحفاد.

وجميع هؤلاء السلاطين لم يحكموا إلا بالاسم فقط، أما السلطنة الحقيقية فكانت بيد كبار الأمراء وكان هؤلاء السلاطين أطفالاً صغاراً لم يدم حكمهم سوى بضع سنوات أو شهور قليلة.

ولم يشذ عن هذه القاعدة سوى اثنين من هؤلاء السلاطين:

الأول هو السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد، وقد تسلطن مرتين:

الأولى دامت أربع سنوات (١٣٤٧ ـ ١٣٥١م) والثانية سبع سنوات (١٣٥٤ ـ ١٣٦١م). وكان هذا السلطان شغوفاً بالعمارة مثل والده، وينسب إليه المسجد الضخم الجميل الذي يحمل اسمه «جامع السلطان حسن» والذي لا يزال يرابض كالقلعة المنيفة في شارع محمد علي (بجوار مسجد الرفاعي). وقد قتل السلطان حسن على يد نائب سلطنته يلبغا الخاصكي.

أما السلطان الثاني فهو السلطان الأشرف شعبان وهو من أحفاد الناصر محمد، وقد استمرت سلطنته ثلاث عشرة سنة (١٣٦٣ ـ ١٣٧٦م). وفي عهده حدثت غارة، القبارصة المشؤومة على مدينة الإسكندرية سنة ١٣٦٥م.

وعلى الرغم من ضعف وتفاهم معظم شخصيات سلاطين هذه الفترة التي تلت وفاة الناصر محمد، إلا أن الدولة المملوكية استمرت قوية مهابة. وهذا راجع إلى حسن الإدارة المصرية والشامية التي بلغت ذروتها من حيث النظام والدقة بحيث صارت من أحسن الإدارات الحكومية في عصرها سواء في الشرق أو الغرب. ولهذا نجد أن ضعف السلاطين بعد الناصر محمد لم يحل دون استمرار مظاهر الحياة المملوكية كما كانت من قبل مثل بناء المساجد الجميلة والقصور الفخمة، واستقبال الوفود والسفراء في بلاط السلطان الذي استمر على أبهته وفخامته السابقة.

وتتميز هذه الفترة التي تلت وفاة الناصر محمد بحدثين هامين كان لهما أثر كبير في نهاية هذه الدولة المملوكية الأولى:

الحدث الأول داخلي:

وهو انتشار وباء الطاعون أو الموت الأسود في البلاد المصرية والشامية وغيرها من البلاد الافريقية والآسيوية والأوروبية، وذلك في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي أو الثامن الهجري. ولا شك أن هذا الوباء الذي هلكت فيه ملايين من البشر إلى جانب ما صاحبه من طواعين الأبقار والآفات الزراعية، قد نتج عنه مجاعات وأزمات اقتصادية ترتب عليها أيضاً أزمات واضطرابات سياسية سادت نواحي كثيرة من العالم ومن بينها مصر وقد أعطانا

الرحالة الطنجي ابن بطوطة الذي كان موجوداً في القاهرة في ذلك الوقت وصفاً مهماً عن هذا الوباء والآثار السيئة التي ترتبت عليه[1] . كذلك عبر عن هذه الحالة المؤرخ المعاصر عبد الرحمن بن خلدون بنظرته الفلسفية الشاملة عندما قال في مقدمته تعقيباً على هذا الوباء[2] :

«وكأني بالمشرق قد نزل به مثلما نزل بالمغرب . . . وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالإجابة، والله وارث الأرض ومن عليها، وإذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله وتحول العالم بأسره وكأنه خلق جديد».

أما الحدث الثاني:

فهو حدث خارجي ويتعلق بالغارة البحرية الوحشية التي شنها ملك قبرص بطرس الأول لوزجنان على مدينة الإسكندرية سنة ١٣٦٥م (٧٦٧هـ) بمساعدة فرسان رودس الاسبتارية والجنوبيين والبنادقة.

ولقد اختار هذا اللعين وقتاً مناسباً لغارته، فالوقت كان موسم فيضان النيل، والطريق بين القاهرة والإسكندرية مملوء بالطين ولا يصلح لمجيء نجدة عسكرية سريعة لإنقاذ المدينة، بل كان على هذه النجدة أن تسلك طريقاً آخر عبر الصحراء وهو طريق طويل شاق، وكان الوقت موسماً للحج وحاكم المدينة صلاح الدين بن عرم غائب عنها لتأدية فريضة الحج وكان نائبه جنغرا رجلاً سيء التدبير عديم المعرفة أي أنه كان رجلاً ضعيفاً متردداً لا يصلح لمثل هذه المواقف الخطيرة، يضاف إلى ذلك أن سلطان مصر كان طفلاً في الثانية عشرة من عمره وهو الأشرف شعبان حفيد الناصر محمد بينما كانت السلطة الحقيقية في يد نائب سلطنته الأمير يلبغا الخاصكي وهذا أدى إلى اضطراب الحالة الداخلية في مصر فالظروف كلها كانت مهيأة لخدمة العدو.

---

(١)تجدر الإشارة إلى أن والدة هذا الرحالة ابن بطوطة ماتت في مدينة طنجة بهذا الوباء ودفنت هناك.

(٢)المقدمة ص ٢٣، ويلاحظ أن ابن خلدون قد فقد، والديه في هذا الوباء أيضاً.

وظن السكندريون في أول الأمر أن السفن الصليبية هي سفن البنادقية الآتية للتجارة على عادتها في كل سنة، ففرحوا لرؤيتها وخرجوا لاستقبالها، ولكنهم قوبلوا بوابل من السهام فأدركوا أنهم أمام خطر صليبي، عندئذ بدأت الاستعدادات على عجل لإغلاق الأبواب وشحن القلاع بالمقاتلة واستدعاء عرب البحيرة للدفاع، غير أن هذه الاستعدادات المرتجلة لم تمنع الصليبيين من اقتحام المدينة، إذ استطاع بعضهم أن يدخل من فتحة قناة الخليج التي تصب في البحر من تحت السور في الميناء الشرقية، وأن يتسلق الحائط من سلمه الداخلي ويشعل النار في باب الديوان (الجمرك) المجاور لها وبذلك تمكن الصليبيون من دخول الإسكندرية ونهبها وحرقها وقتل وأسر عدد كبير من رجالها ونسائها، ولم يفرقوا في ذلك بين المسلمين والنصارى واليهود المقيمين في المدينة. وبعد أربعة أيام من السلب والنهب والدمار اضطر الملك بطرس أن يقلع بأسطوله قبل أن تلحق به جيوش النجدة المصرية قانعاً بما أصابه من غنائم.

كانت هذه الغارة بمثابة ضربة قاتلة لمدينة الاسكندرية إذ أخذ نشاطها التجاري ومكانتها الاقتصادية في الأفول منذ ذلك الوقت وقد علق المقريزي على هذه الحالة بقوله: «وكانت هذه الواقعة من أشنع ما مر بالإسكندرية من الحوادث، ومنها اختلت أحوالها، واتضع أهلها، وقلت أموالهم، وزالت نعمهم»[1].

ولا شك أن هذه الكارثة التي أصابت أهم ميناء تجاري مصري، كانت عواقبها وخيمة على الاقتصاد المصري بصفة عامة، وقد يؤيد ذلك كثرة المنازعات بين أمراء المماليك بصورة أقوى من ذي قبل، ووقوع مصر في أزمات مالية عديدة حتى قيل إن الدولة لم تستطع إخراج المحمل إلى الكعبة أكثر من مرة لفقرها.

---

(١)راجع تفاصيل هذه الغارة في (أحمد مختار العبادي والسيد عبد العزيز سالم: البحرية الإسلامية في مصر والشام ص ٣١٢).

لم تستمر طويلاً الدولة المملوكية الأولى المعروفة بالبحرية بعد هاتين الأزمتين اللتين مرت بهما وهما وباء الطاعون وغارة القبارصة، إذ تمكن في النهاية أمير مملوكي اسمه برقوق من أن يسدل الستار على هذه الفترة المضطربة وعلى أسرة قلاوون بأسرها. ففي سنة ١٣٨٢هـ (٧٨٤هـ) خلع برقوق السلطان حجي آخر سلالة الناصر محمد بن قلاوون، وأعلن نفسه سلطاناً على مصر والشام باسم الملك الظاهر سيف الدين برقوق.

وبهذا السلطان الجديد تبدأ دولة المماليك الثانية المعروفة بالبرجية (نسبة إلى أبراج القلعة) وبالجراكسة أو الشراكسة من باب التسمية العنصرية. غير أن هذه التسميات في رأي أستاذنا المرحوم زيادة غير دقيقة لأن الدولة لم تعتمد على جنس الشراكسة فقط بل اعتمدت على عناصر مملوكية أخرى مختلفة كالتركمان والقفجاق والروم. كذلك كانت أبراج القلعة بالمقطم مأوى لفئات المماليك أيام دولة المماليك الأولى ولذلك نرى أن التسمية الصحيحة التي ينبغي أن نطلقها على هذه الدولة هي التسمية العددية أي دولة المماليك الثانية[١].

وهذه الدولة في الواقع ما هي إلا استمرار لدولة المماليك الأولى في سياستها وتقاليدها وأنظمتها بوجه عام. والأمر الذي جعلها تعتبر دولة منفصلة يرجع إلى أن مؤسسها وهو السلطان برقوق، استطاع أن يقضي على سلطنة أسرة قلاوون ويستأثر بالسلطنة لنفسه فكان ذلك هدماً للمبدأ الوراثي الذي حاولت دولة المماليك الأولى تطبيقه في أواخر أيامها كوسيلة للبقاء والاستمرار.

---

(١) محمد مصطفى زيادة: بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك في مصر. مجلة كلية الآداب، القاهرة سنة ١٩٣٦.

ضمائم

ضميمة رقم (١)
خطاب التهديد الذي أرسله هولاكوخان إلى السلطان سيف الدين قطز سلطان مصر قبيل موقعة عين جالوت[١]

من ملك الملوك شرقاً وغرباً، القان الأعظم.

باسمك اللهم باسط الأرض، ورافع السماء. يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم[٢]، يتنعمون بأنعامه، ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك. يعلم الملك المظفر قطز، وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال، أنا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه. وسلطنا على من حل به غضبه، فلكم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم، قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ، فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرق لمن شكى، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب، فأي أرض تأويكم، وأي طريق تنجيكم، وأي بلاد

(١)المقريزي: السلوك جـ١ ص ٤٢٧ ـ ٤٢٩، وراجع ما قلناه عن هذه الرسالة في موضعه.

(٢)إشارة إلى أصل قطز، وقد تقدم القول بأنه كان من الخوارزمية.

تحميكم؟ فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص. فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يسمع، فإنكم أكلتم الحرام، ولا تعفون عند الكلام، وخنتم العهود والأيمان، وفشا فيكم العقوق والعصيان، فابشروا بالمذلة والهوان، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، فمن طلب حربنا ندم، ومن قصد أماننا سلم، فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم، فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن خالفتم هلكتم. فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم، فقد حذر من أنذر، وقد ثبت عندكم أن نحن الكفرة، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة، وقد سلطنا عليكم من له الأمور المقدرة والأحكام المدبرة، فكثيركم عندنا قليل، وعزيزكم عندنا ذليل. وبغير الأهنة ما لملوككم عندنا سبيل، فلا تطيلوا الخطاب، وأسرعوا برد الجواب، قبل أن تضرم نار الحرب نارها، وترمي نحوكم شرارها، فلا تجدون مناجاها ولا عزا، ولا كافياً ولا حرزاً، وتدهون منا بأعظم داهية وتصبح بلادكم منكم خالية، فقد أنصفناكم إذ راسلناكم، وأيقظناكم إذ حذرناكم، فما بقي لنا مقصد سواكم. والسلام علينا وعليكم، وعلى من أطاع الهدى، وخشي عواقب الردى وأطاع الملك الأعلى.

ألا قل لمصرها هلاوون[1] قد أتى بحد سيوف تنتضي وبواتر
يصير أعز القوم منها أذلة ويلحق أطفالاً لهم بالأكابر

(١)هلاوون صيغة لاسم هولاكو ترد كثيراً في المصادر القديمة المعاصرة.

ضميمة رقم (٢)

رواية صارم الدين أزبك بن عبد الله الأشرفي، في وصف التتار وعاداتهم وموقعة عين جالوت[١]

قال الأمير شهاب الدين قرطاي العزى الخازنداري في تاريخه من صيغته:

قال الصارم أزبك مملوك الملك الأشرف الأيوبي صاحب حمص لما نزل هلاوون على حلب كنت غائباً عنها، فتخبأت في مغارة من مغارات حلب مدة ثلاثة أيام، وأنا أسمع حنين حوافر الخيل فوق رأسي. فلما انقطع الحنين، طلعت من المغارة، فوجدت على بابها رجلاً من التتار ميتاً، فلبست

---

(١)راجع ما قلناه عن هذه الموقعة في موضعه من الكتاب، هذا وقد ورد هذا النص في تاريخ قرطاي العزي الخازنداري الذي لا نعرف عن صاحبه سوى أنه كان من كبار أمراء المماليك وشغل عدة وظائف كبيرة مثل أمير دمشق وحاجب حلب ونائب طرابلس ومات فوق سن الستين سنة ٧٣٤هـ (١٣٣٣م)، وقد كتب تاريخاً نقله المؤرخ المصري ناصر الدين محمد بن الفرات (ت ٨٠٧هـ = ١٤٠٥م) في تاريخه الكبير «الطريق الواضح المسلوك إلى معرفة تراجم الخلفاء والملوك». الذي لم يستطع اتمامه. ويوجد من هذا التاريخ الكبير لابن الفرات تسعة أجزاء (تشمل أخبار سني (٥٠١ ـ ٧٩٩هـ) نشر منها الدكتور قسطنطين زريق الأجزاء ٧، ٨، ٩ التي تضم أخبار سني ٦٧٣ ـ ٧٩٩هـ أما الجزء الذي يهمنا هنا فهو الجزء السادس الذي يضم أخبار سنة ٦٣٥ ـ ٦٥٩هـ ويتضمن تاريخ قرطاي العزي وأخبار صارم الدين أزبك التي وردت هنا في المتن. وهذا الجزء موجود بمكتبة الفاتيكان وقد نشر منه المستشرق ليفي دلافيدا أخبار صارم الدين في:

Levi Della Vida: L'invasione dei Tartari in Syria nel 1260 di un testimone oculate. Orientalia Vol. Iv Roma 1935.

قماشه، وتزيأت بزي التتر، وقصدت دهليز هلاوون. ومن جملة عدل التتار أنهم إذا نزلوا بأرض نصبوا قريباً من الدهليز الذي للملك صاريا، وفي رأس الصاري وضعوا صندوقاً صغيراً معلقاً بالحبال، وعند الصاري وقف من يحرسه وهم جماعة من أكبر أمناء التتار. فإذا كان لرجل شكوى أو ظلامة، يكتب ظلامته في قصة ويختمها ويضعها في ذلك الصندوق، فإذا كان يوم الجمعة، يطلب الملك الصندوق إلى بين يديه، ويفتحه بمفتاح من عنده ويكشف ظلمات الناس، قال الصارم: فكتبت قصة شرحها: «المملوك الصارم» ولم أقل أزبك، وخفت أن أكتب في قصتي أزبك فلا ينادوني التتر يومئذ «يا صارم»، بل ينادوني «يا أزبك». فكتب في القصة: المملوك الصارم مملوك الملك الأشرف صاحب حمص، يقبل الأرض ويسأل الحضور بين يدي القان. فلما طلبني وحضرت بين يديه، رأيت ملكاً جليل القدر عظيم الشأن، كثير الحرمة، قصير القامة. كبير الوجه، جهر الصوت، حنون عينيه على وجهه، والخواتين جالسات إلى جانبه، والست طقز خاتون عن شماله، قال الصارم: لما وقفت بين يدي هلاوون، تكلم معي من حجاب أربعة، وقال لي في جملة كلامه: «أنت مملوك الملك الأشرف صاحب حمص، بهادر المسلمين؟ ـ يعني فارس المسلمين ـ قلت نعم وجعل يحدثني من حاجب إلى حاجب، والحاجب الرابع يتحدث معي بلسان التركية. فلما رآني فصيح اللسان، قوي الجنان، سريع الجواب، قربني إليه، وأمر أن لا يكون بيني وبينه غير حاجب واحد. ثم قال لي: «تشرب الخمر» قلت نعم، فأمر لي بهناب (كأس) مملوء خمراً، وأشار إلى الحاجب فناولني. فقبلت الأرض ورقصت وعملت أشياء كان يعملها الحرفاء بين يدي ملوك الإسلام لما كانت البلاد لهم. فأعجب ذلك الخواتين وانشرحن وتبسمن، فأما هلاوون، فإنه لم يرفع رأسه من الأرض، ثم أمر لي بالجلوس فجلست، وبالشرب فشربت، وبالأكل فأكلت فلما رآني أي أمر أشار به امتثلت، أمرني بالجلوس فوق ندمائه في أعز مكان وأعلاهم مرتبة. وصار لا يأكل إلا وأنا حاضر، ولا يشرب إلا وأنا حاضر، وإن نام هلاوون طلبتني الست طقز خاتون زوجته،

فأقمت على تلك الحال أول ليلة وثاني ليلة وثالث ليلة، ونحن نحاصر حلب، ثم سألني هلاوون عن أمر من الأمور، فجاوبته جواباً كذباً وددت لو ابتعلتني الأرض ولم أنطق به. سألني على لسان حاجبه: في كم من الوقت نملك هذا البلد؟ - يعني حلب - قلت في عشر سنين. فأطرق هلاوون برأسه إلى الأرض غضباً مني. وقال لحاجبه اسئله: في كم مقدار ما نملك هذه القلعة؟ - يعني قلعة حلب قلت: في ثلاثين سنة وقصدت في كلامي أن هلاوون إذا سمع هذا الكلام يرحل عن حلب. فتبسم هلاوون وقال لحاجبه: لولا سابق خدمته لي ضربت عنقه، أما يستحي من هذا الكلام؟ أيكون هذا همة ملوكهم - يعني ملوك المسلمين - المختلفة آرائهم، المشتغلين ببعضهم البعض؟ «كل هذا بلسان التتار، وأنا لم أعلم ما يقول. وقال الصارم: فسكت، وندمت على جوابي له، وذلك لما رأيت من الغيظ الذي تبين في وجهه فلم يفرغ هلاوون من كلامه إلا وقد دخل عليه رجل من التتار، وفي يده رأس مقطوعة من رؤوس بني آدم، معلقة بشعر، وهي مخضبة بالدم، فرماها بين يدي هلاوون وتحدث معه بلسان التتار، ثم أخذ الرأس وخرج، فالتفت الحاجب نحوي وقال لي: يا صارم تعرف ما هذه الرأس، وما هذا الرجل، قلت: لا. قال: هذا أكبر مقدمي التتار، وكان في نقب من بعض النقوبات التي تحت القلعة، وخرج يزيل حقنه، وجعل ولده مكانه فكشفهم الحلبيون وهجموا عليهم في النقب. فهرب ولده ومعه جماعة من التتار، فبلغ ذلك أباه، فعبر النقب وقطع رأس ولده بيده، وجاء بها القان قال الصارم: فعند ذلك عملت أن التتار لا بد لهم من حلب، وأن بنينا وبناتنا ومن يلينا في أيدي التتار، وهذا أمر أراده الله تعالى فلا راد لمشيئته.

وكنت ليلة عند هلاوون ونحن نشرب، إذ ورد عليه جماعة من مقدمي التتار ومعهم أصناف كثيرة من جملتها زبيب وحب قطن وقمح ونجارة خشب وفحم وخروب، فجعل هلاوون ينظر إليهم ويبتسم، ولا أعلم ما في نفسه. ثم أمر لنا بأن نشرب بالأقداح الكبار وبالزبادي. فلما خرجت أقضي شغلاً، لحقني الحاجب وكان يحبني وأحبه محبة عظيمة، وقال يا صارم: أتدري ما

هذا الذي جاء بها المقدمون؟ قلت: لا والله قال: إنهم قد وصلوا في النقيب تحت القلعة إلى أن وصلوا إلى هذا الذي رأيته.

ثم إن هلاوون سأل المقدمين: كم يسع النقب؟ قالوا يسع ستة آلاف رجل. قال: إوسعوه حتى يسع عشرة آلاف، وإن غدا بعد الظهر تأخذ التتار قلعة حلب، وتصبح بناتكم ونساؤكم وبنات الملوك اللواتي تحصن بهذه القلعة جواري لهذه الست طقز خاتون، فانظر يا صارم الدين ماذا تفعل».

قال الصارم: والله لما سمعت هذا الكلام، صحوت من السكر، ودخلت المجلس، وجلست بين يدي هلاوون، وقلت بطريق المصخركية: والله إن ملوك التتر مثل الحمير. فنظرت طقز خاتون نحوي وهي تبتسم وقالت: كيف هذا يا صارم؟ قلت: «إن ملوك المسلمين، كانوا إذا شربوا الخمرة يكون نقلهم الفستق، وشراب الحماض، وأقرص الليمون، في الزبدي الصيني. وقماقم الماورد والريحان والبنفسج والآس المنثور والنرجس، وما يناسب هذه الأشياء العظيمة، وأنتم التتار، تشربون الخمر على الفحم وحب القطن والزبيب ونشارة الخشب وهذه الأشياء القبيحة».

وتبسم هلاوون وضحكت الخواتين. قال الصارم: ثم سبقت مني كلمة كان جزائي فيها أن تضرب عنقي، فقلت: «أنا أعلم من أين جاء هؤلاء المقدمون بهذه الأصناف. فغضب هلاوون وقال: من أين تعلم هذا؟ فقبلت الأرض وقلت: «يحفظ الله القان، وحق رأس الملك، أنا ادخرت هذه الذخائر كلها بيدي في هذه القلعة خوفاً من التتر واستعداداً للحصار «وسكن هلاوون من غيظه، وكان قد اعتقد في نفسه أن الحاجب أوحى إليّ شيئاً من هذا الكلام، وكان الأمر كذلك.

ثم نهضت قائماً وقبلت الأرض، وقلت: نصر الله القان، أن حرمتك عظيمة ومملكتك واسعة، والملوك تخشاك. ولا يقدر أحد منهم أن يقف بين يديك. والله والله ياخوند، الملوك يودون لو كانوا وقوفاً بين يديك مثل

مماليكك هؤلاء الوقوف، ولكن يخافون من سطوتك». فأعجب هلاوون كلامي وقال لي:

يا صارم، قلت: لبيك. قال: «تقدر أن تأتيني بأستاذك الملك الأشرف صاحب حمص؟ قلت: نعم. قال: اركب وآتني به قلت: بعد يومين. قال: نعم. فأمر لي هلاوون بالخيل وقال: اركب ولا تقعد، قلت: بشرط. قال: وما هو؟ قلت أن لا تفتح هذه القلعة إلى أن يحضر الملك الأشرف بين يدي القان، قال: نعم. فركبت وأخذت معي عشرة أكاديش، وعلقت في عنقي الطغمة ـ يعني لوح البريد ـ وسقت ووصلت إلى غزة. فبلغني أن الملوك هاربين في البرية، مشتتين محيرين مبعثرين. وكان قد بلغ ملوك المسلمين منزلتي عند هلاوون، فسقت ولحقت الملوك على منزلة تعرف ببركة زيزة.

فلما رأتني الملوك، نزلوا عن خيولهم وقبلوا يدي كما كنت أقبل أيديهم. وقبل الملك الأشرف أستاذي يدي فعظم ذلك علي واستحييت من أستاذي ومن الملك الناصر، ثم قلت للملك الأشرف: «القان يطلبك». فخاف، فقلت: ممن تخاف؟ قال: من القان. قلت: «الضمان عليّ، تعود ملكاً جليلاً على ما في نفسك ولا يصل إليك مكروه». فالتفت الملك الناصر نحوي وقال: وأنا يا صارم الدين؟ قلت: مالي معك كلام، فبكى الملك الناصر.

ولما أخذت الملك الأشرف ومضيت إلى هلاوون، وحضر بين يديه، رسم له بشقة ينزل فيها، وخروف وقدر وحطب، والله أن الشقة التي ضربها هلاوون للملك الأشرف، لا ترضى الكلاب أن تنزل فيها والخروف لا يرضى الذئب أن يأكله والحطب لا يرضى المشاعلي أن يقده في مشعله، وهكذا عيش التتر دائماً، فتركت الملك الأشرف في الشقة، ومضيت إلى خدمة هلاوون، فأجلسني على جاري عادته، وأمرني أن آكل فأكلت، وأمرني أن أشرب فشربت، وسألني عن أحوال الملوك وما هم فيه، وكيف تركتهم، قلت: في أنحس الأحوال، هاربين مشتتين محيرين في البراري لا يستلذون

بالنوم خوفاً من حرمة القان، فأعجب هلاوون بكلامي، وقال: كيف تركت أستاذك يا صارم؟ قلت: مالي أستاذ إلا القان، قال: لا، ألا أستاذك الملك الأشرف؟ قلت: ما أعلم شيئاً عن حاله. قال: كيف تركته وحده؟ قلت: ما أفارق وجه القان نصره الله. فأطرق هلاوون برأسه زماناً وقال: «لا تقل هذا يا صارم، بل امض إلى أستاذك، وانظر أي حال هو عليه». فأتيت إلى الملك الأشرف، فرأيته ويده تحت خده وهو حزين، والخروف مربوط بحبل، والحطب ملقى على الأرض فقلت: ما بالك يا خوند؟ فقال: ألا ترى هذا الحال يا صارم الدين؟ وبكى. قلت: لا تبك يا خوند، والله والله والله هذا عيش التتر دائماً، وهذا حالهم. والله يا خوند ما فعلوا هذا استقلالاً بك، ولكن هذا خيار عيشة التتر «فتبسم الملك الأشرف وقال: «هكذا تكون الملوك، وبهذا الحال والرجال تملك الملوك البلاد».

وبينما أنا أتحدث مع الملك الأشرف، إذ ورد مرسوم هلاوون بحضوره بين يديه، فوالله لقد رأيت الملك الأشرف تغير لونه، وما رأيت الملك تغير لونه قبلها، ولقد كسر الملك الأشرف الخوارزمية وهم ستة آلاف وهو في ألف وخمسمائة فارس ولم يتغير لونه، ولقد كسر التتار في وقت كان التتر في ألفي وخمسمائة فارس والملك الأشرف في ثمانمائة فارس ولم يتغير لونه.

ولما وقف الملك الأشرف بين يدي هلاوون، وأنا ماسك بشماله والحاجب ماسك بيمينه. والله لقد رأيت الملك الأشرف وهو يرتعد مثل القصبة، ولم يستطع الوقوف على رجليه وذلك خوفاً من هلاوون.

وكان الملك الأشرف شاباً حسن الوجه، أسمر اللون بحمرة، تام القامة بوجهه شامات متفرقة. وكان لابساً قباءً تترياً أخضر ببنود أطلس أحمر، وخف بلغاري بكوابج ذهب وتخفيفة مزركشة. فنظرت طقز خاتون للملك الأشرف، ونظرت إلى هلاوون وقالت: «إن هذا شاب مليح وفارس المسلمين، وهكذا تكون الملوك»، فنظر هلاوون نحوها وتبسم وقال: «إنما نحن الملوك الذين نحضر هذه الملوك بين أيدينا وقوفاً أذلة خائفين من

سطوتنا» كل هذا والملك الأشرف واقف بين يدي هلاوون لا يدري ما يصنع به الدهر، ثم رفع هلاوون رأسه وقال: «يا أشرف، تمنن ما تختار؟ «فقبل الملك الأشرف الأرض ثلاث مرات، قال الصارم فقلت له: اطلب منه أن يهبك هذا البرج الذي في القلعة الذي فيه أمك وأخواتك وبناتك وحريم الملوك وبنات الملك الناصر يوسف وحريمه ومتى لم تطلب منه هذا البرج في هذه الساعة وإلا في هذه الليلة تملك التتار قلعة حلب وتصبح حريم الملوك الإسلامية جواري لهذه الست طقز خاتون. قال الملك الأشرف: لا يكون يقتلني. فقلت له: إن التتر لا يقتلون من يكون عندهم بمنزلة الضيف.

ثم قال هلاوون لثاني مرة: «اطلب ما تختاره يا أشرف سلطان». فقال الملك الأشرف: «أتمنى على القان أن يهب لي هذا البرج الذي فيه حريمي وحريم الملك الناصر وحريم الملوك الذين هم هاربون من سطوة القان». فأغضب هلاوون ذلك، وأطرق إلى الأرض وقال: «اطلب غير هذا». فسكت الملك الأشرف، فنظرت طقز خاتون إلى الملك هلاوون وقالت: «ما تستحي يطلب منك هذا الملك هذا البرج، وتمنعه عنه، والله لو طلب مني حلب ما منعتها عنه، فإنه فارس المسلمين». قال هلاوون: «إنما منعته ذلك لأجلك، لتكون بنات الملوك ونساؤهم جواري بين يديك»، قالت: «أنا قد أعتقتهم لوجه الله تعالى ولأجل الملك الأشرف» فعند ذلك رسم هلاوون للملك الأشرف بما طلب، وقبل الأشرف يد هلاوون ثلاث مرات.

قال الصارم: لما قبل الملك الأشرف يد هلاوون ورجع إلينا ووقف بيننا وأراد أن يقبل الأرض، وأنا ماسك بشماله والحاجب بيمينه، ووالله لقد قبل الملك الأشرف الأرض وأراد القيام فلم يستطع القيام وذلك خوفاً من هلاوون، فأقمته أنا والحاجب بباطيه، وقلت له تثبت وقرأت «يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة».

قال الصارم أزبك الأشرفي: قال لي هولاكو في جملة كلامه: «يا صارم، تختار أن تكون مع الملك الأشرف استاذك أو تكون معي؟» فقبلت

الأرض وقبلت يده، وقلت: «ما أفارق وجه القان». وكان كذباً مني ثم رسم هولاكو بالتوجه إلى الشرق، وجعل كتبغا نوين نائباً له بحلب وأعمالها، وبيدرا نائباً له بدمشق وأعمالها. وتوجه إلى الشرق واستصحب الصارم صحبته، والمماليك الترك البحرية الذين كانوا محبوسين بقلعة حلب وهم: سنقر الأشقر، وسكز، ويرامق، وبكمش المسعودي. وكانوا سبع نفر وقيل تسعة.

قال الصارم: لما وصل هولاكو إلى إعزاز ووصل إلى بلاد الموصل طلبني، وقال يا صارم، تختار المقام عندي وأنا أعطيك طبلخاناه[1]. أو تختار المقام بأرضك بالشام؟ «فقبلت يده وقلت: «ما أفارق وجه القان».

قال: لا، الشام أحب إليك، فإن أهلك وأولادك وأملاكك بالشام «وأمر لي بالخيول والأموال والأنعام، ورسم للملوك والأمراء الذين عنده وفي خدمته أن يعطيني كل منهم على قدره، فوالله العظيم لما انفصلت من بين يدي هولاكو، لم أعلم ما كان حصل لي من الأموال والتحف، لكن الذي عرفته من عدة الخيل ألف وخمسمائة فرس، ومن القماش عشرة آلاف تفصيلة ما بين مروزي وكمخي ونسيج أطلس وعتابي وغير ذلك. ولما أمرني أن أتوجه إلى الشام، قال لي في جملة كلامه: يا صارم أنت تعلم ما فعلنا معك من الخير، أولادي عندك كتبغا وبيدرا هما عندي أعز من أولادي، يكونان تحت نظرك، ويكون حسبك عليهما «كل هذا وأنا أقبل الأرض وأقبل يده ثم قال لي: «يا صارم إذا وصلت إلى كتبغا، امسك رقبته بيدك». ومسك

(١)لا تعلم شيئاً عن نظام امرة طلبخاناه في العهد المغولي، ولعله كان على غرار النظام المتبع في العهد المملوكي حيث كان صاحب امرة طبلخاناه ممن يقتنون أربعين فارساً من المماليك، ليساهم بهم في حروب الدولة. ومن ميزات هذا الأمير عمن دونه مرتبة، أن تكون له فرقة موسيقى حربية تسمى الطلبخاناه تدق بآلاتها على باب داره، ومن أمراء الطلبخاناه كان ولاة الأعمال ـ المديرون ـ وصغار كبار الموظفين مثل نائب الدوادار ووالي القلعة ومقدم المماليك. راجع: (القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٤ ص ٨، ١٣، ١٥، ٥٠).

هولاكو رقبتي بيده، وقال لي: «قل لكتبغا أن بعلبك ودمشق وبلاد الشام بلادي وتحت مملكتي، فما يحل لنا أن نظلم الرعية. كيف تجرأت وأخذت صندوق ذهب من رجل من أهل بعلبك؟ أردد إليه ذهبه وإلا تموت. ولا ترد يدك من رقبته إلى أن يرد إلى صاحب الذهب ذهبه».

قال لي هولاكو لما ودعته: «يا صارم إذا وصلت إلى كتبغا وبيدرا ساعدهم على فتح بخش الفأر[1] ـ يعني بذلك الديار المصرية ـ فإني أمرتهم أن يفتحوا مصر «قال الصارم: أن التتار مثل مصر عندهم مثل بخش الفأر، إذا عبر من مكان لا يخرج إلا منه وذلك لضيق المسلك. ولما أمرني هولاكو بما أمرني به امتثلت أمره بالسمع والطاعة، ثم توجهت إلى الشام، فوجدت التتار قد اجتمعوا على نهر الأردن، فلما رأوني نزلوا عن خيولهم، وقبلوا بين عيني، وذلك إجلال كون عيني قريبة من النظر إلى وجه الملك هولاكو. ثم أبلغت كتبغا ما كان من أمر الصندوق الذهب، وأن الملك هولاكو رسم أنك ترد الصندوق إلى صاحبه فامتثل الأمر بالسمع والطاعة ورد الصندوق إلى صاحبه والله أعلم.

قال الصارم: لما ودعت الملك هلاوون من بلاد الموصل، قال لي في جملة كلامه: «يا صارم، أشكر نعمتي عليك». قلت: يا خوند، أيد الله القان، لك عليّ نعم كثيرة من الله تعالى ومنك. قال: تعرف كيف جئتني؟ قلت: نعم. قال عظمتك في أعين الملوك إلى أن صرت تشفع فيهم عندي، ويقبلوا يدك كما كنت تقبل أيديهم. ثم قال: «يا صارم، أشكر نعمتي».

(١)يعني جحر الفأر. وكانت مصر تعرف عند التتار باسم «كروان سراي» ففي الخطاب الذي وجهه هولاكو إلى الملك الناصر يوسف صاحب الشام يقول: وقد بلغنا أن تجار الشام وغيرهم انهزموا بأموالهم وحريهم إلى كروان سراي، فإن كانوا في الجبال نسفتاها.. الخ. والمقصود بكلمة كروان سراي هو محط الرحال أو فندق المسافرين. ولعل تسمية مصر بهذا اللفظ يرجع إلى انتهاء معظم الطرق التجارية إليها من سائر جهات الشرق والغرب في القرون الوسطى. راجع (المقريزي: السلوك جـ ١ص ٤١٦ حاشية رقم ٣).

فقبلت يده وقلت يحفظ الله القان. نعمتك علي كثيرة. قال: «ولا مثل هذه النعمة؟» قلت: ما هي؟ قال في ليلة كذا وكذا، ونحن على حلب، تحدثت معك بلسان التركية ثلاث كلمات، والله لم يكن جرى مني هذا قبلها لأحد. وما فعلت معك هذا الكلام كله إلا لكي تتوصى بأولادي كتبغا وبيدرا، وتعمل معهما كما فعلت معك، ولا يجيئني كتابك إن شاء الله تعالى إلا بعد أن تكونوا فتحتم مصر.

قال الصارم: لما قدمت الشام، وجدت التتار مجتمعين على نهر الأردن، وقد خرجوا قاصدين الديار المصرية. وقد خرج المسلمون للقائهم. فلما علمت أن التتار لا بد لهم من الديار المصرية، بعثت غلاماً لي في صفة جاسوس، وأمرته أن يجتمع بالملك المظفر قطز، والأمير بيبرس البندقداري، وبلبان الرشيدي، وسنقر الرومي، ويعرفهم أن التتار لا شيء، فلا تخافوا منهم، وأن تكون ميسرة المسلمين قوية بالخيل والرجال، وعرفهم بأن التتار في عسكر قليل، وأوصيته أن يوصي المسلمين أن يكون الملتقى عند طلوع الشمس، فلما وصل غلامي إلى عسكر المسلمين، وجدهم خائفين من التتار خوفاً عظيماً، فاجتمع ببعض الأمراء الذين عرفته بهم، وعرفهم ما أوصيتهم به وكنت قلت في جملة كلامي: قل للأمراء لا تخافوا، هأنذا وأصحابي والملك الأشرف ننهزم بين أيديكم، والله وكذلك كان، فلما سمع الأمراء كلام غلامي، قال بعضهم لبعض: لا يكن هذا معمولية على المسلمين.

فلما كان ملتقى الجمعين على عين جالوت، طلعت الشمس علينا، وظللت عساكر الإسلام. وكان أول سنجق سبق، أحمر وأبيض، وكانوا لابسين العدد المليحة. وأشرقت الشمس على تلك العدد فطلبني كتبغا وقد بهت هو والتتار الذين معه من كثرة تلك العساكر وحسن ما عليهم، وجمالهم وهم منحدرون من الجبل. فطلبني كتبغا وقال لي: يا صارم، هذا رنك[1]

(١)سبق أن أشرنا إلى أن كلمة رنك معناها شعار فيك رسوم تدل على الوظيفة التي =

من؟ قلت: سنقر الرومي. ثم ظهرت سناجق صفر. قال: هذا رنك من؟ قلت: بلبان الرشيدي. ثم تتابعت الأطلاب أولاً فأولاً، وانحدروا من سفح الجبل. ودقت الكوسات[1] والطبلخانات، وامتلأ الوادي والبر من العياط، وغابت الفلاحين وأهل القرى والبلدان من كل جانب. وكنت غراً بمعرفة رنوك المسلمين، فصار كتبغا يسألني: هذا رنك من؟ فصرت أي شيء طلع على لساني قلته.

ثم أن التتار انحازوا إلى الجبل، وفتح الله ونصر هذه الملة المحمدية بالمماليك الترك البحرية، ولم يسلم من التتر من يرد خبراً إلى هلاوون، ولكن قتل الجميع، ولم يرد خبرهم إلا من كان مقيماً بدمشق أو حلب. انتهى ما ذكره قرطاي[2].

= يشغلها صاحب هذا الشعار، وكان من عادة كل أمير مملوكي كبير أو صغير أن يكون له رنك يخصه وبينما كانت رنوك المسلمين في الشرق تدل على الوظائف، إذا بها في أوروبا العصور الوسطى ترمز للأسرة الاقطاعية. فكل أسرة لها شعار خاص تتميز به عن غيرها.

(١) الكوسات آلات نحاسية مثل الصاجات.

(٢) يلاحظ أن هذا النص فضلاً عن الحيوية التي يشتملها عليها، والإشارات القيمة التي يتضمنها فإن له أهمية خاصة للتاريخ السياسي والحضاري على السواء وقد بالغ صارم الدين أزبك في الدور الذي قام به خلال أحداث تلك الفترة، ولكن يبدو أنه لم يغير من جوهر الحقائق التاريخية.

ضميمة رقم (٣)

رسالة السلطان قطز إلى ملك اليمن يبشره بهزيمة التتار

قال القلقشندي[١] :

وهذه نسخة كتاب، كتب بها عن الملك المظفر قطز ـ إلى صاحب اليمن يومئذٍ المنصور[٢] ـ بالبشارة بهزيمة التتار. وأظنها من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر[٣] ، وهي: أعز الله تعالى أنصار المعز الشريف العالي، المولوي، السلطان، الملكي المنصوري، وأعلا مناره، وضاعف اقتداره، نعلمه أنه لما كان النصف من شهر رجب[٤] ، فتح الله بنصر المسلمين على أعداء المسلمين.

. . . . . . أما النصر الذي شهد الضرب بصحته، والطعن بنصيحته، فهو أن التتر خذلهم الله تعالى، استطالوا على الأيام، وخاضوا بلاد الشام، واستنجدوا بقبائلهم على الإسلام:

سعى الطمع المردى بهم لحتوفهم ومن يمسكن ذيل المطامع يعطب

فأقلعت بهم طرائق الضلال، وسارت مراكب أمانيهم في بحار الآمال، فتلك آمال خائبة، ومراكب للظنون عاطبة. . . هذا وعساكر المسلمين مستوطنة في مواطنها، جاذبة عقبانها في وكور ظباها، رابضة آسادها في غيل أقناها، ما تزلزل لمؤمن قدم إلا وقدم إيمانه راسخة، ولا ثبتت لأحد حجة

---

(١)القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٧ ص ٣٦٠ ـ ٣٦٢.

(٢)لعله الملك المنصور نور الدين عمر بن علي سلطان الدولة الرسولية باليمن.

(٣)صاحب ديوان الإنشاء أيام قطز وبيبرس وقلاوون والأشرف خليل وتوفي سنة ١٢٩٢م. وله كتاب تشريف الأيام والعصور في سيرة المنصور تحقيق مراد كامل (القاهرة ١٩٦١).

(٤)هذا التاريخ يتعارض مع ما ورد في المراجع العربية الأخرى من أن موقعة عين جالوت حدثت يوم الجمعة ١٥ رمضان سنة ٦٥٨هـ ٣ سبتمبر ١٩٦٠م.

إلا وكانت الجمعة ناسخة، ولا عقدت برجمة ناقوس إلا وحلها الأذان، ولا نطق كتاب إلا وأخرسه القرآن.

ولم تزل أخبار المسلمين تنتقل إلى الكفار، وأخبار الكفار تنتقل إلى المسلمين، إلى أن خلط الصباح فضته بذهب الأصيل، وصار اليوم كأمس، ونسخت آية الليل بسورة الشمس، واكتحلت الأعين بمرود السبات، وخاف كل من المسلمين إصدار البيات:

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي بأخرى الأعادي، فهو يقظان نائم

إلى أن تراءت العين بالعين، واضطرم نار الحرب بين الفريقين فلم تر إلا ضرباً يجعل البرق نضواً، ويترك في بطن كل من المشركين شلواً، حتى صارت المفاوز دلاصاً، ومراتع الظبا للظبا عراصاً، واقتضت آساد المسلمين المشركين اقتناصاً، ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مناصاً، فلا روضة إلا درع، ولا جدول إلا حسام، ولا غمامة إلا نقع، ولا وبل إلا سهام، ولا مدام إلا دماء، ولا نغم إلا صهيل، ولا معربد إلا قاتل، ولا سكران إلا قتيل، حتى صار كافور الدين شقيقا، وتلون الحصباء من الدماء عقيقا، وضرب النقع في السماء طريقاً، وازدحمت الجنائب في الفضاء فجعلته مضيقاً، وقتل من المشركين كل جبار عنيد، ذلك ما قدمت أيديهم، «وما ربك بظلام للعبيد».

وقلت[1] : وهذه النسخة تلقفتها من أفواه بعض الناس، ذكر أنه وجدها في بعض المجامع فحفظها منه، وهي في غاية من البلاغة، إلا أنها لا تخلو من تغيير وقع في بعض أماكنها، ولعله من الناقل لها، من حيث أنه ليس من أهل هذه الصناعة، ولم يسعني ترك إيرادها لما فيها من المحاسن، ولانفرادها بأسلوب من الأساليب التي كتب بها إلى ملوك اليمن، فأوردتها على ما هي عليه، وجزى الله خيراً من ظفر لها بنسخة صحيحة فقابلها عليها وصححها وأصلح ما فيها.

---

(١)هذا كلام القلقشندي معلقاً على الرسالة.

بعض المصادر الهامة في تاريخ الأيوبيين والمماليك:

١ ـ أبو علي محيي الدين اللخمي المعروف بالقاضي الفاضل (ت٥٩٦هـ).

ولد بعسقلان ونشأ في مصر وعمل في ديوان الإنشاء بالقاهرة أواخر الدولة الفاطمية وبعد سقوط هذه الدولة عمل كاتباً لشيركوه ثم لصلاح الدين. وقد أخلص القاضي الفاضل في تعليم صلاح الدين أسرار الحكم وقواعده العسكرية والإدارية والمالية، فلم يلبث صلاح الدين أن جعله وزيره ومستشاره الأول، وصار لا يستطيع الاستغناء عن مشورته ونصائحه.

وقد دون القاضي الفاضل مشاهداته كلها على شكل رسائل مرتبة على الأيام، فهي أشبه بجريدة رسمية يومية لديوان الإنشاء. وهي تشتمل على المراسلات التي دارت بين صلاح الدين وبين ملوك الصليبيين وأمراء المسلمين، وهي كلها من إنشاء القاضي الفاضل.

وهذه الرسائل للأسف لم تجمع في كتاب واحد بل هي مفرقة في كتب المؤرخين الذين جاءوا بعده مثل أبي شامة في كتاب الروضتين والقلقشندي في صبح الأعشى.

٢ ـ عماد الدين محمد الأصفهاني (ت ٥٩٧هـ).

يلقب بالكاتب لأنه عمل كاتباً لنور الدين ثم لصلاح الدين بعد ذلك. وكان العماد يصحب صلاح الدين في كل تنقلاته فكان مؤرخاً حربياً نقل إلينا في كتبه العديد من أخبار حروب صلاح الدين وانتصاراته.

يحكي أن العماد قابل يوماً القاضي الفاضل وهو على فرسه فقال له: سر فلا كبا بك الفرس فرد عليه القاضي الفاضل: دام علا العماد. وكل منهما

يقرأ مقلوباً وصحيحاً. ومن أهم كتب العماد الأصفهاني:

أ ـ البرق الشامي: يتحدث فيه عما وقع له أثناء خدمته لنور الدين وصلاح الدين كما يتحدث عن فتوحات هذين البطلين في الشام، وهذا الكتاب لا يزال مخطوطاً.

ب ـ الفتح القسي في الفتح القدسي: اقتصر فيه على فتح صلاح الدين لبيت المقدس وصراعه مع الحملة الصليبية الثالثة. طبع في القاهرة ١٣٢١هـ.

جـ ـ خريدة القصر وجريدة العصر ـ القسم الأول عن شعراء مصر ـ يتكلم فيه عن شعراء عصره ولكنه في نفس الوقت يصور أعمال صلاح الدين وحروبه فهو مصدر تاريخي أدبي. نشر هذا القسم في القاهرة في جزءين (١٩٥١ ـ ١٩٥٢م) نشره أحمد أمين وشوقي ضيف وإحسان عباس.

د ـ دولة آل سلجوق: وهو تاريخ عام للسلاجقة وأتابكياتهم. نشر هذا الكتاب في القاهرة ١٩٠٠م.

٣ ـ أسامة بن منقذ (ت ٥٨٣هـ) ١١٨٧م.

أحد أمراء بني منقذ أمراء قلعة شيزر على نهر العاصي في شمال الشام وما زال هذا المكان يعرف إلى اليوم باسم سيجر على بعد خمسة عشر ميلاً شمالي حماه على الضفة الغربية لنهر العاصي. لم يستطع الصليبيون الاستيلاء على قلعة شيزر لحصانتها والتفاف نهر العاصي حولها. ولهذا استطاع أسامة بحكم جواره للصليبيين أن يكون شاهد عيان لكثير من الحوادث التي جرت في تلك المنطقة. هذا فضلاً عن أنه طاف بمعظم العواصم الإسلامية بالشرق العربي كما زار فلسطين أيام أن كانت خاضعة للصليبيين واتصل ببعض ملوكهم وكانت له معهم نوادر ومشاكل وصداقات. وقد دون كل مشاهداته أو مذكراته عن هذه البلاد في كتابه الذي أسماه «كتاب الاعتبار» وهو يعتبر وثيقة تاريخية هامة عن فترة الحرب الصليبية في تلك الآونة سواء من ناحية الجانب

الإسلامي أو الجانب المسيحي فضلاً عن أنه يتضمن صوراً مقارنة بين عادات المسلمين والفرنجة شاهدها وعاينها أسامة بنفسه ولقد كان أسامة موضع إطراء معاصريه فسماه الذهبي بأحد أبطال الإسلام، ووصفه ابن الأثير بأنه كان في غاية الشجاعة، أما العماد الأصفهاني فقد مدح شاعريته وأدبه في كتابه خريدة القصر كذلك أشار أبو شامة إلى أن صلاح الدين كان يحتفظ بديوان شعر لأسامة وأنه كان معجباً بشعره، وتوفي أسامة سنة ٥٨٣هـ بدمشق في نفس السنة التي استرجع فيها صلاح الدين بيت القدس عن سن تناهز التسعين وقد ترك عدة كتب أهمها كتاب الاعتبار الذي نشره أولاً المستشرق الألماني درنبورغ ثم أعاد نشره فيليب حتي بعد تصحيح أخطاء كثيرة ثم ترجمه إلى الإنجليزية إلى جانب ترجمة درنبورغ الألمانية وشومان الفرنسية.

ولعل أسامة كان يقصد من عنوان كتابه «الاعتبار» أن يعتبر القارىء بما حل بغيره وأن ركوب المخاطر لا يقدم ولا يؤخر الأجل المكتوب.

٤ ـ الرحالة الأندلسي ابن جبير (ت ٦١٣هـ) ١٢١٧م محمد بن أحمد.

زار الشام في أواخر القرن السادس الهجري (١٢م) ووصف رحلته في كتابه المسمى «تذكرة بالأخبار عن اتفاقيات الأسفار» وقد نشر عدة مرات تحت اسم رحلة ابن جبير ومن أهم ما ورد فيه وصف التعاون الزراعي والتجاري والصناعي بين المسلمين والصليبيين في الإمارات الصليبية وذلك لأن الصليبيين أدركوا بأن استمرار بقائهم في إماراتهم يتوقف على التعاون والاندماج مع أهالي المنطقة والذوبان فيها، وقد مات ابن جبير في الإسكندرية ودفن بها. ويقال إنه مقام سيدي جابر حالياً وأن العامة حرفت اسمه.

٥ ـ بهاء الدين بن شداد (ت ٦٣٢هـ) ١٢٣٤م.

عاصر صلاح الدين الأيوبي وكتب عنه كتاباً يتناول سيرته بعنوان: «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية». نشره أول مرة شولتنز سنة ١٧٥٥م ثم أعيد نشره في القاهرة سنة ١٣١٧هـ ثم نشره أخيراً سنة ١٩٦٤ المرحوم

جمال الدين الشيال. كذلك ترجم كوندر هذا الكتاب إلى الإنجليزية سنة ١٨٩٧.

وينبغي أن نفرق بين بهاء الدين بن شداد وبين سميه عز الدين محمد بن شداد الذي عاش بعده بخمسين سنة وفي نفس مدينة حلب وتوفي بها سنة ٦٨٤هـ ١٢٨٥. وقد ألف هو الآخر كتاباً عن سيرة سلطانه في ذلك الوقت هو الظاهر بيبرس بعنوان «الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر».

٦ ـ كتاب مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، لجمال الدين بن واصل الحموي المتوفى عام ٦٨٧هـ ـ ١٢٩٧م.

أهمية هذا الكتاب أن مؤلفه عاش في مصر وعاصر سقوط الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك في مصر فروايته لحوادث هذه الفترة لها قيمتها بحكم كونه شاهد عيان لها، ولقد نشر الدكتور جمال الدين الشيال الجزء الأول والثاني والثالث من هذا الكتاب وتناول أخبار الأيوبيين حتى نهاية عصر صلاح الدين الأيوبي أما الجزء الأخير من هذا الكتاب ويشمل الجزءين الرابع والخامس فقام بنشرهما د. ربيع حسنين، د. سعيد عاشور.

٧ ـ شهاب الدين أبو شامة الدمشقي، المتوفى في عام ٦٦٥هـ ١٢٦٨م.

هذا المؤرخ كان معاصراً لابن واصل وكان مقيماً بالشام ولذا اهتم بصفة خاصة بأخبار الشام. ولما كانت الشام ومصر تكونان دولة واحدة أيام الأيوبيين والمماليك، فإن أحداث الشام ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بأحداث مصر وهذا يفسر لنا أهمية مؤلفات أبي شامة، ولقد كتب هذا المؤرخ كتابين:

أ ـ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (النورية والصلاحية). ويقع في جزءين ويتناول تاريخ دولة نور الدين محمود زنكي ودولة صلاح الدين الأيوبي (القاهرة ١٢٨٧هـ).

ب ـ كتاب الذيل على الروضتين: يتناول فترة الانتقال بين الأيوبيين والمماليك وقد نشره عزت العطار الحسيني بعنوان تراجم رجال القرنين

السادس والسابع الهجري (القاهرة ١٩٤٧).

٨ ـ **الملك المؤيد أبو الفداء: كتاب المختصر في أخبار البشر (أربعة أجزاء في مجلدين).**

مؤلف هذا الكتاب أمير من سلالة الأيوبيين، وصاحب مدينة حماة أيام السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون. وكانت تربطه بهذا السلطان صداقة متينة وكثيراً ما خرج معه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج. وكان السلطان الناصر لا يناديه إلا بأخي، وقد استطاع أبو الفداء بحكم مركزه ونفوذه أن يطلع على الوثائق والكتب الهامة وأن يكتب لنا تاريخاً صحيحاً على جانب كبير من الأهمية وهو كتاب المختصر في أخبار البشر، وتوفي أبو الفداء في عام ٧٣٢هـ ١٣٣١م.

هناك كتب عامة على شكل موسوعات تاريخية تناولت تاريخ مصر الإسلامية، وكتبها مؤرخون مصريون عاشوا في القرنين الثامن والتاسع القرن التاسع الهجري فهم متأخرون نسبياً إلا أن كتبهم على جانب عظيم من الأهمية لأنها حفظت لنا تراث ومجهودات المؤرخين المعاصرين الذين ضاعت كتبهم على مر السنين ولم تصل إلينا.

ومن أهم هؤلاء المؤرخين الذين أرخوا للعصر المملوكي نذكر المؤرخ المصري:

٩ ـ **تقي الدين أحمد المقريزي المتوفى سنة ٨٤٥هـ ـ ١٤٤٢م أي في العصر المملوكي الثاني:**

يعتبر بحق شيخ المؤرخين المصريين في العصور الوسطى، ويكفي أن نشير إلى أنه قد تتلمذ على يد فيلسوف مؤرخي العرب قاطبة عبد الرحمن بن خلدون صاحب المقدمة المشهورة والمقريزي مؤرخ مصري قاهري، ولد بالقاهرة وتوفي بها، أما لفظ المقريزي فينسب إلى حارة لمقارزه بمدينة بعلبك حيث كانت أسرته من قبل ثم انتقلت إلى مصر في حياة أبيه.

المقريزي ألف كتباً كثيرة في تاريخ مصر الإسلامي، يهمنا منها في

دراسة عصر المماليك:

أ ـ كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك: ويتناول تاريخ مصر الأيوبي والمملوكي حتى عام ٨٤٤هـ. وقد نشر منه المرحوم محمد مصطفى زيادة الجزءين الأول والثاني الذي ينتهي بعصر الناصر محمد بن قلاوون أي حتى عام ٧٤١هـ ثم نشر سعيد عاشور الجزءين الثالث والرابع.

ب ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: ويعرف بالخطط على سبيل الاختصار، وهذا الكتاب يعطينا فكرة واضحة عن حضارة المماليك وآثارهم في مصر كما يصور لنا المجتمع المصري في أيامهم. والكتاب يقع في جزئين من طبعة بولاق بالقاهرة كما توجد طبعة أخرى لمطبعة النيل في أربعة أجزاء، والأولى أدق.

هذا وقد ترجم المستشرقون أجزاءً كثيرة منه لأهميته كما اعتمد عليه علي باشا مبارك في القرن الماضي في موسوعته المعروفة بالخطط التوفيقية في مصر والقاهرة.

جـ ـ إغاثة الأمة بكشف الغمة: يستقصي فيه المقريزي الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية مفسراً بها الأحداث التاريخية التي حلت بمصر ولا شك أن المقريزي في هذا الاتجاه قد تأثر بطريقة أستاذه عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته.

نشر كتاب الإغاثة الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور جمال الدين الشيال، وقدم له الدكتور حسين فهمي بمقدمة اقتصادية هامة.

د ـ البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب: كتاب صغير به إشارة إلى ثورة الأعراب التي قامت بمصر أيام السلطان أيبك نشر محمد عابدين.

١٠ ـ أبو المحاسن بن تغري بردي: المتوفى سنة ٨٧٤هـ ـ ١٤٦٥م.

وهو من تلاميذ المقريزي، وقد كتب موسوعة عامة في تاريخ مصر

السياسي في العصور الوسطى من الفتح الإسلامي حتى العصر الذي عاش فيه وهو: كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ويهمنا منه الأجزاء ٧، ٨، ٩ ويمتاز هذا الكتاب بحسن العرض والتبويب، أفرد المؤرخ لكل سلطان مملوكي ترجمة مستقلة خاصة به وفي نهاية كل ترجمة يعرض لنا الأحداث التي مرت بالعالم الإسلامي في عهد صاحب الترجمة مرتبة على طريقة السنوات ولأبي المحاسن كتاب آخر لا يزال مخطوطاً بدار الكتب وعنوانه: المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي: وهذا الكتاب مهم جداً لأن المؤلف أورد أحداثاً لم ترد في كتابه النجوم الزاهرة كما صحح فيه بعض الأخطاء التي وقع فيها في كتابه السالف الذكر.

١١ ـ جلال الدين السيوطي: عاش في أواخر عصر المماليك وتوفي ٩١١هـ ـ ١٥٠٥م وله كتابان مهمان في دراسة الفترة التي نحن بصددها:

أ ـ كتاب حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (جزءان في مجلد).

ب ـ تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين (من القرن الأول الهجري إلى عهد السلطان الأشرف قايتباي ٩٠١هـ).

١٢ ـ ابن إياس المصري:

عاش كذلك في نهاية الدولة المملوكية وعاصر سقوطها على يد العثمانيين وتوفي في عام ٩٣٠هـ ـ ١٥٢٣م وقد كتب تاريخاً عاماً لمصر حتى أيامه وهو: بدائع الزهور في وقائع الدهور (٣ أجزاء).

١٣ ـ القلقشندي: أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ ـ ١٤١٨م)

مؤرخ مصري من بلدة قلقشندة من أعمال محافظة القليوبية وضع موسوعة تاريخية أدبية أسماها: صبح الأعشى في صناعة الانشا وتقع في ١٤ جزءاً. يهمنا منها الجزء الرابع الذي يتضمن الكلام عن نظم الحكم المختلفة في الدولة المملوكية مثل الجيش والبريد والقضاء والزي والملابس والمواسم والأعياد والمواكب. . . الخ.

وقد اعتمد عليه المستشرقون لأهميته نذكر منهم على سبيل المثال:

Gaudefroy Demombynes: La Syrie a L'Epoque des mamelouks.

١٤ ـ مفضل بن أبي الفضائل: (ت ٦٧٢هـ ـ ١٢٧٣م).

النهج السديد وترجمه إلى الفرنسية مع مقدمة دراسية بلوشي E. Blochet (باريس ١٩١٢).

١٥ ـ ابن الفوطي: كمال الدين عبد الرزاق أحمد الشيباني (ت٧٢٣هـ ـ ١٣٢٣م).

الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة (بغداد ١٣٥١هـ).

١٦ ـ ابن بطوطة: محمد عبد الله اللواتي الطنجي (ت ٧٧٩هـ ـ ١٣٧٧م).

تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ٤ أجزاء، تحقيق وترجمة دفريمري وسانجونتي (باريس ١٩٢٢).

١٧ ـ الخزرجي: علي بن حسن (القرن الثامن الهجري).

العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية باليمن. جزءان (مجموعة جب الجزء الثالث).

١٨ ـ ابن الفرات: محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧هـ/ ١٤٠٥م).

الطريق الواضح المسلوك في معرفة تراجم الخلفاء والملوك. ٩ أجزاء حقق معظمه قسطنطين زريق وآخرون (بيروت ١٩٣٩).

١٩ ـ النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢هـ ـ ١٣٣٢م).

نهاية الأرب في فنون الأدب ١٨ جزءاً (القاهرة ١٩٢٣ ـ ١٩٣١).

٢٠ ـ النويري: محمد بن قاسم بن محمد النويري الإسكندراني (ت ٧٧٥هـ ـ ١٣٧٢م).

الإلمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام المقضية في واقعة الإسكندرية. ٧ أجزاء، تحقيق عزيز سوريال عطية واثيين كومب (المطبعة العثمانية بحيدر أباد الدكن بالهند ١٩٦٨ ـ ١٩٧٦م).

مراجع حديثة

- أحمد مختار العبادي:
* قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام (بيروت ١٩٦٩).
* الصقالبة في أسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوبية (مدريد ١٩٥٣).
* دراسة حول كتاب البارود والأسلحة النارية لدافيد أيالون (هسبريس ١٩٥٩).
* تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام بالاشتراك مع عبد العزيز سالم (بيروت ١٩٧٢).
- أرشيبالد لويس:
* القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (ترجمة محمد عيسى).
- الباز العريني:
* مصر في عصر الأيوبيين (القاهرة ١٩٦٠).
- جمال الشيال:
* تاريخ مصر الإسلامية. جزءان.
- جزيف نسيم:
* لويس التاسع في الشرق الأوسط (القاهرة ١٩٥٩).
* العدوان الصليبي على مصر (الإسكندرية في ١٩٦٨).
- حسن حبشي:
* نور الدين والصليبيون (القاهرة ١٩٤٨).
* الحرب الصليبية الأولى (القاهرة ١٩٤٧).
- حسن السندوبي:
* أبو العباس المرسي ومسجده الجامع بالإسكندرية (القاهرة ١٩٤٤).

- حسنين ربيع:
* النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين.
- جمال سرور:
* عصر الظاهر بيبرس (القاهرة ١٩٣٨).
* دولة بني قلاوون (القاهرة ١٩٤٧).
- دراج أحمد:
* المماليك والفرنج في القرن الخامس عشر الميلادي.
- زترستين:
* تاريخ سلاطين المماليك (ليدن ١٩١٩).
- سعاد ماهر:
* البحرية في مصر الإسلامية.
- سرهنك باشا:
* حقائق الأخبار عن دولة البحار، جزءان.
- سعيد عبد الفتاح عاشور:
* الحركة الصليبية، جزءان.
* مصر في عصر دولة المماليك.
* العصر المماليكي في مصر والشام.
* قبرص والحرب الصليبية.
- طرخان إبراهيم:
* مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة (القاهرة ١٩٥٩).
- عبد الرحمن زكي:
* معركة المنصورة وأثرها في الحروب الصليبية.
* القلاع والحروب الصليبية.
* موسوعة مدينة القاهرة.
- عبد العزيز سالم:
* تاريخ الإسكندرية في العصر الإسلامي (١٩٦٨).
* طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي (١٩٦٧).

- عبد المنعم ماجد:
* نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر (القاهرة ١٩٦٤).
* الناصر صلاح الدين الأيوبي (القاهرة ١٩٠٨).
- عمر كمال توفيق:
* مملكة بيت المقدس الصليبية (الإسكندرية ١٩٥٨).
- علي إبراهيم حسن:
* دراسات في تاريخ المماليك البحرية (القاهرة ١٩٤٢).
- فؤاد عبد المعطي الصياد:
* مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين الهمذاني (القاهرة ١٩٦٧).
- محمد حمدي المناوي:
* نهر النيل في المكتبة العربية.
- محمد رمزي:
* القاموس الجغرافي للبلاد المصرية (القاهرة ١٩٥٣).
- محمد مصطفى زيادة:
* الغزوة الكبرى الأولى لاستيلاء الصليبيين على مصر (كتاب كفاحنا ضد الغزاة).
* المصريون في قبرص (من رسائل وزارة الدفاع الوطني).
* بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك في مصر (مجلة كلية آداب القاهرة ١٩٣٦).
* نهاية سلاطين المماليك (مجلة الجمعية التاريخية المصرية ١٩٥١).
- محمد رزق سليم:
* سلاطين المماليك (٣ أجزاء).
- محمود سعيد عمران:
* الحملة الصليبية الخامسة (حملة جان دي بريبي على مصر) (الإسكندرية ١٩٧٨).
- مصطفى مسعد:
* الإسلام والنوبة في العصور الوسطى (القاهرة ١٩٦٠).

مراجـع أوروبيـة

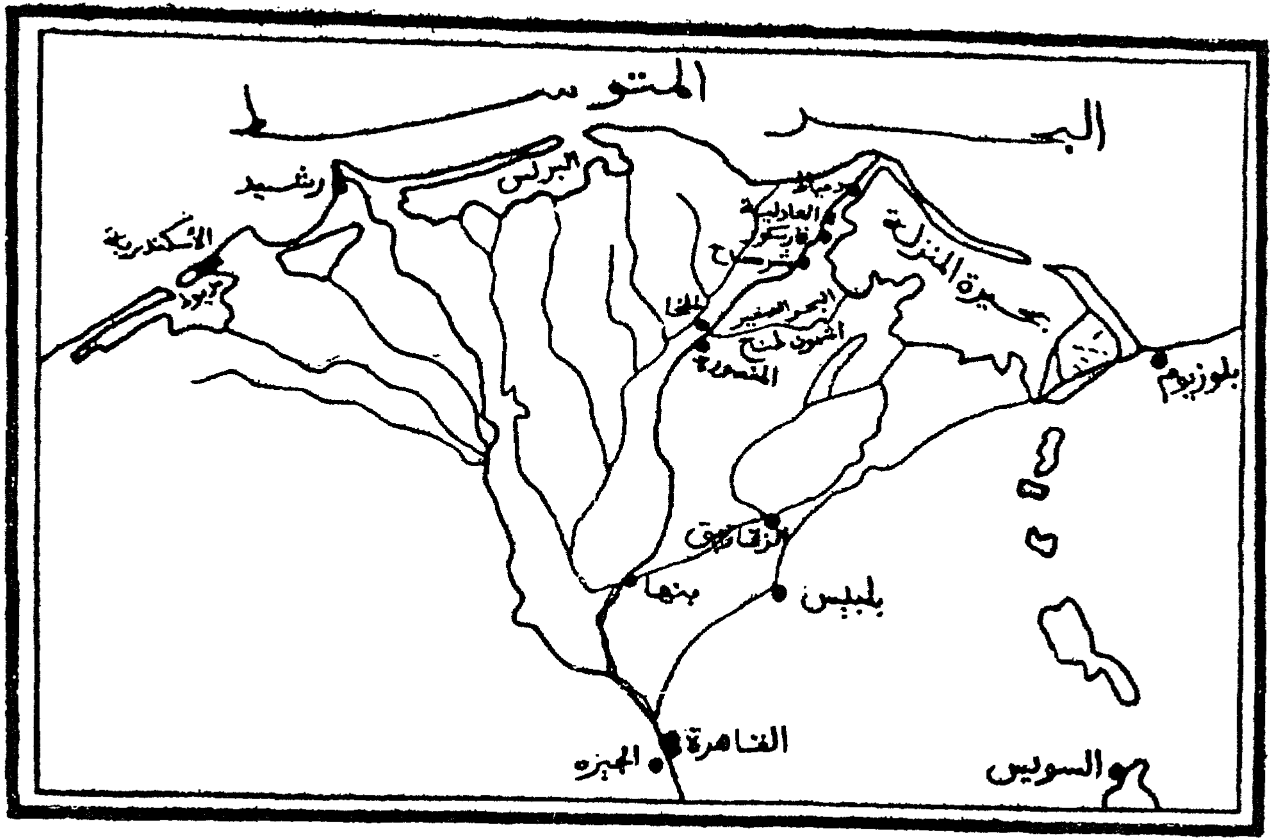
- Blochet E:
  Histoire des Sultans mamlouks (Paris 1912).
  Cambride medieval History, Vols IV, VI.
- Creswell:
  The Works of Sultan Bibars in Egypt.
  Bullet in de I Institut Française d'archeologoie tome 26 fasc. 3.
- Grousset:
  Histoire des Croisades, 3 Tomes (Paris 1936).
- Heyd:
  Histoire du commerce du Levant au moyen age, 2Vols (Leipzig 1889).
- Howorth Henry:
  History of the Mongols, Vols I, III. (London 1880).
- Joinville Jean:
  Histoire de Saint Louis (Paris 1874).
- King E:
  The Knights Hospitallers in the Holy Land (London 1931)
- Lane Poole:
  History of Egypt in the Middle ages (London 1925).
- Runc Iman:
  A History of the Crusades 3 Vols (London 1958).

- ترجمة المرحوم الباز العريني تحت عنوان «تاريخ الحروب الصليبية» في ٣ أجزاء (بيروت ١٩٦٩).

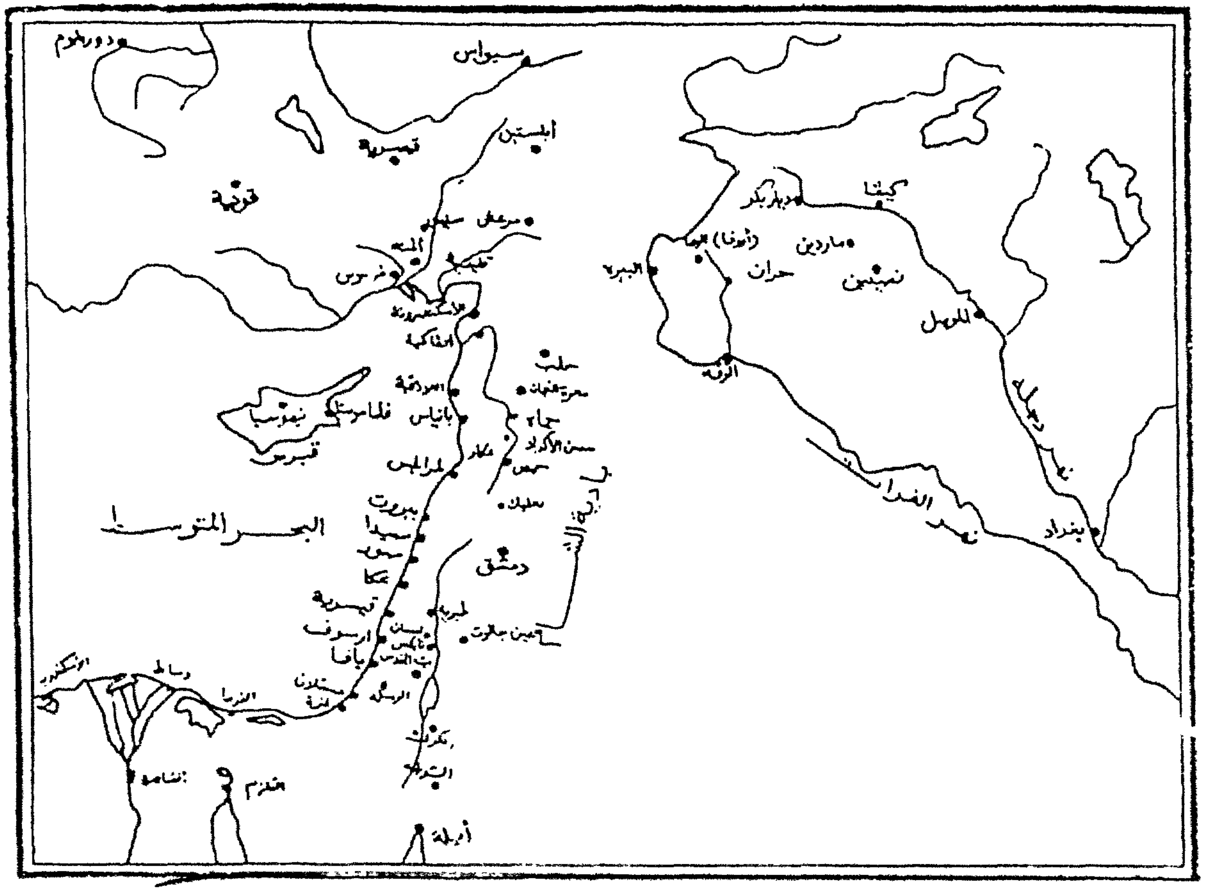
- Wiet Gaston:
  Histoire de la nation Egyptienne t. IV (Paris, 1926).
  Precis de l'Histoire d'Egypte, t.II (Le Caire 1322).



الهند في عصر دولة سلاطين المماليك بدلهي



دلتا النيل أثناء حملة لويس التاسع



الشام وآسيا الصغرى والعراق في عصر دولة المماليك

فهرس الموضوعات

الفصل الرابع
انتقال السلطنة إلى المماليك البحرية الصالحية

الفصل الخامس
خطر المغول أو التتار على الدولة المملوكية

الفصل السادس
تدعيم أركان الدولة المملوكية في مصر والشام

الموضوع الصفحة

الفصل السابع
دولة بني قلاوون في مصر والشام
المنصور سيف الدين قلاوون (٦٧٨ ـ ٦٨٩ هـ / ١٢٧٩ ـ ١٢٩٠ م)